العلم والتربية

بقلم

خليل زينيه

الكتاب: العلم والتربية

الكاتب: خليل زينيه

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى ١٩٣٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

زينيه ، خليل

العلم والتربية / خليل زينيه

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٠٢٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٨٨٦ / ٢٠٢٠

العلم والتربية





إهداء الكتاب

إلى مقام الوزير الكبير والمشير الخطير صاحب الدولة

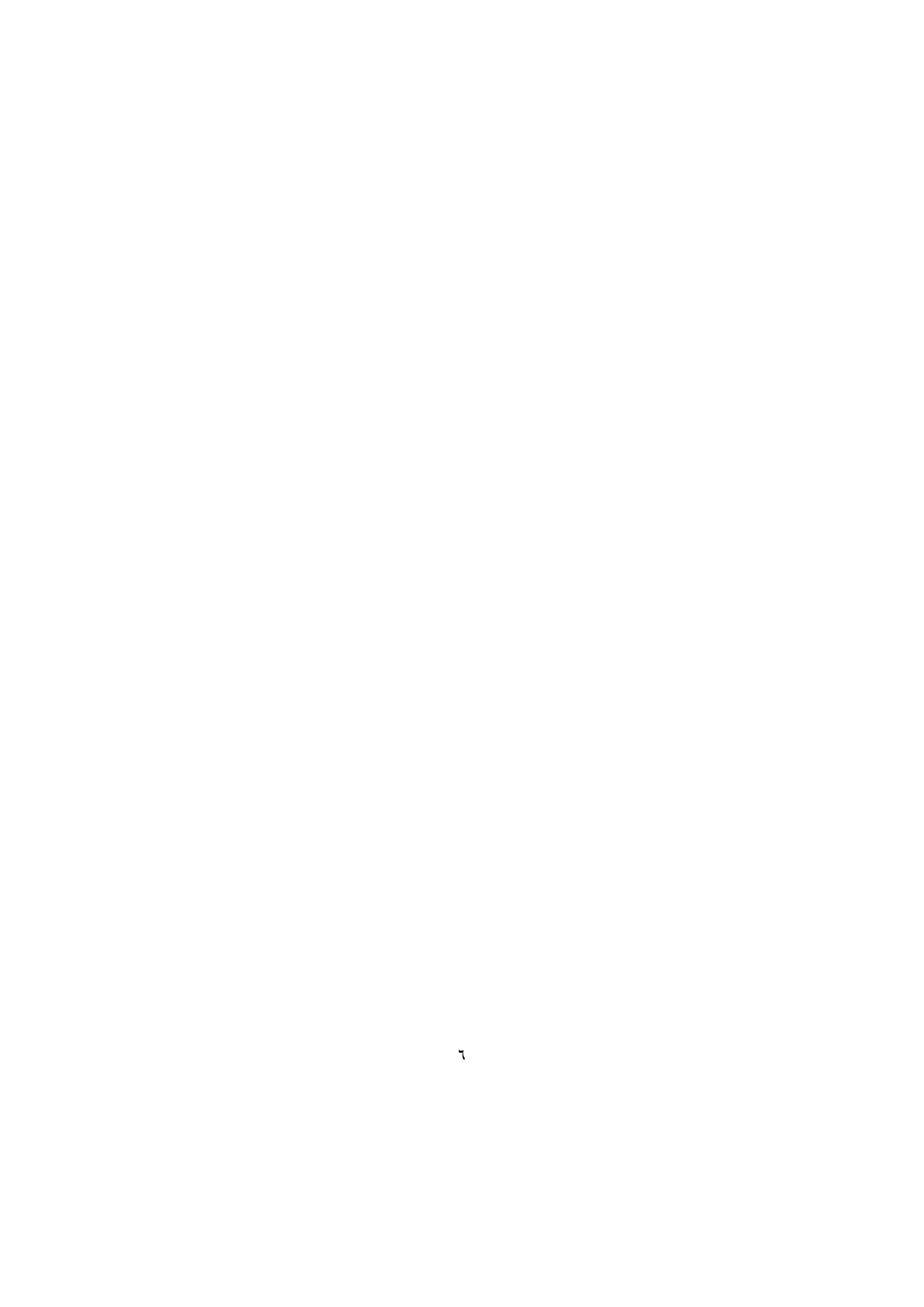
مصطفي رياض باشا

إلى مقام عليائك أتشرف برفع هذا الكتاب، وفي رياض فضلك وعرفانك ألقي بدار التربية والآداب، فأنت زعيم نهضة الأدب في مصر، وأنت أنت ملاذ الشبيبة العربية في هذا العصر فلا بدع، إذا حطت لدى بابك رحالها، ولا غرو أن تبني علي صخرة عملك الراسخ آمالها، بل لا غرو أن يرفع إلى ناديك المؤهل هذا الكتاب. ولا عجب أن يلقى في حضرتك مقامًا فسيح الرحاب، فلقد جاء في كل كلام مشهور ومثل مأثور أن على أمثالها تقع الطيو. فإذا لم يرفع إلى ناديك هذا المؤلف فإلى أي نادٍ يرفع، وإذا لم يعوذ باسمك الكريم فأية تعويذة تنفع، وأنت أول ساعتين في بث روح الأدب والعرفان، وفي جنابك الرفيع رددت وتكررت حقيقة لا يختلف فيها اثنان: وهي أن الأدب والعلم فراقدان متلازمان، بل صنوان لا يفترقان، فمن نال أحدهما دون الآخر فما بلغ المنى، ومن عمل علي التفريق بينهما فقد أثم وجنى.

وهذا الكتاب قد وضعته باسمك الكريم في هذا الموضوع الخطير، واهتديت في وضعه وتأليفه بنبراس رأيك الثاقب المنير، فتقبله مولاي الوزير غير مأمور، واقبله بين يديك، واشمله أعزك الله بنظره، فأنه شاخص بنظره إليك، أدامك الله ملجأ للآداب ومد في بقائك مدي السنين والأحقاب حتى تري الشرق مرتديًا ثوب العلم والنجاح، وتري مصر رافلة بحلل العز، والتقدم، والفلاح.

ولا برحـــت عليـــك مخيمـــات سـرادق رفعـه الشــرف المكــين

خليل زينيه



المقدمة

لا مراء في أن الشعوب كالأفراد تصل في حياتها إلى ساعات يستولي فيها الاضطراب عليها، ويأخذها الجزع فتسير متسكعة، ولا تبصر ما أمامها، ولا تدري بما وراءها، وهي أزمان ملؤها مِحن وآلام تميل فيها الممالك إلى الخراب، وتخطو فيها الشعوب الخطوات الأولي نحو الانحطاط، فتغل أيدي الرجال، وتقف حركة الرجاء والآمال.

حينئذ يستولى اليأس علي القلوب، ويأخذ القنوط بجامع النفوس، وأعوذ بالله من ذاك إذا اشرع عوامله، وهذا إذا ألقى رواحله، والويل لشعب يكون رأس ماله اليأس ومهره القنوط، ولست أدري كيف يقنط امروء وفيه عرق ينبض؟، ولا كيف ييأس شعب وفي عروق ابنائه نقطة دم تجري؟، وقد سمعنا علي مر القرون وتواتر الأجيال صوتًا هاتفًا (لا تيأسوا من الجنس البشري، ولا تقنطوا من مستقبله؛ لأنه كلما تقادم عهده تجدد).

وهكذا أقول عن كل شعب من الشعوب: "مهما عظمت مصائبه، وكثرت محنه، فإن لديه موردًا عذبا يجدد بارتشاف مائه فواه، ويعيد سابق مجده وعلاه. وأن تَسل عن هذا المورد أجابتك القرون والأجيال، إنما هو العلم مع التربية".

وقد كنت ذات يوم أطالع كتابًا لأحد علماء أوروبا، وقد غاب عني اسمه، فوقعت تحت نظري عبارتان من قوله وهما: "أنني أعتقد بإمكان إصلاح الجنس البشري إذا أصلحت تربية الشبيبة، وأن تأديب الشبيبة تأديبًا حسنًا هو عندي بمثابة أساس متين لسعادة الجنس البشري". فعلق هذان القولان في ذهني، ثم مارست التعليم في بعض المدارس الكبرى، وأخذت علي عهدتي التعليم

الإفرادى سنين متوالية حتى خبرت أخلاق الشبان وسبرت غور الآداب في هذه البلاد، وسوامًا من بلاد الشرق، فعلمت أن حاجتنا القصوى نحن الشرقيين إنما هي أن يقرن أبناؤنا العلم بالأدب، وحسن التربية، فيكون منهم للوطن رجال يعتمد في أموره عليهم، ويرجع في شئونه وأحواله إليهم.

ولعمر الحق أن التربية بما تحدثه من التأثير علي الولد في صغره هي التي توجد الأخلاق البيتية والفضائل الاجتماعية، بل هي التي تحدث عجائب الإصلاح والصلاح فيما يتعلق بآداب الدنيا والدين علي السواء. وهي التي ترفع الممالك وتحفظ مجدها، أو تعيد سابق جاهها وعظمتها، وتمنعها من السقوط، أو تقيمها من سقطته. فالشعب الذي نحسن تعليمه وتربيته نضمن حاضره ومستقبله، أما الشعب الذي لا علم عنده ولا تربية فلا حاضره للنجاح ولا مستقبله للفلاح.

وأنظر إذا شئت في صفحات التاريخ قديمه وحديثه، تر أن هذا الأمر إنما هو من شرائع الطبيعة ونواميسها التي لا تتجزأ ولا تتغير، بل أنظر إلى بعض الممالك والشعوب التي اندثرت آثارها ودرست معالمها، فابعثها من قبورها، وأنشر هامن رموسها، وسِلها تُنبئك، بل دِر بنظرك إلى بعض الدول المنحطة والأمم السائرة إلى الهاوية واستخبرها تخبرك: أنه إذا أراد الله عقاب شعب والاقتصاص منه أفقده المعلم والمربي، ومتى ذهب العلم وضاعت التربية من بلادٍ ذُلت البلاد وذُل؛ لأنه إذا ذهب العلم وأصبحت التربية مفقودة ضائعة لم يبق في البلاد رجال يصح أن يقال أنهم رجال. ورأس الحاجات لإيجاد شعب، أو لإصلاح أمة وتجديد شبابها أن يكون ثمت قبل كل شيء رجال جامعون لصفات الرجولية التي تعتز بها الممالك وترتفع الأمم.

بل أفتح بحقك فاك، وأطلق لسانك، وأرفع صوتك مناديًا أين الرجال؟،

ثم أنصت للجواب تسمع الأرض والسماء تجيبانك: أن الرجال الذين تقوم بهم الدول أو تسقط بفقدانهم الأمم هم حيث العلم الصحيح والتربية الحقه، فإن كنت تريد رجلاً حقيقيًا فربه تربية حسنة.

وإن شئت إلا أن نضرب لك مثلاً فخذ ولدين من أبٍ واحد وأم واحدة، فعلم أحدهما، وهذبه، وثقف عقله، وأنر ذهنه، وربه التربية الواجبة التي تؤهل الغلام للرجولية، واترك الآخر دون علم، ولا تربية، ولا أدب يسير مع هوى النفس، ويجمع مع شهوات الفؤاد، ثم تفقدهما وقد بلغ كل منهما أشده، تر الذي علمته، وأدبته، وربيته رجلاً حقيقيًا، والذي أهملت أمره ولدًا –ولو شاب– فهو الرجل الذي لا شيء من صفات الرجولية عنده، فهو رجل غير تام، انفع منه الغلام، وأفلح منه ابن الثانية عشرة، فتأمل وقد ذكر السيد ديبانلو الأسقف الفيلسوف الفرنسوى الذي وضع كتابًا في التربية في ثلثه مجلدات ضخمة: "أن فرنسا لم يخرجها من ذلك العدم وتلك الفوضى الهائلة مما سقطت فيه علي أثر حروبها الأهلية في مفتتح القرن السابع عشر غير حسن التربية، ولم يعد سبيل عصر النور والعلم فيها –وهو عصر الملك لويس الرابع عشر الملقب بالملك الشمس– غير حسن التربية الذي جعلته مهرًا لشبابها في ذلك العهد".

وما أدري أي سبب ذهب بى إلى الاستشهاد بالأمة الفرنسية ولدي من أبناء الشرق أعظم شاهد وأتم برهان، فأنظر إلى ما كان الشرق عليه وما صار إليه. كنا ولا مراء في أسمى قمم الحضارة والتقدم، فصرنا –ومن ينكر– إلى أدني درجات الانحطاط والتقهق. كان الغرب يأخذ عنا ويخضع لرأينا، فصرنا نستمد منه ونذعن لأمره. كان الشرق بلاد العلم والاجتهاد، فأصبح في هذه الأيام مسرح الجهل والكسل، وانتقلت منه الصناعة والتجارة إلى البلاد التي لم يهمل

أهلها العلم والتربية.

ولرب سائل يقول: "وما سبب هذا المصاب؟"، فليعلم الشرقي أن علة تأخره إنما هي إهماله العلم والتربية في بادئ الأمر، ثم جريه وراء العلم دون التربية فيما بعد. في حين أن العلم والتربية صنوان لا يجب أن يفترقا.

وإنني أستأذن القراء في إثبات هذه الحقيقة وتقريرها في الأذهان ببيان ماهيه العلم والتربية، فأقول:

يراد بالعلم تثقيف العقل وإنارة الذهن، وبالتربية حسن استعمال الأخلاق وحسن التعامل، فالعلم إذًا سلاح، والتربية معرفة استعمال هذا السلاح. ولعمري أنه لا يجوز أن تُسلح رجلاً دون أن تعلم أمر كيفية استعمال السلاح، دون أن تضعه في يده، ثم تعلمه كيفية استعماله، والوقت الواجب له، وبأي حذر يجب أن يستعمله.

إذن فالعلم هو التربية، والتربية هي العلم، بل أن كلاً منهما فرع للآخر لا يتم إلا به، وحجر يسند حجرًا لا يقوم أحدهما إلا بالآخر. فمن كان علي علم دون تربية فعلمه ناقص، ومن حَسُن تربيته، ولكنه قليل العلم فتربيته ناقصة وغير ذات جدوى.

وليسمح لي قرّاء هذه الأسطر باتخاذ مصر مثلا في هذا الموضوع الخطير، فإن مصر قد تضاعف عدد سكانها منذ عشر سنوات، وزاد فيها عدد المتعلمين، وكثرت المكاتب، والمدارس، والمحافل العلمية، والأدبية، والصناعية، والزراعية، ووصلت الصحافة فيها إلى حد لا يقبل المزيد، بحيث لا يكاد يمر يوم دون أن تصدر فيه جريدة سياسية أو أدبية. ومع ذلك فإننا نسمع صوتًا يدوي في كل محفل ونادٍ سائلاً عن الرجال، دالاً علي حاجة البلاد إليهم. وقد أصبح

هذا السؤال دائرًا علي كاشفة ولسان حتى أنه أصبح سؤال الجميع.

أجل، أين رجال الوطن الذين يجب أن تستنير مصر بهم وتعتمد علي ذراعهم؟. إنهم لعمر الحق كرجل ديوجنوس، ولا يجهل أحد حكاية هذا الفيلسوف الذي أوقد مصباحه والشمس في رابعة النهار، وانطلق في شوارع أثينا باحثًا مفتشًا، فلما سُئل عن بغيته قال: "إنني أطلب رجلاً".

وهنا موضع السر، بل هنا محل الدهشة والذهول. وإذا كان في الأمر سر فلا أقل من البحث عنه، والتنقيب عليه لاكتشافه وبيان ماهيته.

ومما لا ريب فيه أنه متى عرف الداء سهل وجود الدواء، فإذا بحثنا عن السر في هذه الحالة، وأداركناه، وكشفنا عنه كل ستر وغطاء، لم يبق مجال للشك في أن الهيئة الاجتماعية في الشرق قابلة للخروج من وهده الانحطاط التي سقطت فيها، والإفلات من قيود الجهل التي قيدت نفسها بها.

ولعمري أنه لا يختلف اثنان في أن داءنا الذي ينخر منا العظم ويسير بنا علي مهل –ويقول كثيرون أنه يجري بنا سراعًا– إلى هاوية الانحطاط ولجة الخمول إنما هو ما أشرنا إليه في صدر هذه المقدمة من نقص التربية عندنا، والتفريق بين العلم والأدب، فلا تتم لشباننا صفة من صفات الرجال حتى تنقصهم صفة (بل صفات).

وأن من تصفح تاريخ الشعوب والد منذ أول أطوار الحضارة وأبعد عهد للإنسان بالمدينة إلى هذا العهد الذي نحن فيه تتضح له حقيقة ظاهرة كالنور الذي لا يستر بالأكف، ولا يطفأ بالأفواه: وهي أن كل شعب لم يتخذ العلم سلاحًا، والتربية درعًا أصبح فريسة لغيره من الشعوب، وظل يئن تحت نير الاستعباد والرق إلى أن يقوم فيه رجال يتخذون علي أنفسهم أن يبعثوا العلم

من قبره، وينشروا التربية من رمسها، فتعود إلى هذا الشعب روح الحياة. ولذلك نري الدول الفاتحة والشعوب المستعمرة لا تعمل في البلاد التي تفتتحها والأراضي التي تستعمرها إلا علي إماتة العلم في صدور الرجال، وإفساد التربية بين تلك الأمم والعناصر؛ ليفقد أهلها صفات الرجل، وتصبح قيادتهم سهلة، واستعبادهم أمرًا هينًا.

وإذا كان من الثابت أن العلم والتربية يحييان البلاد، فمن الجرائم التي لا تغتفر أن يشهد الشرقيون تخريب بيوت العلم والقضاء علي التربية في بلادهم غير مكترثين؛ ولذلك كنا نرجو أن تتنبه الأمة إلى ما يفرضه عليها حب الوطن ويقضي به عليها واجب الاحتفاظ بالنفس، فتهب وتنهض نهضة واحدة للعمل بما يشير به عليها الناصحون من أبنائها، والمخلصون من أصدقائها.

بل لذلك رأيت بعد أن عانيت التدريس أعوامًا عديدة، وشهدت بعيني هيئة التربية والتعليم في الشرق أن أضع هذا الكتاب للبحث والتنقيب عن الطرق التي يجب أن نجري عليها للوصول إلى الغاية القصوى من خدمة الوطن، وهي إيجاد الرجال الذين هو في حاجة إليهم.

وإذا قيل وإلى أي رجال نحن محتاجون قلت إننا قبل كل شيء في حاجة إلى رجال العلم، والخير، والحكمة، والعقل، والنزاهة، والشهامة، والأمانة، والصدق، والشرف، والشجاعة، والمرؤة، والإقدام. فمتى وجد في البلاد مثل هؤلاء الرجال قلنا لديوجنس أطفئ مصباحك، وإن التمست رجلا فمد يدك، وكل من وقعت عليه أمسك به فإنه رجل والسلام.

والآن فإنني مردف هذه المقدمة بفصل سميته "النداء"، استصرخ فيه كل ذي حمية وطنية وعاطفة قومية إلى الأخذ بناصر الوطن، وشد أزره، ومد يد المساعدة إليه؛ وذلك بورود العلم من منهله، والدخول إلى ساحة التربية من

أبوابها، ثم انتقل بعد ذلك من الكلام المجمل والملاحظات العامة إلى ما هو أخص من ذلك من الكلام علي التربية، وكيف يجب أن تكون والعلم، وكيف يجب أن يؤخذ؟. والله المسئول في جعل هذه الخدمة مقبولة لدى أبناء الوطن العزيز، وخطوة في أعينهم عائدة علي الوطن بالنفع والفائدة؛ وذلك كل المنى وغاية المرام.

النداء

سلام أيها الوطن العزيز

يا بني الشرق أين ذاك الضياء أين تلك النفوس والآلاء؟

اين ذاك المقام تحسده الشمس بهاء، وأين ذاك العلاء؟

أي مصر التي اتخذناها من بعد سوريا وطنًا نلوي عليه، وسوريا الوطن المحبوب وأن بعد المزار إليه، بل أيها الشرق الذي لا عزيز علينا سواك، ولا حبيب إلى قلوبنا العربية إلاك. أين أيام مفاخرك الباهية، وليالي عزك الصافية؟ أين ذاك العلاء الباهر، والنجاح الزاهر؟ أين أقلام المكتبة البلغاء، وأصوات الخطباء الفصحاء، وتأليف العلماء، وأندية الأدباء؟ أين أنوار تلك الحرية الساطعة، وأشعة الاستقلال اللامعة؟ بل أين ما عهده فيك أجدادنا من تلك الهمة الشماء،والعزيمة الماضية الغراء؟ ذهب كل ذلك هباءً منثورًا، وأصبح التقدم تأخرًا، والعلم جهلاً، والعمران دمارًا وبورًا.

ولقد صبرنا أيها الشرق حتى لم يعد للصبر موضع، وتجلدنا حتى لم يبق في القوس منزع، وتمسكنا بأديال الرجاء فأنبت ما كان من حبله موصولا، وتعلقنا بأهداب كل أمل فذهب إليأس بكل ما كان مأمولاً.

أجل، وخليق بنا نحن الشرقيين أن نرسل البكاء، ونطلق لساننا بالرثاء، وأن نقف موقف أرميا في بكاء قومه وبلاده حتى نبكي ونستبكي أن بقيت فينا –نحن الرمم المتحركة– عين تدمع، أو قلب يشع. فإن ميتّنا هو العلم، وفقيدنا هو التربية، وأي شعب ضاع عمله ولم يكن في ذلك ضياعه، وأي أمة فقدت تربيتها ولم يكن في ذلك فقدانها.

بل خليق بنا نحن الشرقيين أن نقف في موقف الندامة علي ما فرط وفات، قارعين الصدور من الأسف، باكين علي ما كان من الحضارة لدي ذلك السلف، منشدين العلم الذي ذهب، مخاطبين الأدب العربي الذي نضب.

نحـــن قـــوم جهلنـــا قـــدر المعـــالي فاكتســـبنا الهـــوان والســـخرية

ودعـــونا عليـــك جهـــلاً واذكـــر قـــد نـــدمنا الندامـــة الكســـعية

فـــأجرنا ممـــا جنينـــاه واذكـــره جـــيرة قـــد مضـــت وكانـــت هنيـــة

يا بني الشرق لم يبق لنا غير العلم نصيرا ننتصر به ونرجع إليه، ولم يبق لنا غير التربية ما نشد به أزرنا ونتكئ عليه. فليكن العلم رائدنا، والتربية محبتنا، ولنكرث المدارس لتعليم الأمة لغتنا، وتهذيب العامة بآدابنا، ولا تكونن لنا غير ذلك غاية فإنها الغاية السامية التي تشرف بها النفوس، والصفة الشريفة التي يقال فيها لا عطر بعد عروس.

وقد وضعت في مفتتح شهر ديسمبر من عام ١٨٩٢م مقالة جعلتها نداء للشبيبة المريبة إلى مناهل العلم، فليسمحن لي قراء هذا الكتاب أن انقل إليهم شذرات منها، فإنها عبارات كل يوم، بل هي دعوة يجب أن تتلى في كل ناد عربي، وتنشر في مفتتح كل كتاب عربي.

"فإليكم يا بني الشرق نداء صادرًا من صميم الفؤاد، ودعوة مفتتحة بهذا السؤال بالأمل واخلقنا بالرجاء، وما أعلق آمالنا بالمسقبل وأوثق رجاءنا برجالنا الكرام الذين نري منهم أدلاء إلى المدينة والنجاح، يعرفون السبيل فلا يضلون.

أجل، وما يمنع الشرق وقد كان مهد العلوم، ومأوى الصنائع، ومورد الحضارة عن سلوك ذلك السبيل، والوصول إلى قمة النجاح والفخر... إن المانع الوحيد هو أننا نحن العرب لا نهتم بسياسة أنفسنا وتدبير أحوالنا، بل

نلقي مقاليد أمورنا بين أيدي أقوام غرباء، ويالشقاء الشعب الذي لا يعرف أن يسوس نفسه ويستخرج قوته من معادن كدّه وجهده.

أما الآن وقد تبين قومنا ذلك، وعرفوا موضع الداء، فقد صار يرجى وجود الدواء، ولكن كم من العقبات أمامنا، وكم من الحاجات يلزمنا لنيل المرام. وأولي العقبات التي يجب أن نسعى في إزالتها إنما هو الجهل المستولي علي عقول عامتنا، ورأس الحاجات التي لا غنى لنا عنها إنما هو العلم، فبالعلم صلاح حالنا، وبالعلم قوام بلادنا، وبالعلم حياتنا كلها.

فيا أيها الشبان يا أولاد اليوم ورجال الغد، إذا قيل لكم أن الزمن قد فات ولا يرجى لما فات من معاد فلا تصدقوا أن الأيام، وإن تكن مطية صعبة القياد إلا أنها تعنو لصاحب العزيمة والمراد.

وأيها الشبان يا أمل الحاضر وعماد المستقبل، إذا قيل لكم على العرب السلام فلا تصدقوا، فلكل أمة إذا شاءت انتعاش بعد الخمول، وحياة بعد الموت، والإرادة قوة لا ترد، والعزيمة الماضية حسام لا يفل له حد، ويا أيها الشبان يا سراج الحاضر ونور الآتي إذا قيل لكم أن مصر لم تعد مصر، وأن الشرق الذي نحن فيه غير ذلك الشرق الذي كان فيه أجدادنا فلا تصدقوا، وأنظروا إلى بعض الشعوب الصغيرة من الأمم المجاورة لنا، كيف هبت من رقدتها، ونشطت من غفلتها، فارتقت، ونجحت، وصارت شعوبًا مفلحة في ظلال السعد والرخاء.

ويا أيها الشبان –وكم نادي أيها الشبان– يا أعين هذا الزمان، افتحوا أبصاركم، وانظروا ببصائركم، وانتضوا من العزيمة سيفًا مرهفًا، وامتطوا من الإرادة جوادًا كالبرق يقطع ما بينكم وبين الغاية من المفاوز والعقبات.

أو لستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس

فلا تخيبوا للوطن بكم أملاً، ولا تقطعوا للأمة العربية رجاءً، فهي آملة بكم، ترجو النصر والفتح علي إيديكم، ذلك ما جري به الصراع، ونطق به اللسان منذ أكثر من ست سنوات. وأنني لا أزال أري نفسي في الوقت نفسه الذي كنت فيه بحيث لم أجد بدًا من مخاطبة الشرق في هذا الكتاب بما خاطبته به منذ ستة أعوام.

والآن وقد بكينا علي ماضينا، ورثينا العلم فقيدنا، وندمنا علي ما فرط منا، فلننتقلن من طور البكاء والرثاء إلى موقف الجد والعمل، فنُعلم أبناءنا ونربيهم، وننشيء المدارس الأهلية، ونقيم الأندية الأدبية، وننشر المجلات العملية، ونعلي للعلماء شأنهم، ونرفع للأدباء قدرهم، ولنتشبهن بالأقوام الذين عمرت بجدهم بلادهم، فإن التشبه بالكرام فلاح، ولنعلمن أن لا بد للوصول إلى الغاية من البدء في سلوك سبيلها، والسير في طرقها، فلقد قال الشاعر الحكيم: "كل من سار علي الدرب وصل"، ولا يكونن قائدنا الغفلة والإهمال، وعلى الله الاتكال، وبه الفوز والنجاح في كل حال.

الفصل الأول

التربية

لست أدري في أي كتاب من كتب الأوروبيين قرأت مرة لبعضهم عبارة جاء فيها: "أن الملوك ذاهبون من الدنيا، وسوف يخلو العالم منهم". وقد تأملت في هذه العبارة، وقلبت هذا القول وأنا ناظر إلى أحوال الشعوب متفحص سير الأمم، فرأيت قول ذلك القائل أكثر انطباقا علي الشعوب منه علي الملوك.

ولا مراء في أنه إذا استمرت الأمم علي ما هي عليه الآن من إنكار المبادئ الأدبية والتعاليم الدينية، وبالتالي من فقدان التربية الصحيحة، فإنها ذاهبة دون شك لتخلي الأرض لأمم أخري تقوم في الأرض مقامها، وتوطد فيها أقدامها.

ولرب سائل يسأل ما هي التربية فأقول: أن التربية أمر شريف سام، بل هي رأس الشرف وغاية السمو؛ لأنها تفعل في الإنسان فعل الحرث، وتقليب الأرض، وريها وتسميدها في البستان. وكما أن البستان لا تبدو خضرته، ولا يحيا نبته إلا إذا تناوبته يد البستاني، فهكذا الإنسان الحجم وضعه بذلك العنوان فعرفها بأنها: "إن لم تكن إيجاد أخلاق الإنسان واستخراجها من العدم، فإنها في الحقيقة إيقاظ تلك الأخلاق النائمة من سباتها، وإطلاقها من عقالها، بل هي بث الحياة والحركة وقوة العمل في الوجود الإنساني الغير التام". وبمعني أوضح: أن أخلاق الإنسان لا تتم وتصبح قادرة علي عمل من الأعمال التي تطلب من الرجال إلا بالتربية وكفي التربية بذلك تعريفا وتشريفا. وعلي هذا البناء تكون

التربية العقلية، والأدبية، والدينية اشرف أعمال الإنسان وأسماها غاية وأنبلها مقصدًا.

وإذا سأل سائل عن ماهية التربية التي نشير إليها قلنا: أنها تنحصر في أربعة أوجه وهي المادي، والعقلي، والأدبي، والديني.

فالمادي تقوم به الأجسام وتقوي الأبدان. والعقلي يصدر عنه تقدم العلوم، والصنائع، والفنون الجميلة. والأدبي يكمل كل خلق، ويعلم السلوك ومعرفة المعيشة. والديني يرفع النفوس، ويهذبها، ويعلمها ما لها وما عليها.

بقي في الكلام علي التربية أن شريعتها هي شريعة العمل؛ لأنه ليس علي هذه الأرض خلوق وجد لكي لا يعمل عملا. وأنظر إلى أحقر المخلوقات، وأصغرها، وأضعفها، ترَها دائبة في العمل، كل منها بما تعينه عليه قواه وما تقضي به عليه حاجاته الطبيعية. فإذا كان ذلك شأن أحقر المخلوقات فما ظنك بالإنسان وهو دون المخلوقات قد أوتي الذكاء، والفطنة، وحرية الفعل، وقوة العمل. فلا مشاحة إذا في أن كل كائن هذه صفته إنما وجد ليعمل، لأن في العمل الحياة، وفي البطالة الموت والفناء.

وإذ قد ثبت ذلك وتقرر في الأذهان، فقد أصبح من قبيل تحصيل الحاصل أن نقول أن أول فروض المربي ورأس واجبات المعلم أن يوجها جل عنايتها إلى إدخال الولد في طريقي العمل، والاجتهاد، والإقدام الشخصي ليحملاه (كما قال السيد ديبانلو) علي "العمل أو التمرن البدني" الذي يقوي الأعصاب، والعضلات، ويساعد علي نمو الجسم وصلابته، وعلي "العمل العقلي" الذي يوجد عنده قوة الحاكمة، والذوق، والرصانة، والذاكرة، والتصور، ثم علي "عمل القلب، والإرادة، والضمير" الذي يتم الأخلاق، ويوجد الأميال العفيفة، ويقود الخطى في سبيل النزاهة والفضيلة.

الفصل الثاني

التربية وآجالها

رأيت أن أُقسِّم التربية في هذا الكتاب إلى ثلاثة آجال أصلية، وأجلٌ تتميمي: وهو الطور الذي تظهر فيه مفاعيل التربية في الأجيال الثلاثة السابقة، ويبدو فيه أثرها. أما الآجال الثلاثة الأصلية فهي:

أولا التربية الوالدية: وهو الأجل الذي تكفل فيه الأم ولدها، وتكتنفه بعنايتها منذ ولادته إلى نعومة أظفاره؛ أي إلى السنة السابعة، أو الثامنة من عمره.

وثانيا التربية الأولية: وهو الأجل الذي ينقضي علي الولد منذ خروجه من بين ذراعي أمه، أو مرضعته؛ للقيام تحت عناية أبيه، أو بين يدي رجال الكتب الصغيرة التمهيدية، وأصحاب المدارس الابتدائية؛ أي منذ السنة السابعة، أو الثامنة إلى العاشرة، أو الثانية عشرة.

وثالثا التربية الثانوية: وهو الأجل الذي يبدأ الغلام فيه بتلقي العلوم والمعارف في المدارس الكبرى بين أيدي الأساتذة والمؤدبين، وذلك منذ السنة العاشرة، أو الثانية عشرة إلى السنة الثامنة عشرة، أو العشرين

أما الأجل التتميمي الذي تجتني فيه ثمار التربيات الأصلية الثلاث، وتظهر فيه مفاعيلها، فإنه يبدأ منذ دخول الإنسان إلى ساحة الهيئة الاجتماعية، وولوجه مضمار الأعمال والتعامل مع المجتمع الإنساني، ولا ينتهي إلا بإنتهاء هذه الحياة. وسيأتي الكلام علي هذه الآجال الأربعة بالتفصيل، وكل آتٍ

قريب.

والذي يتضح مما تقدم من الكلام الإجمإلى علي آجال التربية أن عمل التربية لا يقف عند حد، بل هو يبدأ مع الإنسان ولا ينتهي إلا بإنتهاء حياته. والغاية التي يقصد إليها من التربية إنما هي الكمال في الصفات؛ ليكون ذلك ذريعة إلى السعادة والهناء. ولما كان الكمال معدودًا من قبيل المستحيل، كان من الواجب أن لا يظن الإنسان أنه بلغ من التربية أقصي غايتها، وأبعد أشواطها. وكما أن الرجل يولد طفلاً ثم ينمو شيئًا فشيئا جريًا علي القواعد الطبيعية، فكذلك التربية يجب أن تكون تدريجية تابعة لسير الطبيعة المادي.

ولقد تقدم لنا القول أن التربية تبدأ مع الإنسان. ولتأخذن الآن بتفصيل هذا القول والكلام علي آجال التربية بأجلى بيان وأوضح تبيان.

خذ الولد طفلاً رضيعًا، وأنظر إلى حالته تر للتربية الأولية آثارًا بادية في كل حركة من حركاته وحركات مرضعته، فإن الاجتهاد في إسكاته وتسكينه كلما استهل بالبكاء، وذلك الصبر الجميل والعناية الباهرة في مقاومة أمياله ورغائبه، وتلك الطرائق التي تتبع بالحلم والحنو لردعه عن كل ما يمر بخاطره الصغير الضعيف، إنما هي كلها أمور توصف بأنها بدء التربية.

ثم انظر إليه يافعًا قد أتم الدراسة، وختم العلوم وهو يسير مع أبيه جنبًا إلى جنب، وأبوه يدله علي طرق التجارة وذرائع الاكتساب، ترَ التربية لا تزال متبعة طريقها، سائرة في سبيلها مع هذا الذي تراه اليوم وقد طر شارباه وكان بالأمس رضيعًا بين ذراعي أمه تغني له لينام، أو تزجره ليسكت.

إذن فكل ما يقال ويصنع لدى الولد من الكلمة الأولي التي تهمسها أمه في أذنه بين ابتسامة وقبله وهو طفل رضيع إلى آخر درس يلقيه عليه الأستاذ

وهو يافع، يستعد لإطراح ثوب التلمذة والدخول في غمار هذه الدنيا، وبالإجمال كل ما يجري تحت سقف البيت، أو بين جدران المدرسة، وكل ما يأتيه الأب والأم، ويصنعه المعلم والمربي، وكل ماُ يؤمر به ويُنهي عنه يجب أن يرمي به إلى غاية واحدة ويقصد به إلى قصد واحد وهو ترقية هذا الولد في سلم التربية لإبلاغه درجة الكمال.

ومن البداهة أن تعاليم التربية علي أهميتها، وخطارتها يجب أن تكون مطابقة أتم المطابقة لحالة الولد، وقواه، وذكائه، وفهمه، بل ولأميالة الغريزية القلبية أيضا. وكما أن الإنسان لا يبلغ مبلغ الرجولية إلا بعد أن يقطع الأطوار الطبيعية التي لا يستثني منها أحد؛ وذلك لأن الطبيعة تربك الإنسان في بادئ أمره طفلا ضعيفًا لا قدرة له علي شيء، ولا تمييز عنده، ثم تأخذ في إنمائه بصبر عجيب، مجتازة به أطوارًا متقلبة معه في شئون فيترعرع ويدب، ثم يقوى فيشب. كذلك التربية يجب أن تخرج من طور إلى طور، وتترقى من شأنٍ متّبعة في ذلك مجرى الطبيعة نفسها، منطبقة علي الأجل الذي يكون فيه الولد، أو الغلام الذي تعمل فيه عملها، وتهمى عليه منافعها وحسناتها؛ ولذلك قلنا في صدر هذا الفصل أن للتربية آجالًا، وأن آجالها الأصلية ثلاثة كما مر.

علي أنه وإن كانت التربية تشبه في جل وجوهها -إن لم نقل في كلها- بالنمو المادي الطبيعي، وتُقسّم مثله إلى آجال وأطوار إلا أنها تختلف عنه من وجه جوهري يجب إحلاله في محل الاعتبار وإمعان النظر فيه. وهو أن عملها لا يسير دائما سيرًا منتظمًا متتابعًا دون انقطاع، كما وشأن الطبيعة في إنماء الأجسام، فإن هذه لا يحول دونها حائل، ولا تقوم في سبيلها عقبة، وأمرها كله موقوف علي مرور الأيام وتعاقب السنين، فلا يُمنع الطفل من أن يصير غلامًا، والغلام أن يصبح يافعًا شابًا، والشاب كهلاً، والكهل شيخًا مانع من الموانع إلا

أن يسترد الله وديعته في خلال هذه الآجال، وذلك خارج عن البحث الذي نحن فيه. بخلاف التربية فإن النفوس -لسوء الحظ- بعيدة عن أن تنمو نمو الأجساد. وإذا نظرت إلى الولد تراه ينمو ويكبر في قواه وقامته دون انقطاع إلى أن يبلغ أشده، ويصل إلى الحد الذي يحسب معه الإنسان رجلاً تامًا في خلقه. أما التربية: فكم من العقبات يقوم في سبيلها، وكم من الموانع يعتور سيرها ويوقف تقدمها.

وانظر إلى ما حولك إذا التمست شاهدًا علي صحة هذا القول، فقلما إذا نظرت لا تقع عيناك علي رجال قضى عليهم سوء التربية، أو فسادها، يكبروا، ويشيخوا، ويقضوا أيام الحياة كلها في طفولية لا آخر لها، ولا خروج منها والعياذ بالله.

ومع ذلك فمن العدل أن نتْبع هذا القول بقول آخر لا ينقص عنه أهمية، ولا يقل عنه صحة: وهو أنه إذا كان نمو الإنسان المادي وتقدم قواه الجسدية يقفان عادة عند بلوغه سن الحادية والعشرين، فإن التربية لا حد لها تقف عنده، بل هي تستمر في سيرها إلى آخر رمق إذا كانت للإنسان إرادة حسنة، وقوة، وشجاعة للاستمرار علي السير في طريق الكمال.

وذلك أنه بعد التربية الثانوية التي يخرج الإنسان منها في غالب الأحيان غير تام التربية، تعرض لنا التربية النهائية التي لا حد لها، والتي تقوِّم ما أعوج، وتصلح ما فسد واختل من عوامل التربية السابقة. ونريد بها التربية التي يستفيدها الإنسان بعد خروجه من المدرسة العملية ودخوله مدرسة العالم الكبرى العملية، حيث الرجال، والأشياء، والحوادث، ومعاكسات الظروف، ومصائب الأيام، وما سوي ذلك مما يلقاه من عوادي الدهر، كلها دروس تتم عمله، وتصقل تربيته، وتكمل أخلاقه؛ فلذلك قلنا أن هذا الأجل إنما هو أجل

التربية التتميمية، وأنه المدرسة الكبرى الفعلية،

وأنني أعتبر هذه التربية الأخيرة تربية واجبة ضرورية لكل إنسان، ولكنني أراها غير ذات منفعة وجدوى إلا إذا تقدمتها التربيات الثلاث الأولي التي سبق الكلام عليها. وإلا فإنها تبقي ناقصة مهما عظمت، وضعيفة مهما قويت.

وغني عن البيان أنه لا بد لكل إنسان من دخوله مدرسة العالم الكبرى، ولكن العبرة ليست في دخول المدرسة، والفائدة ليست في سماع كلمات الدرس، وإنما الحكمة كلها في الاستفادة والانتفاع، العاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر.

الفصل الثالث

الولد

أما الآن وقد أفضنا في الكلام الإجمإلى علي التربية العامة، وماهيتها، وأقسامها، فنحن آخذون في الكلام عن الطرق التي يجب اتباعها للوصول إلى غاية التربية السامية. وأول ما نبدأ به من هذا القبيل الكلام علي الولد؛ لأنه هو المقصود بالذات من عمل التربية، وهو موضوعها الذي تتوجه كل عنايتها إليه.

ويجدر بنا قبل كل شيء أن ننظر الفاحص إلى هذا الولد، وننعم النظر في كل ما يحواه هذا الكائن الصغير الضعيف من العظمة والسمو، وما يبسطه من الرجاء بنا ويخلقه من الآمال لنا، وما يلتمسه منا من العناية، والرعاية، والاحترام.

ولقد تقدم لنا في عرض مقدمة هذا الكتاب كلام علي الولد، فليسمح لنا القارئ بأن نعود بتطويل إلى مثل ذلك الموضوع.

الولد، وما أدراك ما الولد. هو الرجل بنفسه، ولكنه الرجل المتستر برداء الصغر، المخبوء مستقبله تحت جنح السنين الأولي من سنى حياته.

بل هو موضع حنو الأم وحبها، وموضوع افتخار الأب وإعجابه، وهو رجاء الأسرة وأمل الهيئة الاجتماعية، بل هو الجنس البشري يعيد به ولادته، والوطن يدوم به ويجدد به قوته.

الولد كائن صغير محبوب تتقيد القلوب بحبه، وتهفو النفوس إليه لما يبدو

فيه من البساطة في النفس، والسذاجة في الفؤاد، والثقة العمياء بمن كان أكبر منه، والاتكال علي كل ساعد زاد بالقوة علي ساعده. بل الولد بركة من عند الله ووديعة من السماء، فهو النفس الطاهرة التي لم تتلطخ بعد بوصمه الأهواء، والاستقامة التامة التي لم يدنس بياضها الكذب والرياء.

بل هو القلب البسيط التقي القابل لمبادئ العلم، والتربية، والدين كما تلقيها عليه كالأرض التي تتعهدها يد الإنسان بالحرث، والزرع، والري وهي عذراء لم تمتد إليها يد من قبل، فإنها تنبت أخصب النبات، وتعطي أكبر الثمار. بل هو الأرض تعطيك ما تزرع فيها، وترجع إليك ما عهدت به إليها، إن قمحًا فقمحًا، وإن زوانًا فزوانًا.

لا بل هو الغصن اللدن الرطب الذي يعوج إذا عوجته، ويستقيم إذا قومته. فلذلك قلنا أن الولد هو الرجل المتستر برداء الطفولية والصغر؛ ولذلك نحن نسترعي الإسماع، ونستدعي الإبصار إلى هذا الرجل وهو في سن الصغر؛ لأن الغصون الرطبة إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الشجر، وربما اعترض البعض علي هذا الكلام بقولهم: "أن الأولاد الذين اذكرهم إنما هم أشبه بالملائكة، وأقرب إلى سكان السماء منهم إلى الإنسان وبني الأرض". ولكن وهم القائلون وأخطأ المعترضون، فإنني أريد بما وصفت كل ولد هادئ الخلق، أو شرس الطبع علي حد سواء. والولد الذي أشير إليه إنما هو الولد عامة، وهو الذي ذكره السيد المسيح بقوله: "دعوا الأولاد يأتون إلى ولا تمنعوهم" وهو الذي أشار إليه القرآن الشريف إذ قال: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا". فالولد إذًا هو كل ولد دون استثناء ولا تخصيص، وما عدا ذلك فإنه أي فرق في التربية بين الولد الهادئ المطيع المنطبع علي السكنية والوداعة، والولد الحاد الأخلاقي الكثير الحركة الشديد المعارضة. وبأي عدل تصرف العناية في تربية

ذاك لسهولة انقياده، ويهمل أمر هذا لشراسة في أخلاقه. لعمر الحق أنه إن كان للمربي فضل ففضله في إجادة العمل، حيث في العمل صعوبة وتعب.

ولقد وصفت الولد في مفتتح هذا الفصل وصفًا ينطبق علي كل ولد مهما كانت أخلاقه وطبائعه؛ لأنني أعتبر أن في هذه السن الأولي شيئًا من السماء، حديث الورود لا يزال أهلا للبركات الربانية، والعناية الصمدانية، وغني عن البيان أن القلب في سن الصغر يكون منزلًا للطهارة، والنقاوة، بعيدًا عن كل شعور سافل وطبع دنيء. والولد الصغير إذا أتي منكرًا فهو لا يأتيه عن علم تام بجسامة العمل؛ لأنه في سنه لم يكذب بعد عن معرفة وترو، ولم يبغض الحقيقة ويميل إلى الرذيلة عن علم وتبصر، بل أن عواطف الصدق، والعدل، والعفة، والأمانة حية فيه، تدب في نفسه دبيب الروح في الجسد.

ولكن بإزاء هذه الصفات السامية الجميلة التي لم تتم فيه بعد، تري نبت الأميال الشريرة والأخلاق الفاسدة الفظة تستعد للنمو معه، وقتل العواطف الشريفة في قلبه كما يقتل الزوان القمح في الحقل الذي ينبت فيه. وكما أن الزارع ينقي حقله من الزوان ومن كل نبات غير صالح، هكذا يجب علي الوالد والمربي أن ينقيا قلب الولد وهو صغير من كل ميل إلى الشر، وانعطاف نحو الكذب، وتعلق بالخداع ورغبة في الكسل.

وقد كنت مرة زائرًا فسمعت صاحب المنزل يوصي ولدًا له عمر سبعة أعوام بأن يقول لفلان إذا جاء يسأل عنه أنه في سفر، وأنه لا يعود قبل أسبوع. فقلت: وهل مسافر سيدي لغيبة سبعة أيام؟، قال: ولا لسبع دقائق، ولكنني أحب التخلص مدة من الرجل، فقلت أنك إذا سمحت لي آخذتك علي إعطاء مثل غير صالح لبنيك بتعويدك إياه علي الحيلة والكذب. فقال وهل من بأس إذا قال غير الحقيقة إذا كان ما يقوله لا يضر بأحد؟ قلت أنك تسمح له الآن

"بكذبة بيضاء" كما يسمون هذا النوع من الكذب في اصطلاح المتمدنين، فغدا يسمح هو لنفسه بالكذب الحقيقي الذي يضر ويعيب. فضحك الرجل وقال: لا خوف من ذلك، فسكت غير نادم علي ما قلت.

وقد كان ذلك منذ ثلاثة عشر عامًا، والولد أذن له أبوه وهو ابن سبع أن يكذب علي غير ضرر ولا ضرار قد صار ابن عشرين، وأصبح عنوان الكذب والنقيصة في الإسكندرية.

والسر في ذلك أن الإنسان ميال من طبيعته إلى النقائص؛ لأنها أسهل إتيانا من الفضائل والكمالات، ففي طبع كل مخلوق غريزة تميل به إلى الشر والنفس أمارة بالسوء، فإذا كبر الولد ولم يكن له من التربية الأولى شكيمة تكبح جماح شهواته، تأصلت فيه المبادئ الفاسدة، وقويت علي الأخلاق الجيدة والخلال الحميدة الصالحة.

وكل من تعاهد الأخلاق الإنسانية في سن الصغر، وعنى بدرس أحوال الجنس البشري في طفولته يتفق له أن يرى أحيانًا في إزاء العواطف الصالحة التي ينشرح لها صدر الأب، ويسر بها خاطر المربي أميالا شريرة، وشعائر سافلة: كالفساد في الأخلاق، والتعنت، والإصرار، والحدة، والغضب، والحسد، والكبرياء، والدعوى، والكذب، والنميمة، ونكران الجميل، وحب الذات، إلى غير ذلك مما تزول آثاره مع الكبر، أو ينمو ويتأصل في الفؤاد ويصير علي حسب التربية التي يتلقاها الولد ويشب عليها.

ويعلم الجميع أن سن الصغر هي السن التي ينفتح فيها قلب الإنسان للشعور، وتنفتح عيناه لرؤية بهارج هذه الدنيا وزخارفها الخداعة، وهو في هذه السن غير ثابت علي مبدأ، بل هو كريشة في مهب الريح، كثير الرغائب، متقلب الأميال، ضعيف الرأي، يميل كالغصن مع كل ريح، ويسير كالأعمى في

كل طريق يقاد إليها ويسير فيها.

ومما يلاحظ في هذه السن أن الظواهر لا تُنبئ دائما عن حقيقة الأخلاق، بل كثيرًا ما تخدع وتغر، فكم من ولد كثير الطيش، حاد المزاج، قاسي المراس في ظاهرة تجده متى بلوته جيدا، وخبرت بمواطن أخلاقه غير ما كان يظهر لك. وكم من ولد يظهر لك هادئًا مطيعًا، سهل القياد، كثير الاجتهاد، فإذا مددت إليه يد التجربة وجدته غير ما كنت تظن. فمن العبث إذًا أن نبني علي ظواهر الولد حكمًا عليه، أو نجري في تربيته علي ما يبدو لأول وهلة من أطواره وأخلاقه، وحذار أن ندع الغصن الملتوي علي التوائه، والقلب الصغير علي فساده؛ لأن الغصن ما دام رطبًا لينًا كان سهل التقويم، والقلب متى كان صغيرًا طاهرًا سهل نزع العوامل المفسدة، والأميال الشريرة منه.

الفصل الرابع

الدين والتربية

عمدت قبل أن أدفع كتاب "العلم والتربية" للمطبعة إلى نشر بعض فصوله في جريدة الأهرام الغرّاء، أري أي وقع يكون لهذا الموضوع الخطير في البلاد، وأقف علي أفكار الناس، وآرائهم فيه.

والحمد لله علي ما أولانيه من رضا الخاصة، والعامة عن شروعي في وضع هذا الكتاب، ومسرتهم من إقدامي علي طرق هذا الباب، مما دل دلالة واضحة علي أن الشرقيين مدركون ما هم فيه من التقصير، عارفون بما لحقهم من النقص. ولا يخفي ما ينبهم عن مثل هذا الإدراك من الفائدة والنفع.

علي أن سروري برضاهم جاء مشوبًا بكدر وغم، بل بحزن وألم مما أظهرته الرسائل التي نشرتها في هذا الموضوع من فساد العقيدة الدينية عند بعض شباننا. وعندي أن ضعف هذه العقيدة ناجم عن تأثير لتقاليد الأجنبية، مما نستبدل به غالبًا التربية العربية الشرقية التي تنطبق علي حاجتنا انطباقًا تامًا، ولست أريد بهذا القول أنه ينبغي لنا أن ننبذ كل خلق من أخلاق الأجانب، ونطرح ظهريًا كل آدابهم وعاداتهم بدعوي أنها أجنبية عنا، منافية لتقاليدنا وآدابنا. كلا وإنما أريد بذلك القول أننا نحن الشرقيين قد طبعنا علي ما يظهر علي حب التقليد، ثم جاء عصر التربية الأوروبية في بلادنا فتهافتنا عليها، وغالينا في تطلبها حتى أصبحنا ننظر شزرًا إلى كل عادة شرقية مهما كانت حميدة، ونعتنق كل مذهب أوروبي ولو كان فاسدًا.

ولما كانت الأخلاق القبيحة والعادات السيئة أسهل اقتباسًا من الطبائع الصالحة والسيرة المحمودة؛ لأن في الأمر الأول إطلاقًا لعنان الرذيلة، وفي الثاني قسرًا للهوي، وتقيدًا في أسر الفضيلة، رأينا كل مشكور من عادات الإفرنج مقصي مغضوبًا عليه، وكل منكر من أخلاقهم مقربًا مترضى عنه.

وعلي هذا القياس تهافتنا علي تقليدهم، وإتباع خطتهم في إنكار بعض العقائد الدينية التي تقيد عقل الإنسان بقيد يمنعه من الأنطلاق في طريق العلوم السامية، والجري في مضمار الحضارة المصرية، وبالتالي أنها توقِف تيار التقدم، وتحول دون مجرى النجاح.

ولو أصبنا لما تركنا مجالًا للسيء المنكر من عادات الإفرنج وتقاليدهم أن يشوب صفاء تربيتنا بكدرته، ويستولي علي عقول أبنائنا بفساده.

بل كنا دفعنا عن البلاد مضار فساد العقيدة الدينية، مما يؤدي طبعا إلى فساد التربية، ويحمل علي استصغار زلات وجرائم لا يمنع من استصغارها شرف النفس والأنفة الذاتية كما يدعي بعضهم.

ولقد حداني إلى وضع هذا الفصل في هذا الموضع من كتاب العلم والتربة رسالة وردتني علي أثر نشر الفصول التي سبقت لي الإشارة إليها في جريدة الأهرام. وقد جاءتني تلك الرسالة من أحد شبان القاهرة ممن تجمع بينهم وبيني صلة الصداقة والأدب، وهي:

"أيها الصديق العزيز، عليك سلام الله، وإليك شوق هذا الأخ الذي حرمته الأيام... إلخ. وبعد، فقد قرأت لك في صدر الأهرام ثلاثة فصول من كتاب "العلم والتربية، ففرحت بإقدامك علي وضع هذا الكتاب لشدة حاجة البلاد إليه، ولما اعمله فيك من الخبرة في هذا الموضوع."

ومع ذلك فلست بكاتم عنك ما حاق بي من الاستغراب؛ إذ رأيت كلمة "الدين" تتردد بكثرة بين تلك السطور. فإنك لما تكلمت في الفصل الأول عن نهضة الشعوب قلت: التربية السامية والعلم الصحيح و"قواعد الدين" الحقيقة، ولما قمت تنادي بوجوب إنشاء المدارس الأهلية لتعليم الشعب عدت إلى ذكر "قواعد الدين"، ثم أردفت هذا الفصل الثاني بفصل ثالث في تعليم المرأة، وأردفت ذلك القول بقول مثله، فأي دخل للدين مع العلم وأيّة رابطة بين الدين والتربية، وغير خافٍ عن فطنتك وذكائك أن العلم لا علاقة له بالدين، بل أن أحدهما ينفي الآخر. وإن تشأ شاهدا فانظر إلى فرنسا بلاد العلم والتربية، ووطن الحضارة والمدنية، فإن مدارسها ممنوع ذكر الدين فيها، حتى أن بعض المدارس قد أبدلت اسم الجلالة بلفظة الوطن. ولم يمنع ذلك هذا الشعب العظيم من أن يسبق كل شعب جاراه في حلبة العلم ومضمار المدينة. فليس إذًا من الواجب عليك أنت الذي نعدك في مقدمة الكُتّاب الشرقيين القائمين بالدعوة إلى العلم أن تُقرن العلم بالدين في كل كتابة لك ترسلها دعوة إلى النظر في مستقبل البلاد لئلا يصدق فينا قول أوروبا "أننا لا نخرج من دائرة التعصب، ولا نفلت من قيد التقاليد المذهبية كالسمك إذا أُخرج من الماء أدركته الوفاة" وأنني لأرجو أن يقع هذا الكلام لديك في موقع الرضا والاستحسان؛ لأنني لست بخاف عليك أن هذا الرأي ليس رأيًا شخصيًا لي خاصًا بي، بل هو رأي كثيرين من أصدقائنا النبهاء الذين سرّهم ما سرني في كتابتك، وساءهم ما ساءني منها، فانظر في الأمر ورأيك الموفق إن شاء الله"

ورَدتني تلك الرسالة، وكان خبر مقتل الإمبراطورة إليصابات إمبراطورة النمسا وملكة المجر، قد ملأ كل صقع وقطر، وللناس في الفوضى وأسبابها كل رأي وحديث، فكتبت في الحال إلى صديقي أقول:

"لست أدري أأشكرك علي ظنك بي لكفاءة الإقدام علي وضع كتاب "العلم والتربية" أم ألومك علي نصحك لي بعدم ذكر الدين فيما يجب أن يشب عليه أبناؤنا؟. أما ثناؤك فمردود إليك لأنك تنظر إلى كل ما أكتب بعين الصديق. وأما نصحك فمستغرب عندي؛ لأنك في مقدمة الناظرين إلى شقاء الدنيا منذ ضربت هذه الحضارة الجديدة أطنابها، ونشرت هذه الحرية الحديثة لواءها. وقد بحثت عن السبب الذي من أجله نري الشعوب تشقى، والفساد يعم، والفوضى تنتشر–فالابن يسرق أباه، والأب يقتل ابنه، والأم تبيع ابنتها، والشقي اللئيم يقتل ملكته– فلم أجد لكل ذلك سببًا غير وهن العقيدة الدينية وضعفها، بل زوالها عند بعض الشعوب والأمم، واستبدال اسم الله تعالى بلفظة الوطن. وعندي أنك مخطئ في قولك أن بين العلم والدين مناقضة، فإن الدين لا ينفي العلم، ولا العلم يناقض الدين، والتربية لا تكون تامة نافعة إلا بالعلم والدين الحقيقيين الصحيحين.

ومع ذلك فإنني لم أقل إلا التربية، ولم أتعرض للعلم؛ لأن البحث في مطابقة العلم للدين ليس من موضوع هذا الكتاب الذي أقصد فيه إلى الدلالة علي أتم طرق التربية، وأحسن وسائلها للوصول إلى غايتها السامية، وهي سعادة الشعب، ورفاهية عيشه، وتقدمه، وعلو مكانته.

والتربية الدينية الصحيحة واجبة فيما أراه قبل كل تربية لأسباب خطيرة جمة أعد منها ولا أعددها. فإن الإنسان وجد ليكون سعيدًا ويساعد قريبة علي نيل السعادة والراحة. وأريد بالقريب كل إنسان؛ لأن الناس في عرفي واعتقادي عائلة واحدة، وأبناء أسرة واحدة مهما اختلفت مذاهبهم وألوانهم، والسعادة كما لا يجهل أحد لا تنال إلا بوقوف الإنسان عند حد ما له وما عليه، والدين أفضل ما يعلم المرء ما يجب عليه وما يحق له، وأننا قد وجدنا القاعدة السامية

القائلة: "افعل بالناس ما تريد أن يفعله الناس بك" بين التعاليم الدينية، فحقق لنا أن نطالب الوالدين والمربين بأن يصرفوا جل عنايتهم إلى غرس المبادئ الدينية الصحيحة في صدور أبنائنا؛ ليشبوا علي الاحترام، كما يجب احترامه واجتناب ما يجب الابتعاد عنه، وأن الاعتصام بحبل الدين هو الذي يدل المرء علي فروضه نحو أبيه، وأمه، وأخيه، وشقيقته، ويعرفه ما يطلب منه من الواجبات نحو نفسه ونحو الهيئة الاجتماعية، ويعلمه الانقياد للشرائع والقوانين، وتهيب الحكومة، واحترام الشيخوخة، وعدم الإضرار بالناس وبنفسه؛ لأن نفسه ليست ملكًا له، بل هي قبل كل شيء لله، ثم لأسرته، ثم للوطن، ثم للإنسانية بإجمالها.

ولعمري أنني استجهل أمة مهما بلغت من غايات العلم، والمدنية، والحضارة إذا كانت تستبدل في مدارس شُبانها كلمة الله بلفظة الوطن وحدها؛ لأنها تعد بذلك سبيل انحطاطها، وتشحذ بيدها سلاح انتحارها، فإن فساد العقيدة الدينية في الشعب من أعظم وسائل السقوط ولا مراء.

أجل ولا مراء في ذلك، ولست بمستشهد علي صحة هذا القول بدول مضت وانقضت، وأمم زالت وانقرضت، ولا بشعوب غربية عنا، بل استلفت نظرك إلى العرب أنفسهم، كيف كانت دولتهم شامخة وملكهم ضخمًا، أيام لم يكن فيهم من يهزأ بالدين وتعاليمه؟ فلم يكن فيهم من لعب الفساد بأخلاقه. ولست أنت نفسك بمنكر أن احترام العقائد الدينية والجري علي السنن الشريفة يقي الأخلاق من الفساد، فإذا كنت تقر وتعترف بذلك فأنت مقرًا أيضًا ومعترف بأن تربية الأنا علي قواعد الدين الصحيحة تقيها غوائل السقوط؛ لأن فساد الأخلاق –ولا يختلف في ذلك اثنان– طريق السقوط والانحطاط.

وانظر يا أخي إلى القائمين بالدعوة إلى الفوضى الناشرين لواء العدمية،

فإنك لا تجد فيهم من يعتقد بالله، ويحترم دينًا، أو مذهبًا، بل تجد بينهم كل قاتل أثيم، ولص محتال، وكاذب منافق، وغادر لئيم.

وابحث عن كل منتحر تجد أنه كان فاسد العقيدة الدينية، كافرًا بالله، ورسله، وأنبيائه. بل انظر في خونة الأوطان أنفسهم، تجدهم في الحقيقة ممن لا دين لهم؛ لأن من لا دين له لا وطن له.

وقل لي بحق ما أنت فيه من الشباب ورغد العيش، كيف تحتمل المرض والفقر –إذا لا سمح الله– انقلبت بك الأيام، ودار بك دولاب الدهر، فعكس ما أنت فيه من الصحة واليسر، وكنت قد شببت علي الهزأ بالقواعد الدينية.

وكيف ترضى بما صرت إليه بدلا مما كنت فيه وأنت لا تعرف الخضوع لتقادير الأيام المسخرة بإرادة من الله، بل كيف تجرد امرءًا من الدين، وتطلب منه إذا ضاقت حالة أن يكون عفيفًا صادقًا، طاهر اليد، نقي الذمة، قائمًا بما هو فيه، راضيًا بما قسم له؟. وكيف تجرد امرأة من الدين وتطالبها بأن تعف عن كل حرام، وتتنزه عن كل منكر، وألا تهتم لغير تدبير منزلك وتربية أولادك؟

تلك أسئلة لا جواب عليها غير السكوت، فالصمت في بعض الأحيان أفصح جواب. ولعمري أن الدين أعظم سلوى للجنس البشري في ساعات ضنكة، ورزاياه وليالي ضيقة وبلايا، فلا نعلم إذًا علي زيادة شقائه بحرمانه هذه التعزية العظمى، والتسلية السامية.

ولست أريد بذلك كله أنه ينبغي لنا أن نربي أولادنا تربية دينية محضة تحملهم علي التشبث بأذيال التعصب الذميم الذي كان له في الشرق أقبح أثر، حتى أنه كان من جملة أسباب تقهقره وانحطاطه. ولا أريد القول بأنه يجب علينا أن نعلم أبناءنا كره كل دين غير ديننا، وبغض كل رجل من غير مذهبنا. كلا،

فلو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، وإنما لكلٍ دينه، والناس أخوان مهما اختلفت مذاهبهم، والأديان مجمعة كلها علي تعليم حب الغريب واحترام ما له من كل جنس ونوع.

فيا أيها المسلم كن مسلمًا حقيقيا يأتمر بالقرآن الشريف، فإذا كنته فإنك لا تبغض المسيحي، ولا تكره الإسرائيلي. ويا أيها المسيحي أعمل بوصايا أنجيلك الطاهر، فإذا عملت فأنك لا تضر إسرائيليا، ولا تؤذي مسلما. ويا أيها الإسرائيلي سر علي ما رسمته لك التوراة، فإذا سرت علي هذا القاموس الكريم فإنك لا تقهر مسلما، ولا تناصب مسيحيا. ويا أيها الشرقيون عامة أرضعوا أبناءكم مبادئ الدين الصحيحة، وتعاليمه الحقة منزهة عن الخرافات التي يمحها العقل، مجردة عن البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وانزعوا من قلوبهم عاطفة التعصب الذميم الذي يوجده الجهل، وعدم فهم تعاليم الدين علي حقيقتها؛ ليحل الوفاق والائتلاف محل الخلاف والتنافر اللذين نحن فيهما، وأنا الكفيل بانقلاب وجه التربية التي نتلقاها، وبالتالي بتغيير الخطة التي نتبعها. أنا الكفيل لكم متى أرضتم أبناءكم لبان التربية علي حقيقة وجوهها المادي، والأدبي، والعقلي، والديني أن الشرق يعود إلى ما كان فيه من التقدم الباهر، والنجاح الزاهر، فيصبح والغرب صنوين في العظمة والجاه، فرقدين في القوة والغنى، وليس ذلك علي الله بمستنكر.

الفصل الخامس

التربية في البيت

قال سليمان الحكيم من أحب ابنه أدّبه أدبًا شديدًا. ولقد رأيت أن افتتح هذا الفصل بقول الحكيم لتكون كلماته عبره ومثالًا لقوم رزقهم الله أولادًا، وائتمنهم عليهم ليكبروا في ظل عنايتهم، حتى إذا جاء اليوم الذي يحتاج فيه الوطن إلى رجال يردون تلك الأمانة الصغيرة مكبرة مضاعفة. ولكنك بدلا من ذلك تراهم يقومون بالأمر علي عكس ما يجب أن يقوموا به، فإذا طالبهم الوطن بوديعة الله عندهم اتحفوه بعقول الصبيان الصغار في أجسام الرجال الكبار، وقالوا: هؤلاء يا وطن أبناؤك.

ولقد تقدم لنا القول في أحد الفصول السابقة أن التربية تبدأ مع الإنسان منذ ولادته طفلاً رضيعًا، ونحن لم نأتِ بتلك الكلمات علي سبيل المجاز، بل هي حقيقة لا مراء فيها ولا خلاف، فإن القابلة عند ما يستقبل الولد وهو يستهل بالبكاء، فإنما هي تبدأ معه فعل التربية العظيم، ولقد سمعت مرة إحدي الأمهات تقول عن ابنتها وقد جاوزت السنتين: "أنني أدعها الآن تفعل ما تشاء، فمتى كبرت ربيتها" هكذا بالحرف الواحد، فمتى تبدئين بتربيتها أيتها الأم؟

إذا تُرك الولد وهو في طفولته يفعل كل ما يمر بخاطره الضعيف، فأنه يصبح من الصعب أن تجعله إذا كبر يفعل ما تريده أنت أيها الأب، فيصبح قيامكم بالواجب الذي تفرضه عليك الطبيعة من أصعب الأمور وأعسرها؛ لأن فعل التربية يستوجب أمرين: أولهما السلطة، والثاني الانقياد والخضوع. فالسلطة

صفة يجب أن تكون للأب والمربي، والانقياد أمر يجب أن يكون من صفات الأولاد، ومتى ضاع أحد هذين الشرطين يفقد الآخر بضياعه؛ لأن الأب إذا لم يكن ذا سلطة علي الولد لم يكن الولد ذا خضوع وانقياد له، وذلك أمر طبيعي لا يحتاج إلى إثبات.

ومع ذلك فإن شئت شاهدًا علي صحة هذا المبدأ فإنني أورد لك حادثا من ألف مما يجري في كل يوم، بل في كل ساعة في أكثر منازل الشرقيين ومنزهاتهم.

بل لست بمورد علي ذلك شاهدًا، لكنني أسأل الآباء والأمهات: هل تركوا أولادهم يفعلون مرة ما يشاؤن جريا مع هوي النفس، ولم يضطرهم ذلك إلى تكديرهم مرارًا لتقويم العوج الذي احدثه ذلك التراخي لمرة واحدة؟

ولنعد الآن إلى ما كنا في صدده من الكلام علي شرطيّ التربية الأوليّن، ونريد بهما السلطان، بالإضافة إلى الوالدين والمربين، والطاعة، بالإضافة إلى الأولاد، فنقول أنه لا بد لإحسان التربية، والإجادة فيها من وجود هذين الشرطين، علي أن تأثيرهما لا يكون مفيدًا نافعًا إلا إذا كان سلطان الأب والمربي مقترنًا بالحلم، والرفق مع الحزم، والتدبر، بحيث لا تكون هذه السلطة ممتزجة بالعنف، والاستبداد، والقسوة، والظلم، ولا بالتراخي، والإهمال، والتسامح من كل وجه. وأن تكون الطاعة التي تقود الولد إلى القيام بما يشير به الأب والمربي ناجمة عن الثقة بهما، والاحترام لهما، والاعتقاد بحسن نيتهما في ما يأمران به، لا عن رهبة وخوف من عقابهما. وغني عن البيان أن شدة التراخي تفعل فعل الظلم الشديد نفسه؛ فلذلك كان من الواجب أن تتبع في التربية خطة التوسط بين الشدة، واللين، والقسوة، والرفق، وخير الأمور أوسطها.

ويتفق كثيرًا أن سعادة الرجل تذهب إدراج الرياح لفساد تربيته الأولي بين

يدي أبيه وأمه، إما لشدة ما يقسوان عليه، بحيث يصبحان متهمين في عينيه في كل رأي لهما، فلا يطيع إلا عن خوف، وإذا أدار ظهريهما عمل بعكس إشارتهما، وأما لكثرة ما يتراخيان معه، فينمو، ويدب، ويكبر، ويشب علي هوي نفسه وصبوة خاطره.

وقد حكي أحد المحدثين السابقين عن جارين، لكل منهما ولد في سن الآخر، فكان أبو الأول مشددا في تربيته إلى حد العنف والقسوة، فلا ينهاه إلا زجرا، ولا يخاطبه إلا أمرا، ولا يبش في وجهه مرة، ولا يسمح له بأقل شيء يلتمسه، فإذا طلب منعه، وإذا امتنع أعطاه بالرغم عنه. وكان والد الثاني متناهيا في التراخي مع ابنه، بحيث كان هو الآمر الناهي النافذ الكلمة، المطاع الإشارة، وإذا قال هاتوا القمر قام أبوه يفتش عني سلم طويلة ليصعد إلى القمر فينزله.

فلما كبر الوالدان لم يكن أحدهما يفضل الآخر بشيء، بل كانا صنوين في فساد الأخلاق، وفرسي رهان في مضمار المنكرات، وسبب غم دائم لوالديهما؛ لأن الابن الجاهل كما قال سليمان الحكيم: "غيظ لأبيه، ووجع للتي ولدته" وكان سقوطهما الأدبي متساويًا، في حين أنه كان ناجمًا عن سببين مختلفين، ولا بدع، فكل ما جاوز حده جاور ضده.

وأول ما يجب أن يعني به في تربية الولد إتباع طرق ثلاثة لا بد منها، ولا مندوحة عنها، وهي العناية بتربية بدنه بحسب القوانين الصحية؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم علي ما هو مشتهر ومعروف؛ ثم إرهاف ذهنه وترقيقه بحيث يصبح معدًا لأن ينفذه نور المعرفة والفهم، ثم تسديد خطواته في الصراط المستقيم، حتى لا تتسلط عليه الشهوات، ولا تقبض الأهواء النفسانية علي زمامه.

ومتى سار الأب والأم في تربية أبنائهم وبناتهم علي هذه الطرق الثلاثة، فإنهم لجديرون بأن يروا أولادهم يشبون علي ما يجب أن يشبوا عليه ليحوزوا كل صفات الكمال فيما بعد. لأن سلامة الجسم، وقوته وإنارة الذهن، وتنبيهه، واستقامة السيرة وصلاحها، كل ذلك إذا أحسن صنعه منذ الصغر يؤهل الغلام والفتاة لاسمى الصفات، وأكمل الأخلاق، وأتم الخصال، وأجمل الخلال.

ويري القراء أننا نكثر في هذا الفصل من ذكر الأخلاق والخصال.

ونحن إنما نعني بذلك ما كان من الصفات والأخلاق مغروزا في الفطرة، كامنًا فيها كُمون النار في أحجارها. وهي تنقسم إلى قسمين: منها البدنية، ومنها الذهنية، وكلاهما خليق بالعناية والتدبر؛ لأن إرهاف الذهن أمر واجب في تربية الأولاد بقدر ما يجب أن يعني في تقوية أجسامهم وإنمائها. وكما أن الأب يصرف جل عنايته إلى تقوية بدن ولده وحمايته من كل طارئ يؤثر علي صحته، كذلك يجب عليه أن يعمل لإرهاف ذهنه، وشحذه، وإسقاط برقع الجهل والغواية عن عينيه؛ لأن سلامة الجسم وحده لا تكفي لجعل الإنسان رجلا، بل يجب أن تكون قوة العضل مقرونة بقوة العقل، وهكذا قل عن قوة العقل فإنها لا تكتفي لذلك وحدها، إذ أيه فائدة ترجى من كبير الجسم، قوي البدن إذا كان ضعيف العقل، سخيف الرأي، وأية فائدة تنتظر من حاد الذهن، راجح العقل إذا كان هزيلاً عليلاً لا يملك قوة ولا صحة.

إذن فالعناية في كلٍ من البدن، والذهن واجبة علي قياس واحد، ويخطئ الذين يهملون أحدهما للعناية بالآخر، علي زعم أنهم متى أصلحوه انقلبوا إلى العناية بأخيه. ولعمر الحق أن تقوية البدن مع إهمال الذهن وبالعكس؛ أي تقوية الذهن مع إهمال البدن تمهيد لسبل التعاسة والشقاء، فليتدبر الوالدون والمربون هذا الأمر، ولينظروا إليه بعين البصيرة والإمعان.

وكثيرًا ما مزجنا في هذا الفصل بين أسماء الأب، والأم، والابن، والبنت، والمعلم، والمربية، ونحن لم نردف هذه الألفاظ بعضها ببعض عن عبث ولغير قصد، وإنما قصدنا بها إلى بيان حقيقة لا خلاف فيها: وهي أن الوالدين، والمعلمين سواء في مطالبة الهيئة الاجتماعية لهم فيما يختص بكل منهم من أعمال التربية، وأن الابن والبنت لكل منهما حق يعدل حق الآخر في التربية دون فرق بينهما ولا تمييز.

ولسنا نريد بهذا القول أن الفتاة يجب أن تربي تربية الغلام نفسها، كلا، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة لا تكون محمودة في الشرق، ولا هي مما يرغب فيه عندنا، والنتيجة التي نشير إليها هي تأنيث الذكور، وتذكير الإناث. ولا يخفى ما في ذلك من الضرر علي الهيئة الاجتماعية، وما فيه من دواعي التأثير علي حالة العمران، والتقدم الشعبي.

ولا يجهل أحد علي القيام بإدارة الشئون التي تطلب منه حق قيام، وكانت المرأة امرأة تامة عارفة بحقيقة واجباتها البيتية، قادرة علي تدبير منزلها وتربية أولادها. لأنه إذا كان الرجل مطالبًا بأمور كثيرة أخصها القيام بالأعمال المؤدية إلى إيجاد المواد الكافلة بحاجات العائلة، فهكذا المرأة مطالبة بواجبات عظيمة نحو رجلها، وأولادها، والشئون المنزلية عامة.

ولرب معترض يقول أن هذه الأقوال لا تنطبق علي موضوع هذا الفصل الذي مدار البحث فيه علي التربية في البيت، وبالتالي علي تربية الصغار منذ الولادة، فالفطام، إلى نحو السنة الثامنة من عمرهم، فعلي مثل هذا الاعتراض نرد بأن التربية تبدأ مع المهد، وأن الرجل لا يكون رجلا حقيقيا، والمرأة لا تكون امرأة تؤتمن علي المنزل والأولاد إلا إذا أحسنت تربيتهما، ونُظر في أمرهما منذ ساعة الولادة، الذكر كما يجب أن يربي الذكور، والأنثى كما يليق أن تكبر

الإناث.

وويل لشعب يقلد رجاله نساءه، وويل لأمه تتشبه نساؤها برجالها، فإن ذلك يؤدي إلى ضياع الموازنة في قلب الأسرة، ومتى ضاعت موازنة العائلة فقدت موازنة الأمة كلها بحسب القاموس الطبيعي، فإن ما يطلق علي الأفراد يطلق علي الشعوب بإجمالها، والأسرة صورة الأمة ومثالها.

إذن فمن الواجب بداهة أن يعني بتربية الصغار عناية فائقة، فإن ذلك يسهل سبيل تربيتهم، وتعليمهم، وتثقيف أخلاقهم متى أزيحت عنهم التمائم، وأصبحوا يدركون ويفقهون.

ولقد رأينا العرب، بل الشرقيين عامة قد أهملوا فن التربية إهمالا تامًا، فهم يمنعون الحجّام عن معاطاة فن الطب؛ لأنه ليس من مهنته في شيء، ويبشرون التاجر بالخسارة والإفلاس إذا لم يكن حاذقًا في الحساب، والأعمال المتجرية، ولكنهم لا يعجبون لرجل يتخذ لنفسه رئاسة العائلة، وقيادة الأسرة، وتربية الأولاد، وهو لا يعرف من التربية إلا اسمها، ولا يعلم من القوانين الصحية شيئًا يؤهله لمثل هذا العمل العظيم. فلذلك رأينا أن نردف هذا الفصل الذي أجملنا فيه الكلام علي التربية في البيت إجمالا بفصول أخرى، نفصل فيها القول تفصيلا، والله من وراء النيات.

الفصل السادس

التربية الصحية

أول ما نبدأ به هذا الفصل الإشارة إلى أمر لا نرى بين أمورنا العامة أهم منه، ولا أبعد منه خطورة، ونريد به كثرة الموت بين أطفالنا، فإنك إذا نظرت إلى معدل الوفيات في البلاد الشرقية عامة، والعربية منها خاصة، تجد أن أكثر ما تنشب المنية أظفارها في الصغار، فتذهب بهم قبل أن يدركوا لهذه الحياة لذة، ويذوقوا من هذه الدنيا حلاوة. وإذا قابلت بين هذه الوفيات في بلادنا الشرقية وما سواها من البلاد الأخرى، ثبت لك أن الموت اتخذ إلى أطفالنا سبيلاً ممهدًا، وبابًا مفتوحًا.

ولقد بحثنا عن الأسباب التي تنتج هذه الحالة السيئة، ونقبنا عن العلل التي تقضي في بعض الأحيان، بأن يلد للرجل منا البنون والبنات، ثم يقضي أيام حياته دون أن يناغيه أحد أولاده بلفظة "أباه"، فلم نجد لذلك سببًا سوي جهل عامتنا لأبسط القواعد، والقوانين الصحية التي لا يستغني عن معرفتها، والعمل بها رب عائلة، وأبو ولد.

وأنه ليتفق كثيرًا أن يمر الرجل منا الأحياء التي تسكنها العامة، أو يدخل منازلهم، أو ينظر إلى أولادهم يسيرون في الشوارع، أو يتناولون مأكلاً، أو مشربًا، فيعلم مقدار ما هم فيه من الجهل لتلك القوانين الصحية، والبعد الشاسع عن القواعد التي يجب العمل بها؛ لتنمو الأجسام، وتقوى الأبدان، وتمتنع تلك الآفة التي نعوذ بالله منها، ونريد بها موت الصغار بجهل آبائهم

وأمهاتهم لطرق التربية الصحية.

ومتى نظر الرجل منا بعين الإمعان إلى جهل عامتنا لتلك القواعد، والقوانين لم يبق لديه مجال للعجب والاستغراب من رؤيته الصغار يُنقلون افواجًا إلى المدافن، بل يقف حينئذ والحزن ملء قلبه، وكل جارحه فيه تتألم لهذه الحالة ألمًا شديدًا.

علي أنه لا حاجة بنا إلى القول بأن الحزن والتألم لا يدفعان مكروهًا، ولا يرفعان ضيمًا، فمن الواجب إذًا أن نستبدلهما بالسعي وراء ما ينير أذهان الأمة، ويعملها الجري علي القواعد الصحية الأولية. ولذلك كان فرضًا علي كل والد ومربٍ أن يجعل أول همه في تربية الولد، أن يوجه جل عنايته إلى تسييره في الطرق الصحية الواجبة.

ولا بد لنا هنا من توجيه الخطاب إلى الأمهات، ورئيسات الأسر، والعائلات؛ لأن هذا الأمر موكول بنوعٍ خاص إلى عنايتهن، فإن المرأة أول من يقوم بتربية الولد؛ إذ تنتدبها الطبيعة قبل أبيه ومعمله، لحمله، وتغذيته، وتقوية بدنه

ولسنا في هذا المقام نعدد القوانين الصحية، والقواعد، والشروط التي يجب العمل بها، فإن ذلك متوفر في الكتب الطبية، والمؤلفات الصحية، لكننا مع ذلك لا نري بدًا من الإشارة إلى وجوب النظافة التامة، فإن أكثر أمراض الأطفال عندنا سبب عن قذارتهم. حتى إن كثيرين يصابون بالعاهات، وأمراض العيون لابتعادهم عن النظافة في حين أنها أهم مواطن الصحة والعافية.

وقد قال أحد أطباء العيون يومًا علي مسمع منا: أن ثمانين في المائة ممن يعالجهم من العرب يصابون بأمراض العيون، وقد يفقدون بصرهم عن غير سبب

سوي إهمالهم أمر النظافة إهمالاً تامًا، في حين أنه ليس أسهل من غسل العيون ولو مرة عند الصباح.

ومن يصدق أن رجلاً في سن الأربعين قال مرة أمامنا –وهو يفاخر– أن الماء وبدنه لم يلتقيا بعد مرة واحدة. بل من يصدق أن ابن العامة عندنا يمر علي النيل مرات في اليوم الواحد، ويقطع مسافات علي شاطئ البحر دون أن يغسل وجهه في الشهر مرة واحدة، في حين أن الأديان كلها –والدين الإسلامي خاصة– تأمر بالنظافة، وتنهى عن المبيت علي قذارة. ولسنا نعرف لذلك سببًا سوي جهل الوالدين للأمور الصحية، وإهمال المعلمين والمربين تعويد الأولاد عليها، فإذا كبروا كانوا كآبائهم جاهلين لها تمامًا.

وانظر إذا شئت إلى الصغار في البيوت كيف يتمرغون في التراب، وانظر إلى الأولاد في الشوارع والطرق، ثم انظر إلى تلامذة المكاتب الأهلية الصغيرة، فإنك إذا فعلت لا ترى أقل تقدم وإصلاح في الحالة الصحية، ولا يأخذك العجب بعد ذلك من موت الصغار بكثرة، وتفشي العاهات والإسقام في الذين ينجون من مخالب الحمام.

وأنه يحدث كثيرًا أن يموت الصغير، أو يمرض ويبتلي بالعاهات، لا لعدم العناية به، بل لإهمال الوالدين أمر أنفسهم، وغضهم النظر عما يتعلق بصحتهم، فيأتي الولد وفي دمه جرثومة العلة، ولسان حاله ينشد:

هـــــذا جنــــــاه أبي علــــــي   ومــــا جنيـــت علـــى أحـــد

فلقد شاهدنا آباءً كثيرين، وأمهات عديدات مصابين بالأمراض الخبيثة التي يرثها الولد عن الوالد، وتكون سببًا إما في موته صغيرا، أو في قضائه أيام الحياة بين الأوجاع والآلام، وهم مع ذلك لا يلوون علي أنفسهم، ولا يحسبون

للأمر حسابًا.

وكثيرا ما رأينا رجالا يحملون في دمهم جراثيم الأمراض والعاهات الخبيثة القاتلة، ثم هم يقدِمون علي الزواج قبل تنقيه أبدانهم مما هو وِبال علي أولادهم، وسبب حزن وغم دائمين لهم؛ لأن موت الصغير من أعظم البلايا وأكبر المحن.

ولا شك في أن مثل هؤلاء من أعظم الجناة؛ فإن جنايتهم تعم الهيئة الاجتماعية بإجمالها أكثر مما تعمها جناية أي قاتل، ومنتحر، ولص، ومزور.

وإن لم يكن في القوانين والشرائع عقاب لعملهم، فإن العقاب واقع عليهم من نفس فعلهم، والجزاء الحق من جنس العمل، فليتدبر إذًا الآباء، والأمهات هذا الأمر الخطير، وليتقوا الله في أولادهم، والوطن في أبنائه. وليذكروا دائمًا أن رأس شروط التربية شرطها الصحة، وأن رأس الصحة النظافة وترتيب المعيشة. والله الواقي علي كل حال.

الفصل السابع

تربية الآباء والأمهات، وتربية المراضع والخادمات

الغريب من أمر بعض الوالدين أنك تراهم إذا كانوا ممن أنعم الله عليهم بالثروة والغنى لا يلهون طرفة عين عن الاهتمام بخيولهم، والنظر في أمر علفها، وانتقاء الجيد منه، وتفقد إسطبلاتها، والحض علي تنظيفها والعناية بها. في حين أنهم لا ينظرون نظرة واحدة إلى حجرة أولادهم، ولا يعنون مرة واحدة بتفقد طعامهم.

وأنكى من ذلك أن بعض الأمهات يسلمن الولد إلى المرضعة تفعل به ما تشاء، وتربيه كما تشاء، وليس المرضعات حنو الوالدات.

وقد شهدنا فيما جمعناه من الملاحظات فيما يختص بالتربية في الشرق: أن عادة (بل آفة) عدم الاهتمام بأمر الأولاد تزيد في كل يوم تفشيًا، حتى أنه أصبح من شروط "التمدن" أن تسلم الأم ولدها إلى المرضعة، ثم لا تسأل عنه إلى يوم الفطام، فإذا جاء ذلك اليوم أخذته من بين ذراعي مرضعته لترمي به إلى يد مربيته، فتكتنفه هذه وهو في تلك السن التي يحتاج فيها إلى أعظم عناية والدية، بما تسمح لها به الظروف من العناية، وبما تجده في فؤادها الغريب عن هذا الولد من بقايا عواطف الحب والحنان.

وإذا أقدمت علي ملامة أحد هؤلاء الرجال وسألته عن سبب اعتنائه بماشيته، وكلبه، وجواده مع إهماله أمر أولاده أجابك أن الاهتمام بالأولاد من شئون الأم والخادمة. ولعل هذه الأم التي يلقي عليها الرجل كل اعتماده في

تربية بنيه وبناته لا تعرف من أمور الدنيا سوى التطريز، أو الرسم، أو الضرب علي البيانو، أو قراءة القصص، كما هو الشأن الآن جريًا علي تقاليد التمدن كما سيجئ.

وإذا سألت الأم: كيف يجوز لها أن تهمل العناية بأولادها؟ أجابتك دون حياء أنها لم توجد لتكون مرضعة أطفالها، ومربية صغارها، بل أن عليها واجبات أخري لا تحسن القيام بها إذا عنيت بأمر أولادها. وإلا فمن يستقبل زوارها، ومن يرد زياراتها، ومن يقابل الخياطة عنها، ويقرأ لها جرائدها، ويعني بأمور تبرجها وزينتها –اللهم رحمة من لدنك يا أرحم الراحمين– ومن وجه آخر فإن الخادمة حاضرة، والولد مكفول بعنايتها.

نعم، ولكن هذه الخادمة لا تعرف في الغالب من أمر تربية الأولاد سوي إطعامهم إذا طلبوا الأكل ولو في كل ساعة مرة دون أقل ترتيب، وزجرهم بغلظة وعنف إذا عرض لها أن تربيهم، أو تركهم علي أهواء أنفسهم إذا مر بخاطرها طارق يلهيها عن أولاد غيرها. بل لعل هذه الخادمة لا تعرف من أمر التربية سوي مزاعم وأوهام تلقنتها من أهل طبقتها، وهي طبقة الجهل والغباوة كما لا يخفى.

وكم رأينا الخادمات والمربيات يسقن الأولاد إلى المنتزهات، ثم يلهين عنهم لهوًا تامًا، فلا يأتي الأولاد إلا كل أمرًا مضر بصحتهم، مؤذٍ لأبدانهم. حتى أننا رأينا رأي العين مرة ولدًا يتناول التراب بيده، فيحشو به فمه، والخادمة المعهودة إليهاحراسته لاهية عنه بحديث مع خادمة أخري، ولعل كل واحدة منهما كانت تنم بسيدتها، وليس ذلك بغريب.

ورأينا مرة خادمًا بربريًا يجر ابن سيده بفظاظة وقسوة لم يعهد لها مثيل، والولد يبكي وينتحب وهو لا يزيده إلا قسوة وغلظة.

وكان بعضهم سائرًا في الباب الشرقي، فرأي ولدًا لا يكاد يبلغ الثالثة من عمره يسير بعيدا عن الرصيف، والمركبات في ذهاب وإياب، والولد معرض في كل ساعة لأن تدوسه الخيل بأرجلها، والخادمة المرسلة لحراسته لا تفكر في أن تعرف أين هو، حتى اضطر الرجل لأن يأخذ الولد بيده ويفتش علي الخادمة الموكول أمره إليها.

وقد سألنا مرة ابن أحد الأغنياء وعمره أربع سنوات عن أبيه فقال: لا أعرف اسمه، فسألناه عن أمه فقال ماري. وماري هذه إنما هي مربيته التي لا يري غير وجهها صباح مساء، حتى أصبحت في عرفه أمًا له، وصارت والدته أجنبية عنه.

وقيل مرة لفتاة صغيرة علي سبيل المزاح: كم تحبين أمك؟، فقالت: أيهما فإن لي أمّين: جوزفين، والأم الكبيرة وهذه لا أحبها. وجوزفين مربيتها والأم الكبيرة أمها وهي لا تحبها، فتأمل كيف يرجو الوالدين أن يجدوا في قلوبهم حنانًا علي الذين لا يربونهم بأنفسهم، وكيف يأملون أن يجدوا في قلوبهم حنانًا علي الذين لا يربونهم بأنفسهم، وكيف يأملون أن يجدوا في قلوب أولادهم حبًا لهم وهم علي الحقيقة غرباء عنهم؟.

بل كيف تقوي العواطف العائلية، وتتمكن روابط النسب بين أم وبنتها، وأب وولده إذا كبر الولد بين يدي الخادم الأجنبي، وشبت الفتاة بين ذراعي المربية الغربية دون أن تشعر بنظر الأم يحوم في كل ساعة حولها؟.

لا بل كيف يحبنا أبناءنا وبناتنا إذا استيقظوا في الصباح فلم يروا غير وجه الغرباء يبتسم لهم، ثم ناموا في المساء ولم يغمضوا أجفانهم إلا بقبلة الغرباء علي جبينهم؟. وقد جاء في الأمثال أن ثوب العارية لا يدفئ.

وذلك هو السبب في ما نراه في هذه الأيام من فتور الحب الوالدي، وتراخي الإخلاص البنوي، وزعزعة الأركان العائلية، ولم يكن الشأن فيما مضى كذلك. بل كان أجدادنا إذا رزقهم الله أولادًا عرفوا قيمة هذه النعمة، وعملوا على شكران الله عليها بالعناية بها. فكنت ترى الأب يسهر بنفسه على ابنه، والأم لا تغفل طرفة عين عن ابنتها.

أما الآن فقد تبدلت الأمور، وانقلبت الأحوال، وأصبح ما كان عليه أجدادنا من الفضيلة العائلية أمرًا مستهانًا، في حين أنه هو الكمال بعينه.

فيا أيها الأب: إن ابنك محتاج في كل أطوار حياته إلى عنايتك. وهو في صغره محتاج إلى ابتسامة منك احتياج الأرض الظمآنة إلى وابل المطر.

ويا أيتها الأم: إن ابنتك لا يجب أن تخرج من تحت جناح عنايتك إلا متى أخرجتها الأيام من ولايتك لتدخل في ولاية زوجها. وهي في طفولتها وصغرها أحوج إلى قبلة منك من النبت الصغير إلى حرارة الشمس.

فإن المحبة الوالدية نور يشرق على قلوب الأولاد، وهي حرارة الحياة تنبت في أبدانهم، وتدفئ قلوبهم، وتلقي في صدورهم بذار الحب البنوي العظيم.

ومن أهمل النظر بنفسه في تربية أولاده فلا يلومن إلا نفسه يوم يكبر أولاده، ويجد قلوبهم خاوية من الحب الحقيقي والولاء البنوي الصادق له، ولوالدتهم، وسائر إخوانهم والسلام.

الفصل الثامن

تربية البدن

لا يستغرب قراء كتاب العلم والتربية عنوان هذا الفصل، فإننا قد آلينا علي أنفسنا أن نُضمن هذا الكتاب كل ما نجد فيه فائدة، ونري فيه منفعة لأبناء البلاد الشرقية، ونحسبه وسيلة لإتمام فعل التربية العظيم في الأصقاع العربية. فلذلك رأينا أن تودع هذه الفصول أبحاثًا مستفيضة، وإن لم تكن كاملة مستوفاة من كل وجوهها في كل ما يتعلق بتربية الذهن والبدن، وبالتالي في كل ما من شأنه أن يعد سبيل الرجولية الحقيقية لأولادنا.

ومن معدات هذا السبيل وممهدات تلك الطريق التربية الصحية التي تقدم لنا كلام إجمالى بشأنها في الفصل السابق، ونحن الآن موفون هذا الموضوع بعض حقه من التفصيل والبيان.

وأول ما نبدأ به الكلام في هذا الصدد قولنا أن ثمة أربعة أمور يجب أن تصرف العناية إليها في تربية البدن: وهي الغذاء، واللباس، والسكن، والرياضة الجسدية.

الغذاء

الغذاء في عرف الجميع أهم تلك الأشياء؛ فلذلك ينبغي أن يعتني به اعتناء خاصًا من حيث نوعه، وكميته، وكيفيته. ولا بد في مثل هذه الحال من رعاية القوانين الصحية.

وقد ذكر الذين تقدمونا في التأليف والبحث في مسائل التربية العامة: أن أمر تغذية الأطفال كان في كل زمان ومكان موضع أوهام ومزاعم جمة، وأخصها منع الأولاد عن الأكل، وكفهم عن الطعام كلما بدا لنا أن نكفهم عنه، توهمًا منا أنهم نالوا حاجتهم، وإن كانوا هم يطلبون المزيد.

والغريب أننا نري الولد يأكل بشهية، فنقول أنه نهم شره، ونقضي بكفه عن الطعام غير ناظرين بته إلى قوله أنه لا يزال جائعًا، بل نقضي تحكمًا أنه نال حاجته وزيادة عليها، في حين أن الشهية دليل الجوع.

ويجب علي الذين يتحكمون في القضاء بكف الأولاد عن الأكل أن يفرقوا بين الجوع والشره، وأن لا يحكموا لمجرد ما يتخيلونه. فإن الغذاء أهم ما يحتاج إليه الصغار لسببين: أولهما إنماء أجسامهم وتقوية أبدانهم، والثاني تعويض ما يفقدونه في كل يوم، بل في كل ساعة من القوى الجسدية كما هو مقتضى قاموس الطبيعة.

والأولاد كما لا يخفي أحوج من الكبار إلى القوت لصغر أجسامهم وضعفهم، بحيث لا يجب أن يمنعوا ما ينميها ويقويها إلا إذا ثبت ثبوتًا تامًا لا أثر معه للريب أنهم يأكلون عن شره لا عن جوع. وغني عن البيان أن الأمراض والعلل التي يورثها الجوع، ويسببها عدم الكفاية من الغذاء أعظم تأثيرًا علي الجسم، وأعسر شفاء من الأمراض التي يسببها الشره والإكثار من الطعام. فمن الواجب إذًا أن يكون غذاء الأولاد تامًا من كل وجوهه، وأن لا ينقصهم منه شيء.

وقد رأينا أولادًا تعودوا علي الشره والنهم لمغالاة والديهم ومربيهم في كفهم عن الأكل، ومنعهم الطعام إلا بالقانون؛ لأنه لا يخفي أن كل ممنوع محبوب، والولد الذي تشدد كثيرًا في منعه من الطعام يغتنم كل فرصة سنحت،

فيأكل في غيابك عن جوع، أو عن غير جوع، ويدخل طعامًا على طعام، فتكون قد أضررت به كمن حيث أردت له النفع.

ونحن لا نريد بهذا القول أن ننكر ضرر الإكثار من الطعام، فإن ذلك حقيقة لا مراء فيها، وقد شهدنا عللا عسر شفاؤها –بل استحال الخلاص منها– وكان سببها التهافت علي الأكل بكثرةو وفي آن وزمان. ولكن ما نريد أن نقرره في الأذهان أن تغذية الصغار تغذية لا نقص فيها أمر واجب لا مندوحة عنه، ولا مفر منه، وإلا فإن الصغار يكبرون علي إهزال، وفقر دم، وضعف في الأعصاب، وهو ما يشاهد عند كثيرين ممن لا يعتنى بأمر غذائهم وهم في سن الصغر.

ومما يجب التنبيه إليه في هذا المقام وجوب اختيار المغذيات من المأكل، بحيث لا يطعم الولد ما يعسر هضمه ويثقل علي معدته دون أن يكون فيه ما يزيد في قوته، ويعود بالنفع علي بدنه. واخص ما يوصي به من الأكل اللحم، والبيض، واللبن، وبعض البقول، وأكثر الفواكه والأطعمة الحلوة التي هي أفضل الأشياء بعد اللحم وسواه من المآكل الدسمة توليد للحرارة الغريزية في الأبدان.

وينبغي أيضًا أن يعني الوالدون والمربون بتعيين أوقات الطعام.

علي أن القول بتعيين أوقات الأكل لا يقضي بمنع الأولاد من تناول أي مأكول كان بين فترات تلك الأوقات إذا أحسوا بالجوع، ولا بإجبار الأولاد علي الأكل في تلك الساعات المعينة، وإن لم يكونوا جياعًا. فليتدبر الوالدون والمربون هذه المسائل بما عندهم من الحكمة والتمييز.

بقي من أمر الغذاء الأشربة، وقد رأينا بعضهم –وكثيرا ما هم– يعوّدون أولادهم منذ الصغر علي شرب الماء ممزوجا بالخمر، في حين أن خير الأشربة

وأسوغها للأولاد وأشدها نفعًا لهم الماء القراح يتناولونه عند عطشهم.

وغير خافٍ أن بلادنا الشرقية من أعدل البلدان هواءً، والطفها جوًا، وأعذبها ماءً، فليست بنا حاجة إلى ما يحتاج إليه أهل البلاد الغربية من أخذ بعض الاشربة، أو مزج الماء بالخمر، علي رغم أن ذلك يهيج الشهية، ويزيد في القوى البدنية. فلذلك خير ما تفعله العائلة أن تمنع بنيها الأشربة الروحية، وتسقيهم الماء قراحًا نقيًا، فإنه أنفع لهم، وأعود علي صحتهم.

اللباس

نظرنا في أمر التربية العامة في بلادنا الشرقية، فوجدنا الخطأ فاشيًا في كل فروعها ووجوهها، حتى أنه اتصل بعد الغذاء بالكسوة التي يجب أن تتخذ لوقاية أبدانهم من تأثير الحر والبرد معًا. فإنه كما أن للغذاء شروطًا تجب رعايتها ويضر الخروج عنها، كذلك للكسوة شروط مقررة لا بد من الجري عليها والعمل بها.

وأتم شروط الملبس أن تكون الثياب من الصوف القاتم اللون؛ لأنه احفظ من كل نسيج سواه لحرارة البدن الغريزية التي يجب أن تبقى في درجة طبيعة الاعتدال.

وينبغي أن لا تكون ثياب الأولاد ضيقة بحيث تعوقهم عن الحركة، وتمنعهم عن اللعب، وهما من أهم الأمور للأولاد؛ لأن الحركة واللعب يساعدان البدن علي النمو، ويقويان الأعصاب، ويزيدان الحركة الدموية، ويشغلان الفكر عن كل أمر ذي أهمية وتأثير. وأن لا تكون واسعة جدا بحيث يتعثر الأولاد بأذيالها، ويرتبكون بأطرافها.

بل ينبغي أن تكون ثياب الأولاد لا واسعة ولا ضيقة، وأن لا يُعودوا وهم صغار علي اتباع الأزياء، والتأنق في ملابسهم، فإن البساطة في الملبس أجمل ما

تقع عليه العين.

وقد شهدنا أمهات كثيرات يلبسن أولادهن الثياب التي لا يستطيعون معها أن يأتوا بحركة، ولا يجسرون علي الجري واللعب؛ لأنها آخر زى دارج تلبسه الأم لابنها ليروق النظر وإن كان مضرًا بصحته.

وعلي هذا النحو ترى الأولاد في أكثر الأحيان يمنعون –من أجل ثوبهم– من رياضة ضرورية لنمو أجسادهم، وقوة أبدانهم، وذلك من الغرابة بمكان، بل هو من الخرق في الرأي، والتماس وجوه الضرر للجهل بالقوانين الصحية العامة.

ومما يجب التنبيه إليه في هذا الباب أمر الأحذية التي تعد في الغالب غير ذات أهمية، في حين أنها ذات خطورة عظيمة. فإنك قل ما تري فتى أو فتاة لا يشكوان من حالة أرجلهما، وسبب هذه الشكوى الحذاء الذي احتذياه في صغرهما.

وذلك أن الوالدين في هذه الأيام يحبون أن يدرجوا علي طرق التمدن في كل شيء حتى في أحذية أولادهم، فيضعون أرجلهم في أحذية هي لضيقها أشبه بقوالب الحديد التي يحبس الصينيون فيها أرجلهم، فيحتبس الدم في الأرجل الصغيرة، وتمتنع دورته، ولا مراء في أن ذلك يسبب آفات عديدة، وكأنهم يريدون أن يخففوا وطأة هذا الضيق فيعمدون إلى اتخاذ الأحذية من جلود رقيقة لا تمنع الرطوبة عن أن تنفذ إلى أرجل أولادهم، فيزيدون الطين بلة، ويضاعفون الضرر من حيث لا يعلمون.

ومن الأمور الضارة التي ينبغي اجتنباها: أن يبقى الأولاد محتدين الحذاء في أرجلهم من ساعة يفيقون إلى ساعة ينامون، أو أن يطلقوا للمشي حفاة علي البلاط أو التراب، فإن الأمر الأول يمنع مسام أرجلهم من التنفس، والثاني

يعرض أقدامهم للرطوبة، وفي كلا الأمرين أذي وضرر.

السكنى

إذا جاء أحد الغربيين الذين يعرفون قيمة التربية الصحية ومقدار تأثيرها علي حاضر الأمم ومستقبلها إلى بلادنا، وساح فيها لأعلي قصد ترويح النفس، بل علي نية درس أحوالنا، واستطلاع كيفية معيشتنا، ثم طاف في الأحياء التي تقطنها العامة، وتفقد منازلهم، وأنْعم النظر خاصة في البيوت التي يسكنها الفلاحون، والزراع، والفقراء منا، فلا شك عندنا في أنه يحكم لأول وهلة – وحكمه في الحقيقة عادل– أننا نحن الشرقيين لا نعرف كيف يجب أن يعيش الإنسان ويتمتع بهذه الحياة؟.

وذلك أننا نمنع أنفسنا استنشاق الهواء النقي الذي لا بد منه لكل حي، فنبني مساكننا وأكواخنا علي طريقة لا تنفذ معها أشعة الشمس إلينا، ولا يتجدد الهواء في مخادعنا.

وغني عن الإيضاح أن رأس شروط الصحة والعافية الهواء النقي، حتى أن أحد مشاهير الأطباء كان يصف لمرضاه الامتناع عن تناول الأدوية ويأمرهم باستنشاق الهواء الطلق الجيد.

ولقد زرت بلادا مختلفة، ونزلت في مدن كثيرة فلم أجد مثل بلاد الشرق بلادًا جهل أهلها مثلنا حقيقة هذا الأمر، وإذا تأملت جيدًا وجدت مصر قد فاقت كل بلاد سواها من هذا القبيل، ولاسيما في بلاد الريف، بل في ما حول الإسكندرية والقاهرة نفسها. فإنك تجد المسكن الذي يسمونه "عشه" لا يليق أن يكون مربطًا لبهيم من البهائم، فإنه عدا عن بنائه بالطين والتراب وشيء آخر أقذر منهما، بحيث تري الرطوبة تسري منها الهواء، ولا كوة تنفذ منها

حرارة الشمس إلى داخله.

وفوق ذلك كله فهو أضيق من فتر، ولكنك إذا طرقته في المساء وجدت فيه الأب، والأم، والأولاد، وحمار الرجل، وبقرة المرأة، والدجاج، ولو ملكوا جملًا لأدخلوه أيضا إليه لينام معهم في هذا "المسكن الرحيب".

فكيف بعد ذلك يرجى أن تنمو أبدان أولئك المساكين الذين يتنفسون مثل ذلك الهواء، بل كيف لا تكبر كلما كبروا أمراضهم، وتكثر كلما كثروا عللهم؟.

وإذا حولنا النظر عن مثل هذه المشاهد ودخلنا مدن الشرق الكبيرة لم نجد هناك أيضا ما يسر من حيث السكنى ومقتضياتها. فإنك كثيرًا ما تري منازل الأوساط بعضها فوق بعض، مبنية كلها بنوع يصعب أن تنفذها مجاري الهواء، وأشعة الشمس. ولذلك تري الرطوبة تسري في جدرانها، وتري الأولاد الذين يعيشون فيها ناحلي الأبدان، صفر الألوان، ومما لأمراء فيه أن الهواء الجيد النقي أعظم معين علي نمو الأبدان وتجدد القوي الجسدية؛ لأنه يولد في الأجسام دمًا جيدًا نقيًا يسهل الهضم، ويقوي الأعضاء. ولذلك تري الفلاحين والزراع الذين يعيشون في الخلاء أقوياء الأبدان، جيدي الصحة بالرغم من متاعبهم، وشظف عيشهم، وحرمانهم علي الغالب من المأكل المغذي، فطعامهم علي الأكثر خبز الذرة والشعير، وشرابهم الماء من منبعه، أو من مجري سيله ونهره.

وربما ظن بعضهم أننا نقول ما نقوله من قبيل الإطراء والمغالاة، وهو ظن في غير محله؛ لأن نقاوة الهواء من شروط الصحة الرئيسية التي لا بد من رعايتها.

نعم أننا لا نزعم أن بالهواء وحده يعيش الإنسان وتقوي الأبدان، لكننا نقول ونكرر القول أن أمر تجديد هواء المساكن واستنشاق الهواء النقي مسألة حيوية ينبغي أن لا يهملها الوالدون وإلا كانوا هم الجانين علي أنفسهم.

ولذلك ينبغي أن يحرص الوالدون، والمربون –ولاسيما الأمهات– علي تعهد الحُجر والغرف التي ينام فيها الأولاد، أو يقيمون فيها في النهار، وأن يفتحوا نوافذها وكواها ولو مرة واحدة في كل يوم علي الأقل لتدخلها حرارة الشمس، ويتجدد هواؤها فتعتدل فيها درجة الحرارة. وينبغي لهم أيضًا أن يعنوا بتنظيفها، وأن يجهدوا ما استطاعوا في تقليل عدد الذين ينامون في غرفة واحدة، وإلا فمن الواجب أن يكون اتساع الحجرة علي نسبة عدد الأولاد.

الرياضة

من أشد الأمور ضرورة لنمو الأبدان –ولاسيما عند الأولاد– الرياضة البدنية، ومع ذلك فإننا نحن الشرقيين من أعظم أهل الأرض إهمالا لها وابتعادًا عنها، حتى أنها لا ذكر لها عندنا.

وكثيرا ما رأينا رأي العين وسمعنا بآذاننا آباء وأمهات يزجرون أولادهم كلما أتوا بحركة، ويمنعونهم عن اللعب، والجري، ويضطرونهم إلى التزام السكون التام، وهم إنما يأمرونهم بما يعود بالضرر والأذى عليهم، ويوقف سير النمو الطبيعي أو يعوقه.

ومعلوم أن الحركة، واللعب، والجري، والقفز حتى التمرغ في التراب –كل ذلك– من قبيل الرياضة الطبيعية البدنية التي لا بد منها للأولاد؛ لتمون أبدانهم، وتصلب أعضاؤهم، ويشتد عضلهم. وكثيرًا ما رأينا أولادًا يصابون بأود في أجسامهم، ويكون ذلك من عدم ترويض أبدانهم وهي صغيرة لينة،

فيضطرهم الأطباء إلى اتخاذ الرياضة دواء ووسيلة لتقويم ذلك الأود.

وانظر إلى الولد في الأشهر الأولى من حياته، كيف يقفز في حضن مرضعته؟، ثم انظر إليه بعد ذلك كيف يمرح دابًا علي يديه ورجليه في البيت، وتأمله متى أصبح قادرًا علي الوقوف، تره يسير متعكزا من كرسي إلى كرسي مستندًا من جدار إلى جدار إلى أن تشتد ساقاه، وتقوى رجلاه علي حمله، فلا تبقى له مقدرة علي السكون، فيتضح لك أن الحركة من هبات الطبيعة الممنوحة للأولاد لنمو أبدانهم، فمن الخرق في الرأي وسوء التدبير إذًا أن نجبرهم علي مخالفة هذه السنة الطبيعية التي في مخالفتها أعظم ضررًا، وأكبر أذى.

وقد اتفق الباحثون في تربية الأولاد علي أمر لم نراهم أجمعوا في أمر آخر مثل إجماعهم في الاتفاق عليه: وهو أن أشد احتياج الولد إلى الرياضة البدنية متى كبر قليلاً وصار يقضي ساعات من نهاره مكبًا علي الدرس.

لأنه في هذه الحالة يضطر لأن يلزم مكانه، فلا يتأتي له أن يبرحه متى أراد. فلذلك وجب أن يعنى الوالدون والمربون والمعلمون بأن يجعلوا بين أوقات الدرس فترات تتخللها وأن يحملوا الأولاد علي اللعب في ما يحبونه من الألعاب ويرغبون من طبعهم فيه لا فيما يقترح عليهم دون أن يميلوا إليه.

واختيار الألعاب التي يرغب الأولاد فيها من الشروط التي لا يجب إغفالها في ما يتعلق بالرياضة؛ لأن إكراههم علي لعب لا يحبونها من شأنه أن يفسد عمل الرياضة، وقد يأتي بعكس ما ينتظر منها. وذلك بديهي؛ إذ أن الفائدة والنفع لا يأتيان عن عمل لا يرتاح القلب إليه، ولا ترغب النفوس فيه.

وعندنا أن مثل هذا المبدأ ليس مما يحتاج إلى قول يشرحه، وبرهان يعززه، ومع ذلك فلا بأس من الإلماح هنا إلى أن إكراه الولد علي صنف من اللعب لا

يحبه، ولا يميل إليه، أو صده عن صنف يغتبط به، ويرغب فيه أو يخترعه، هو لنفسه ليس إلا من قبيل مداومة الدرس الذي يقصد بإخراجه منه إلى اللعب إراحة ذهنه، وترويح صدره، وإعفاؤه ساعة من عناء الدرس؛ ليجد لذة ولهوًا يعوضان عليه ما فقده في ممارسة الدرس من قواه المادية، والعقلية، فنفوت بذلك الغاية المقصودة، ويرجع الولد إلي الدرس عن غير قابلية ولا ميل، ودون أن يجدد شيئًا من قواه.

ولما كان الشرق يقيس الآن كل أعماله علي الضرب، ويعمل علي تقليده واقتفاء أثره، رأينا أن نضرب لأبناء البلاد مثلا ما نراه عند الأوروبيين عامة من التهافت علي الأعمال الرياضية: سواء باللعب، أو ركوب الخيل، أو التمشى في الخلاء، أو استعمال الدراجة (البيسيكليت)، أو التعود علي الألعاب البهلوانية (الجمناستيك).

ولدينا في هذا القطر في كل يوم مشهد من ألعاب الإنجليز المختلفة؛ إذ تراهم رجالاً، ونساءً كبارًا وصغارًا يقفزون، ويجرون في أماكن معدة للعب: مثل جريهم وراء كرة علي ظهر جواد. وهم يتفننون في الألعاب، ويجعلون للفائز فيها الجوائز، كل ذلك تحريضًا علي الرياضة، وإنهاضًا لهمة المتواني، حتى أنهم جعلوا الألعاب الرياضية من الفروض المدرسية، والسابق فيها ينال الجائزة، ويثنى عليه، ويقدم علي غفرانه.

وإذا رأيتهم خارجين من ألعابهم، والصحة تقطر من وجوههم، والعافية تتلألأ في جباههم، علمت أيها الشرقي أنك جنيت علي نفسك جناية عظيمة بإهمالك فن الرياضة التي أقل منافعها أنها تقوي البدن، وتشفي من داء الكسل، وتعلم المغالبة التي لا بد منها في هذه الدنيا.

إجمال الكلام

إجمال الكلام في هذا: أن التربية البدنية الصحية قائمة بإجادة الأمور الأربعة التي أشرنا إليها: وهي الغذاء، والكسوة، والسكنى، والرياضة. فمن الواجب إذًا أن تبذل العناية في حسن تغذية الأولاد لتنمو أبدانهم، وتقوي أجسامهم، فيخلصوا من الموت صغارًا، ويتقوا العلل والأمراض كبارًا.

وإجادة الغذاء قائمة في أن يكون كافيًا وجيدًا، فهي ذات علاقة بكميته ونوعه. أما من حيث كميته فينبغي أن يكون بحيث لا ينقص عن حاجة الولد فتضعف بنيته، ولا يزيد عن حاجته فيصاب باللثم والمعدة كما لا يخفي بيت الداء. وأما من حيث نوعه: فينبغي أن لا يقات الأولاد إلا بما يسهل هضمه، ويكون فيه من المواد المغذية ما يزيد في قوة أبدانهم، ويعوضهم ما يفقدونه من القوي.

أما الكسوة: فينبغي أن تراعى فيها مسألة هي عقدة المسائل في هذا الموضوع، ونريد بها أن يكسى الأولاد بما لا يعوق نمو أبدانهم، ولا يؤثر علي اعتدال حرارة أجسامهم، وبما يمنع الرطوبة من أن تنفذ إليهم.

وقد رأينا كثيرين من الوالدين يلبسون أولادهم في أيام الشتاء الثوب فوق الثوب، والكساء فوق الكساء، حتى ترى الولد كأنه يحمل من ملابسه حملا، كل ذلك بدعوى وقايته من البرد. ثم تراهم إذا جاء الصيف أخرجوه عاريا علي وجه التقريب، وفي كلا الأمرين ضرر فليتدبر الوالدون.

بقيت من مسائل التربية البدنية الجوهرية مسألتا السكنى، والرياضة، وأهم ما يجمل في شأنها الكلام: أن الهواء النقي، وحرارة الشمس، وحركة الأجسام تعوز كل إنسان، بحيث لا تجد علي وجه الأرض من يكون في غني عنها. وكما

أن الحيوان من أيه طبقة كان، في حاجة إلى استنشاق الهواء، والتعرض لحرارة الشمس، والتعاقب علي الحركة، وإلا فلا مطمع له في البقاء، هكذا الإنسان لا يشتد له ساعد، ولا يقوى له عضل إلا إذا استوفي هذه الشروط.

بل انظر إلى النبات نفسه ترَ أنه لا ينمو ويزهر إلا إذا كان في هواء نقي، وحرارة كافية من الشمس، وكانت يد البستاني تتناوبه بحرث الأرض، وتقليبها من حوله، مما يعتبر الرياضة للإنسان وفي هذا القدر كفاية لقوم يعقلون.

الفصل التاسع

عودٌ إلى التربية في البيت

تقدم لنا القول في أحد الفصول السابقة أن للتربية الأولية شرطين رئيسين: وهما السلطة بالإضافة إلى الوالد، أو المربي، والطاعة بالإضافة إلى الولد؛ لأنه إذا لم يكن الكبير ذا سلطة والصغير خاضعًا مطيعًا فسد عمل التربية، وضاعت النتيجة المقصودة منها.

علي أنه ينبغي للوالدين والمربين أن لا يكون سلطانهم مقرونا بالاستبداد، وأن لا يستعملوا العنف، أو التسامح في غير موضعهما.

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وأن يعوّدوا الأولاد علي الطاعة والرضوخ حبًا لهما، واستأناسًا بهما، لا عن رهبة وخوف، وأن يبثوا في عقولهم حب الحقيقة، والصدق، والكره للكذب والرياء، حتى في المسائل الطفيفة، والأمور الغير المهمة؛ لأن تعويدهم علي ذلك في ما لا أهمية له يحملهم عليه متى كبروا في كل أمر ذي أهمية وخطارة، وليسمح لي أرباب العائلات أن أنتقد عليهم في هذا الموضع أمرًا يظهر لأول وهلة تافهًا لا أهمية له ولا تأثير، في حين أنك إذا أنعمت نظرك فيه، واعتبرت نتائجه وجدته من الأمور الهامة التي يجب أن يعنى الوالدون والمربون باجتنابها.

والأمر الذي أشير إليه بمثل هذه المقدمة ليس بنادر الحدوث، بل هو شائع في كل مكان، وهو مجاراة الولد في كل ما يريد ويشتهي، حتى يصبح أهلاً لأن يسمى بالولد "المدلل": وهي تسمية نطلقها علي صنف من الأولاد

يصبحون بسبب شدة حب وَلِيهم لهم، ومغالاتهم في مجاملتهم، وإفراطهم في مجاراتهم علي أهوائهم من شر الأولاد وأصعبهم مراسًا. وأن من الحب ما يضر، ومثل هذا الحب هو في الحقيقة بغض وكره.

أجل إن شر الأولاد الولد المدلل، وأكثر ما ترى هذا الصنف من الأولاد في البيوت التي لا يرزق الله أصحابها بنين عديدين، فإذا كان للأم ولد وحيد، وكانت غير حائزة صفات الأمومة الحقيقية، حسبت أن تأديب هذا الولد الوحيد وتربيته يعدمانها إياه، وفضلت أن تراه عادمًا كل الصفات الجيدة والأخلاق الحسنة علي أن تنتهره، أو تزجره مرة واحدة.

وقد رأينا مرة في الساعة السابعة من المساء في متنزه الرمل والدًا يطلب لابنه وعمره خمس سنوات صنفًا من الحلوى لم يكن موجودا. فما كان منه إلا أنه أخذ يستعطف الولد، ويقول: إذا لم يكن من هذه الحلوى في الرمل، فإن الإسكندرية ملأى منها، فهل تريد أن أذهب وأحضر لك منها؟

وحدث بعد ثلاثة أيام أن هذا الأب جاء بولده إلى المنتزة في مثل تلك الساعة، فالتمس الولد كأسًا من شراب الورد، ولم يكن في قهوة المنتزة منه، فامتعض ونظر إلى أبيه قائلاً: رح إلى الإسكندرية وهات لي الشراب...

ومن حظيات ولد آخر "مدلل" ما حدث يومًا في منزل أحد وجهاء الإسكندرية، وكان غاصا بالناس، ولا نذكر أكان ذلك لعرس، أم لعماد؟ فخطر للولد المدلل أن يربط في عنق أخته –وهي أكبر منه– منديلا ويجرها به. وكان أبوه وأمه في جملة الحضور، فما عبس أبوه له، ولا انتهرته أمه، بل قالت: أخاف أن أردعه فيتكدر ويمرض.

ويقرب من ذلك جواب إحدى السيدات، وقد سُئلت عما تقضي به

نهارها فقالت: "إنني اشتغل بتدليل أولادي". ذلك كان جوابها، ولكنها أدركت بعد ذلك بالتجربة أنها كانت مشتغلة في إعداد مستقبل سيء لها ولأولادها معًا.

وقد يقول الذين يطّلعون علي هذا الكلام أنه أي شر، وأي بأس في تدليل الولد الصغير في سنه الأول، وهو لا يدرك شيئًا من أمور هذه الدنيا. وهو اعتراض في غير محله، ومع ذلك فقد سمعناه حتى صُمّت آذاننا لسماعه، بحيث اضطررنا إلى إطالة الكلام في هذا الشأن تقريرًا لحقيقة يجب أن ترسخ في الأذهان، وهي أن هذا الولد الصغير الذي ندلِله إنما هو الرجل بعينه، وأن الرجل سيكون في كبره كما صنعته في صغره. أما وسائل تدليل الولد وبالتالي إفساد تربيته والجناية عليه، بل علي الوطن والهيئة الاجتماعية بإجمالها، فكثيرة وعلي اختلاف في النوع والطريقة؛ وذلك أننا نفسد عقل الولد بكثرة المديح له، والثناء عليه، والإعجاب بكل حركة يأتي بها، ونفسد أخلاقه بتركنا إياه يصنع كل ما يريده، ويفعل كل ما يرغب فيه.

ونفسد قلبه بتجاوزنا كل حد في الاهتمام به، والحنو عليه، والحب له حتى لقد رأينا حب بعض الوالدين لأولادهم أقرب إلى العبادة –نستغفر الله– منه إلى الحب الوالدي.

ولا يخفى أن الجري مع الولد علي مثل تلك الطريقة يؤدي إلى نتيجة سيئة، بل إلى أسوأ النتائج وأعظمها شرًا، ونريد بها الكبرياء والرخاوة، وهما جرثومتان لكل فاسد من الأخلاق وسافل من الطبائع، فمن الخرق في الرأي أن تسوق أيها الوالد ابنك بيدك إلى هذه الهاوية، وأنت مكلف بأن تقوده إلى السعادة والهناء.

بل من الجريمة أن يكون الآباء والأمهات وسيلة لشقاء أبنائهم متى كبروا وشبوا، وكانوا هم السبب في تلك التعاسة. وليس في اللغة ألفاظ نستطيع أن

نعبر بها ما تصير إليه حالة الأولاد الذين تفسد بسبب الرخاوة أخلاقهم، وتسفل بواسطتها طباعهم. بل لا يستطيع أحد أن يتصور إلى أيه حال يصير الأولاد الذين ساءت تربيتهم بسبب إفراط والديهم في حبهم، وتدليلهم، وتجاوزهم الحد في إجابتهم إلى كل ما يروق لذوقهم، ويحلو في نظرهم، وتميل به نحوه شهيتهم، ويدفعهم إليه كسلهم، وتجتذبهم نحوه أميالهم.

ومما يعدل هتاف الوالد أو الأم لبيك، كلما مرت بخاطر الولد صبوة ما نراه في كل يوم من كثرة الثناء علي الأولاد لكل حركة يأتونها، والإعجاب بهم لكل كلمة يقولونها. وأضر من ذلك أن بعض الوالدين لا يكتفون بثنائهم الخاص، بل هم يزيدون عليه ثناء الأقارب والمعارف، فتراهم يكررون ما قاله أولادهم ويضحكون فرحين متهللين لكل لفظة فاهوا بها، مستعيدينهم ما قالوه، ضاحكين لهم، معجبين بذلك الذكاء الباهر، والعقل الراجح، إلى أن يصبح الولد وهو يظن نفسه قد بلغ أقصي درجات المعرفة وأبعد مراقي الحكمة والفلسفة.

ولقد عرفنا رجلا كان يقول عن ولدين له، عمر الأول ثلاث سنوات، والثاني سنة واحدة، أن في رأس كل منهما من الفطنة والعقل ما لو وزن لرجحت زنته علي ثقل جسمي أبيه وأمه. واستمر علي هذا القول إلى أن كبر الولدين، وأرسلهما إلى المدارس، وعلمهما العلوم، وجعل الواحد طبيبًا، والآخر مهندسًا، وهما لا يزيدان إلا احتقارا له، وامتهانًا لأمهما؛ لأن الطريقة التي جرى عليها الأب واتبعتها الأم معهما وَلّدت فيهما الاعتقاد بسمو عنصرهما عن عنصر أبيهما وأمهما، حتى مات الأب وفي فؤاده من ذلك حسرة، وعاشت الأم وهي لا تجسر أن تفاتح أحدهما بكلام إذا لم يبادرها هو بالحديث، ولا يظنن أحد أننا نبالغ في ما نقوله في هذا الصدد، فإنما نحن دون الحقيقة الهائلة في كل ما نذكره

عن الأولاد الذين تفسد أخلاقهم بالدلال، حتى لقد رأينا رأي العين في بيروت ولدًا لا يتجاوز عمره العشرة أعوام يضرب أمه وشقيقته، ثم يسوق الواحدة تلو الأخرى إلى المكان الضيق القذر، ويقفل عليهما فيه ساعات من النهار، وإذا جاء أبوه في المساء لم يسمع من امرأته إلا كل ثناء سار علي ذلك الابن. ولم تكن هذه الأم تشكو ابنها إلى أبيه مخافة أن يؤدبه أبوه بانتهاره فيتكدر، أو بصفعة فيتألم، وفضّلت أن تفقده بتمامه علي أن تراه مستاءً متكدرا مدة نصف ساعة. وتقول أنها فضلت فقده علي تربيته؛ لأننا رأينا هذا الغلام فيما بعد شابا لا تكاد عين أمه تقع عليه مرة في الشهر.

ويكفي من الأمثال في هذا الموضوع ما ضربناه إلى الآن، فليسمح لنا حضرات القراء في الخروج من هذا الباب للكلام علي ما يجب علينا اجتنابه في التربية، وما ينبغي لنا الحرص عليه مع الأولاد؛ لنكسبهم صفات الرجولية الحقيقية.

ولقد تقدم لنا القول أن الولد كالغصن الرطب، يلتوي إذا عوجته، ويستقيم إذا قومته، وأن الخطة التي تجري عليها معه وهو في سن الطفولة تكون بمثابة الطابع الذي تبصم به ما بين يديك من المواد اللدنة، فإذا قست أصبح من المستحيل رفع ذلك الطابع عنها وإزالة أثره بالكلية منها.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي للذين يقع عليهم الاختيار للقيام بالعمل العظيم –أعني بعمل التربية– الذي يتوقف عليه قيام الشعب، أو سقوطه، ونريد بهم الآباء، والأمهات، والمعلمين، والمربيات أن لا يغفلوا طرفة عين عن هذا الواجب المقدس، والفرض الشريف السامي، فإنهم منتدبون إلى ذلك من قبل الله تعالى نفسه، مسئولون فيه لدى أنفسهم، والعائلة، والوطن، والإنسانية بإجمالها، فمن أحسن منهم عمله فقد خدم نفسه، وعائلته، وبلاده، والدنيا

كلها. ومن قصر في ذلك فقد أساء إلى نفسه، وعائلته، وبلاده، والإنسانية بأكملها.

وأول ما نوصي به في ختام فصل التربية في البيت أنه ينبغي أن يُعنى ببساطة ملابس الصغار وكسوتهم عناية خاصة، فإن الملابس من أعظم العوامل المؤثرة علي عقول الأولاد. ولقد تنبه الوثنيون أنفسهم إلى هذا الأمر، فقال أحد قدماء فلاسفتهم: أنه ينبغي أن تكون عيشة الأولاد خشنة، وملابسهم بسيطة مشابهة لملابس الأولاد الذين يختلطون بهم.

وقال السيد ديبانلو: أن إعجاب الأولاد بملابسهم، واستكبارهم بغلاء ثمنها، وحسن زيها أعظم ما يفسد أخلاقهم، ويعكس تربيتهم. فمن الواجب إذًا أن يبث في عقولهم منذ الصغر كره التأنق في الملبس، والاحتقار للظواهر الخارجية، والازدراء بالتزين والتبرج، واستصغار تصفيف الشعور، وحمل الحلي، واستعمال روائح الطيب إلى غير ذلك مما أصبح في هذه الأيام خطة يدرج عليها البنون جريا في أثر آبائهم. فإنك لو نظرت بعين الإمعان إلى فئة من الناس، بل إلى أكثر أقوامنا وجدتهم لا اهتمام للوالدين إلا باختيار ملابسهم، ولا اهتمام للأولاد إلا في تصفيف الشعور، والتأنق في الكسوة وتزويق الثياب، حتى أنك لترى الفتاة، أو الغلام أشبه بذنب الطاووس في كثرة ألوانه وتألق لمعانه، وهما كالطاووس في الإعجاب بتلك الألوان، والمفاخرة بذلك اللمعان.

ثم أنك لترى الفقير منا في مظهر الغني الموسر، وإذا نظرت إلى امرأة رجل من ذوى الدرجة الوسطى، أو بصرت بابنته خارجه من معبد، أو ذاهبة إلى زيارة، ورأيت ابنه سائرا إلى المدرسة، أو عائدا من نزهة، فلا يخيل لك إلا أنهم من ذوى الثروة الواسعة والمال الكثير.

والغريب من أمر بعضهم، بل من أمر أكثرهم أنك تري الرجل منهمظو

وامرأته، وابنه، وابنته خارجين في أجود كسوة، وأجمل زي، وسلاسل الذهب تروح وتجيء علي صدورهم، وخواتم الماس يتألق بريقها في أصابعهم، فتحسبهم أنهم إنما ينفقون من فضلة ما لهم، وأنهم عن سعة يفعلون. فإذا فتحت ذلك الكتاب المقفل ونظرت في باطن صفحاته تجلت لك حقيقة رائعة تقف لديها موقف المتسائل: أجن هذا الرجل، أم لعب الشيطان بعقله؟ ذلك أنك إذا أنعمت النظر في تلك الملابس الجميلة، والحلي الثمينة، وجدت أن هذا المتوسط الذي يظهر الغنى المثري إنما يتمايل مع ملابسه الجميلة في رداء من الدين، ضافي الذيول متجرر الأطراف.

وما قاده إلى هذه الحالة وأوقعه في هذه الورطة إلا ما عوده عليه والداه عندما كان صغيرًا من حب التزين بملابسه، مع غض النظر عن زينة الصفات والأخلاق. فكبر علي هذا المبدأ الوخيم، وربي عليه أولاده وبناته الذين يعدهم لأن يكونوا آباء وأمهات، ولكن علي شاكلته امرأته التي ربيت علي مثل ما ربي، أو تطبعت بعد خروجها من بيت أبيها بأمياله، فأصبحت شريكة له في إثم تلك التربية الفاسدة التي يسيّرون أولادهما في طريقها.

ومن مؤثرات التأنق في الملبس أن الولد يكبر علي مبدأ الترف، والإسراف، والرفاهية في المعيشة، فيصبح وخطرت النسيم تجرح خديه.

ويشب علي اعتبار الناس بملابسهم كذلك الذي دعا أصدقاء له إلى وليمة ولم يكن أحدهم –وهو أكثرهم فضلا. وأوسعهم علما، وأرجحهم عقلا– في لباس العيد، فأجلسه في أخريات القوم دون أن يحفل به، أو ينظر إليه. فخرج الرجل خلسة ثم عاد وهو في أحسن لباس، وأثمن حلية، فكان كأنما هو الأمير قد وفد إلى ذلك المحفل، ولما أراد صاحب الدعوة أن يجلسه في صدر القوم خلع رداءه عنه، ووضعه في ذلك المكان، ثم خرج يهزأ بالرجل وأشياعه.

وفي ذلك عبرة. ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار.

ذلك أقل ما يقال في ضرر تعويد الأولاد علي التأنق في ملابسهم، والاكتراث بأنواعها، والاهتمام بأزيائها، وهو خطر علي مستقبل ابنك أيها الأب، يجب أن تعمل علي اجتنابه بما في وسعك من وسائل الوقاية والانتباه، وينبغي في معاملة الأولاد استعمال الشدة واللين معا، والجري معهم علي خطة الصبر وطول الأناة، وتعويدهم علي كره الكسل والبطالة، وحب الاجتهاد والعمل، واحترام الشيوخ، واعتبار من كان أكبر سنا ومقاما منهم، والاحتفاظ بالمبادئ الدينية والأصول المذهبية، وعدم الاستقلال بأمور أنفسهم، مع تعويدهم من وجه آخر علي عدم الاتكال علي الناس، وحَملهم علي الاعتقاد بأن كل مرء مسئول عن أمره أمام نفسه.

وإياك ومداهنة الأولاد، والتملق إليهم؛ لأن ذلك يبث فيهم روح الكبرياء والإعجاب بالنفس، وهما من أشد العوامل تأثيرًا في إفساد التربية.

ويجب علي الوالدين والمربين أن يتوخوا الصدق في كل ما يقولونه أمام الولد، بحيث يشب علي حب الحقيقة، والاعتصام بحبل الصدق، وكره الكذب، والابتعاد عن النفاق.

ومما تجب مجانبته أن يجري الأولاد مع عاطفة الغضب، فإن الجري في مثل هذه الخطة يؤدي بهم إلى أسوأ الغايات وأقبحها. وأعظم ما يجعل الأولاد شديدي الحدة سريعي الغضب: شدة تنميق الأمهات، ولاسيما إلى الولد الوحيد، والمسارعة إلى أعطائه كل ما طلب واشتهي حالما تسقط له دمعة. وعندنا أنه خير ألف مرة أن يبكي الولد ساعة من أن تمسح الأم أو المربية دمعته بقبله، وتبادر إلى إسكاته بإنالته ما يطلبه؛ لأن تركه يبكى مرة يمنع عنه أضرارًا جمة، في حين أن إنالته مطالبه مخافة أن يبكي يجعله أظلم أهل الأرض،

وأبعدهم استبدادا بنفسه وبكل من حوله. وأفضل طريقة للتبع في مثل هذه الحال: هي أن نرفض مطالب الأولاد إذا لم تكن في محلها، وتصر علي رفضها ولو بكوا وانتحبوا، ثم نمنحهم ما يطلبون متى عادوا إلى الهدوء واخلدوا إلى السكينة، وبذلك يعلمون أن البكاء لا يفيدهم، فلا يلجأون إليه مرة أخري.

وفوق ذلك كله فإنه ينبغي لنا أن ننزع من قلوب الأولاد عاطفة الحسد والبغض، ونزرع فيها بذار الحب والصداقة، ونعودهم علي الطاعة والرضوخ، ولكن مع تبصر وروية، بحيث لا يصبح الولد رجلا سهل الانقياد لكل ما يريدونه منه.

وعلِّم الولد أيضًا المثابرة والثبات، فإنهما في غالب الأحيان وسيلة النجاح وطريق الفلاح. ولم نرَ أضر من التقلب وكثرة التنقل من أمر إلى أمر، وكم من شاب أضاع حاضره وفقد مستقبله؛ لعدم ثباته وكثرة تقلبه.

ومما ينبغي تعويد الأولاد عليه منذ نعومة أظفارهم الكرم علي غير إسراف، والاقتصاد علي غير بخل، وبالتالي معرفة قدر المال، ولكن دون الاستعباد له، وإنفاقه بغير شح ولكن في موضعه. وعلي كل حال فإنه ينبغي أن لا يُعوّد الأولاد علي أن ينفقوا ولو درهما واحدًا في غير الأمور الحاجية والحاجات الضرورية؛ لئلا يكون ذلك باعثًا علي بث روح الإسراف والتبذير في قلوبهم.

وقد رأينا كثيرين ترك لهم آباؤهم ثروة طائلة ومالا غزيرا، فلم يمضِ عليهم زمن طويل حتى أصابتهم سهام الفقر، وخيمت عليهم الفاقة، والسبب في ذلك تعويد آبائهم إياهم منذ الصغر علي الإنفاق بغير حساب، كذلك رأينا أقوامًا يَشقون بثروتهم؛ إذ تصبح أموالهم بمثابة العجل الذهبي لهم، فهم أرقاء المال الذي كسبته أيديهم، وعبيد الثروة التي وصلت إليهم، وما عبد جل هؤلاء –إن لم نقل كلهم– هذا المعدن الحقير إلا لأن آبائهم اختاروا لهم بشحهم هذه

الطريق وهم لا يعملون.

إذن فالكرم إذا جاوز حده أصبح إسرافًا وتبذيرًا، والاقتصاد إذا بولغ فيه أضحى ضنًا وبخلًا، وكلاهما رذيلة يجب اجتنابها، وهي كَسِوَاها من النقائض لا تجتنب إلا بتعويد الصغار علي كرهها منذ الفطام.

هذا وينبغي أيضًا أن يُربى الأولاد منذ نعومة أظفارهم علي التأدب والاحتشام في كل شيء: سواء في الكلام، واللبس، والأكل، والشرب، والجلوس، والوقوف؛ لأن عدم العناية بذلك في صغر السن يقود الولد إلى طريق غير مأمونة؛ إذ يتخلق بأخلاق، ويتلبس بعادات لا تُرضي أحدًا من الناس.

وبالإجمال أن التأدب والاحتشام في تلك المسائل كلها يحفظان للإنسان مقامه ومنزلته؛ إذ يكون قد حفظ بهما مقام سواه، والناس يفعلون بك ما تفعله أنت بهم، وبالكيل الذي تكيل به يكال لك.

الفصل العاشر

ثمّة التربية في البيت

إذا نظرت إلى الأولاد –ولاسيما أولاد العامة– يسيران في الأزقة والشوارع، وسمعتهم يتفوهون بكل كلام قبيح، ويرددون كل لفظة سفيهة، ويأتون بكل إشارة سيئة تدل علي سوء أدبهم وفساد تربيتهم، فتخدش كلماتهم الآذان، وتكون إشاراتهم قذي في العيون، فأعلم أن السبب كل السبب في ذلك عدم تربية والديهم لهم في بيوتهم، وإطلاق العنان لهم منذ صغرهم ليقولوا ويفعلوا ما يريدون.

بل ربما كان الولد قد تعلم الكلام البذيء من أمه، وتلقي الإشارات السافلة عن أبيه؛ لأن سوء الحظ جعل أهل الطبقة السفلى من الشعب عندنا لا يرقبون أنفسهم أمام أولادهم، بل تراهم يجدفون أمامهم، ويلعنون، ويشتمون، ويقولون كل قول سمج، ويشيرون بكل إشارة مستهجنة.

والولد الصغير كالببغاء، يسمع الكلام فيلتقطه دون أن يفهم مغزاه، ويقوله دون أن يدرك معناه، ومتى تداوله لكثرة ما يطرق أذنيه أصبح تكراره إياه أمرًا طبيعيًا، بل مَلَكَة مستحكمة فيه، وكم شهدنا بين الطبقة السفلي (بل بين الطبقة الوسطى نفسها وأعلي منها أيضًا) أبًا وأمًا يتشاجران أمام أولادهما، فيمثلان بذلك لأعينهم أقبح مثل؛ لأنه أي احترام يبقي في فؤاد الولد الصغير لأبيه إذا شتمته أمه أمامه، وأي وقار عنده لأمه إذا كان يرى أباه رافعًا يده عليها، وكيف يرجي أن يشب الولد علي احترام أبيه وأمه إذا كانا لا يحترمان

نفسيهما ولا يعرفان لذاتهما مقامًا؟. وإذا فقد الولد عاطفة الاحترام لأبيه وأمه فهل يصح أن تكون تربيتهما إياه حسنة بعد ما ثبت أن من أهم عوامل التربية سلطة الوالدين وخضوع البنين؟.

فمن الواجب إذًا أن ينظر الوالدين في أمر أنفسهم، ويحاذروا من أجل كل كلمة يقولونها، أو إشارة يأتون بها أمام أولادهم. ولو كان الوالدون عندنا يحرصون علي هذا الأمر لما كنا نرى في شوارع الإسكندرية، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، وحلب، وبغداد، وغيرها من مدائن الشرق وحواضره العربية زمر الأولاد والفتيات، بل فئات من الفتيان والنساء تتمثل أشكالا علي أيديهم وأناملهم.

وقد سمعنا مرة بآذاننا فتاة صغيرة من بائعات الفجل تنادي أختها الكبيرة بأقبح النداء، وأسفه النعوت، فزجرها بعض المارة، فكان معني جوابها: "وأي بأس في هذه النعوت والألقاب إذا كان أبي ينادي بها أمي وشقيقتي". فتأمل، ولا نفيض هنا في إيراد الأدلة والشواهد علي ضرر الأخذ بالطريقة التي تقدّم لنا ذكرها؛ لأننا لا نري حاجة إلي ذلك إلا إذا احتاج النهار إلى دليل.

ومع ذلك فإننا لا نجد بدًا من الإشارة إلى أمر هو في غاية الأهمية والخطارة، ونريد به ما هو مُشاهَد في كل يوم من إعجاب الوالدين والأقارب بكل كلمة خارجة عن حد الأدب تجري علي لسان الصغير، وضحكهم له حين يقولها، واستعادتهم إياه ليضحكوا له من أجلها ثانية.

ولا ينكرن علينا أحد هذه الملاحظة، فإن هذا العيب فاش بين كل طبقات الهيئة الاجتماعية في الشرق من الخاصة إلي السوقة، ومن القصر إلى الكوخ. ولقد حضرنا مرة –بل مرارًا– مجالس عائلة تقطعت فيها الساعات علي تعليم الابن الصغير كلمات الشتم لأبيه وأمه، وكان أبوه وأمه يعلمانه كلمات تلك

الحكم الباهرة، ويضحكان له فرحين بالبذاءة التي يتفوه بها دون أن يفهم لها معنى.

وحجة الوالدين في مثل هذه الحالة أن الولد صغير لا يفهم ولا يدرك، فليس في تلقينه مثل تلك العبارات بأس. وهم يجهلون أن الولد الصغير لا يبطيء أن يصير كبيرًا، والكلمات التي لم يكن بالأمس يدرك لها مغزى أصبحت تتمثل له في معانيها الحقيقية دون أن يجد صعوبة، أو انفه من التلفظ بها؛ لجريها علي لسانه قبل أن يدرك معناها.

وهكذا يربي الوالدون –أنفسهم– أبناءهم علي السفاهة، ويعودونهم علي القول الهراء وكلمات البذاء، وليس بين النقيصة في القول والنقيصة في الفعل حاجز حصين، بل ليس بينهما إلا مسافة فتر، لأن ما تكثر من ذكره يسهل عليك فعله، والإتيان به، فليتدبر الوالدون والمربون.

ومما تجب العناية به في تربية الأولاد في البيت: حملهم علي التزام جانب النظافة في كل أحوالهم، فإنك قلما ترى ولدا من أولاد العامة نظيف الوجه واليدين، نظيف الثياب والملابس، وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى علي أحد مما بيناه في الكلام علي التربية الصحية.

وكذلك تجب العناية بتعويد الأولاد علي النظام والترتيب في كل شيء؛ لأن النظام يقي الأشياء من الضياع، ويحفظ الوقت، ويسهل العمل. ولقد أتينا هنا علي ذكر الوقت، فمن الواجب أن يعلم الأولاد منذ صغرهم علي أن الوقت ثمين، فيجب الحرص علي عدم إضاعته فيما لا فائدة منه. وإذا تعلم الولد منذ صغر سنه أن الوقت ثمين أصبح ضنينا بساعاته، فلا يصرفها متى كبر في القهاوي والملاهي، حيث تفسد الأخلاق، وتضيع الصحة والعافية.

ولما كان الشيء بالشيء يذكر رأينا أن نوجه الأنظار إلى أمر كثير الحدوث في الشرق -وربما كان ذلك من جملة اقتباساتنا الغربية- وهو أنك تمر في بعض الأيام (ولاسيما في أيام البطالة والأعياد) أمام بعض القهاوي، فترى ابن الأربعين جالسًا يدخن، وإلى جانبه ابن العشرة أو ألاثنتي عشرة جالسًا علي كرسي يأكل قطعة من الحلوى، ويجول بنظره بين جلوس القهوة والمارة في الشوارع.

ولعمري كيف يأنف هذا الولد الصغير الذي تقوده بيدك يا ابن الأربعين إلى القهوة من الجلوس فيها، وقتل الوقت بين موائدها وكراسيها متى أصبح غلامًا كبيرًا.

ولسنا نقصد بهذا القول إلى أنه ينبغي منع الأولاد عن الخروج من منازلهم إلى المنتزهات مع آبائهم وإخوانهم، ولكننا نري أن للأولاد منتزهات خاصة بهم لا يجب أن تقوم مقامها القهوة، مع ما هو معروف من أضرارها وسوء عواقب الجلوس فيها.

ومن هذا القبيل سوق الأولاد وهم صغار إلى الملاعب في الليل، بدلا من أن يتركوا في البيوت فيناموا ويتخذوا لأجسامهم راحة تعوضهم ما فقده من قواهم البدنية والذهنية.

وعادة أخذ الأولاد إلى الملاعب حيث يقضون السهرة، فلا يعودون إلى البيت إلا بعد انتصاف الليل، آخذه في التفشي والسريان يومًا عن يوم، وهي من أشد العادات ضررا وأبعدها تأثيرًا علي مستقبل الأولاد.

وهذا وينبغي لنا أن نرى الولد علي عقائد دينه، ومذهبه، واحترام الأديان الأخرى، وعدم التعرض لما لا يعنيه، والإكباب علي البحث في المسائل المفيدة، وتخصيص وقت لكل شيء، وعدم تأخير ما يمكنه فعله اليوم إلى الغد، وإكرام

الضيف، واحترام الغريب، والجري علي مبدأ المساعدة والتكاتف والتروي قبل الكلام، والتبصر قبل الحكم، ومجانبة الحكم علي الظواهر.

وانزع الدعوى من رأس الولد، وعمله احتقار الكبر، والابتعاد عن الخيلاء (إذا أردت أن يكون سعيدًا)، وإياك أن يهفو الولد مرة فتقعد عن تأديبه بدعوى أنها المرة الأولي، فإذا عاد إليها أدبته، فإنه ينتقل بذلك من الهفوة الصغيرة إلى الغلطة الكبيرة، وربما رأيته بسبب إهمالك تأديبه من أجل هفوة لا تذكر واقعًا في الخطأ العظيم والجريمة الفظيعة.

ولقد طال بنا الكلام علي التربية في البيت، ونحن مع ذلك لم نستوف كل ما يجب أن يقال في هذا الموضوع الخطير الذي لو تعمدنا أن نفيه حقه من التدقيق لما كفاه هذا الكتاب برمته. فنحن إذًا نوجز الكلام واقفين منه عند هذا الحد، تاركين إدراك ما لم نشر إليه لفهم الآباء، وذكاء الأمهات، وفطنة المربين والمربيات.

الفصل الحادي عشر

التربية الطبيعية

لا نريد الخروج من هذا الموضوع خروجًا تامًا دون الإشارة إلى فصل جليل في موضوع التربية في البيت، نشرته جريدة الأهرام الغراء في عددها الصادر في يوم ٢٤ أيلول (سبتمبر) من عام ١٨٩٧م تحت عنوان "التربية الطبيعية"، وهو وإن يكن فيه تكرار لبعض ما تقدم لنا بيانه في الفصول السابقة، خليق بأن لا يخلو هذا الكتاب منه وهو:

"للإفرنج ولع في ترقية النوع الإنساني، ولكتابهم شغف شديد في البحث عن كل ما يرقى بهذا النوع إلى مدارج السعادة، فهم يتبعون الطفل من مهده حتى يدرج في لحده، وينقبون في جميع ما يتقلب عليه من الأطوار وما يعتوره فيها من موجبات النقد والإصلاح، تذرعا إلى بلوغ هذه الغاية التي يسعون وراءها: وهي سعادة الإنسان".

ولقد وقفنا في جريدة (البتي جورنال) علي فصل نشره أحد كبار كتاب الفرنسويين عنوانه (التربية الطبيعية) يريد بها تربية الأطفال علي نمط يكفل صحة أبدانهم، ويزيد في نمو عقولهم، وذلك بأن تنبذ تلك المصطلحات القديمة في تربية الطفل والغلام، ويستعاض عنها بما سيجيء في عرض كلام هذا الكاتب إيثارا لسلامة البدن، ووقاية العقل، فقد قيل أن العقل السليم في الجسم السليم.

وأن من أهم ما ورد في هذا الفصل الكلام عن الرضاع والقماط، ورياضة

الأحداث، وحالة الغلمان في المدارس. وقد جاء في الكلام عن الرضاع أنه يجب أن لا يتغذي الطفل إلا بلبن أمه، أو بلبن مرضع سليمة البدن، هذا إذا تعذر علي الأم الرضاعة، فإن لبن النساء أفيد للطفل، فلا يجب أن يتغذي بسواه إلى أن يتجاوز العام.

أما ألبان الحيوان فإنها تضر بالأطفال إضرارًا عظيمًا: منها عسر الهضم، والتورم، وقد ينتج عنها الكسح في بعض الصغار. وأما شد الأطفال بالقماط علي الطريقة المصطلح عليها اليوم فهو من أشد ما يمر بالطفل من الأخطار؛ إذ لا يجب أن تكون ثياب الطفل ضاغطة عليه إلا ضغطا يسيرا، وذلك فإن الضغط عليه يعد من أعظم عقوبات ذلك الطفل الصغير. ولأن يترك الطفل بغير قماط وبغير اعتناء بلباسه خير له من تقييد تمريناته الطبيعية الأولي.

وأما رياضة الأطفال فيجب أن تكون علي ما يتطلبه ضعفهم من الرفق، فلا يجب أن يحثوا علي السرعة في المسير، كما أنه لا يجب علي الطفل أن يدرج أو يعود المشي قبل أن يبلغ الشهر الخامس عشر من عمره؛ لأن قدميه لا تستطيعان حمل جسمه قبل ذلك الحين. وليعلم الآباء، والأمهات، وكل من تناط بهم تربية الأطفال: أن الطفل شديد التوق إلى الحركة، كثير الميل إلى المشي، يتطلبه بجزع، فيفرغ جهده وينال من ذلك أكثر مما يطلب منه، فلا يجب حثه علي المشي والحركة، ولا منعه عنهما. بل يجب أن يدعوه وشأنه ذهابًا مع العوامل الطبيعية. وأن الرياضة مفيدة له، وهو يسوء بها أضعاف سرور المربين الذين يصحبونه فيسير جيئة وذهابا بغير انقطاع، وأحب شيء لديه أن لا يوبخ علي ما يفعل، وأن لا يدعى إلى السرعة في المسير عندما يدعو إليها ضيق الأوقات، فإذا روعيت هذه القاعدة في رياضة الأطفال فقد نجح الطفل نجاحًا عظيما في الدور الأول من أدوار الحياة، فإنه بعد أن يقضي زمن الرضاع علي

الشرط الذي عيناه من الغذاء بلبن أمه، وعدم شده بالقماط، تقوي معدته، ويسهل هضمها، وتنمو أعضاؤه بأسرها نموا منتظما علي أتم ما يكون من التناسب. ويجب أن لا يحرم من الرياضة البدنية: كاللعب في المساحات النقية الهواء، والألعاب اليدوية، والمشي، وركوب الدراجات، وما شابهها متى نشط لها، فإن جميع ذلك مفيد له. أما مصيف الصغار فتستحسن الشواطئ البحرية لذوي الأمزجة الليمفاوية منهم، ولكنها تضر بالعصبيين، وقد تبين بعد الامتحان أن هواء الجبال أفيد لأكثر الصغار، وأن مصيفهم في الشواطئ يجب أن يكون بأمر الأطباء.

بقي علينا البحث عن حالة الغلمان في المدارس فنقول:

أن معاملة التلاميذ في المدارس علي ما نراه اليوم لا تنطبق في شيء علي القوانين الصحية، وقد آن لنا أن نَعلَم ونحن في أواخر القرن التاسع عشر أن سجن التلميذ اثنتي عشرة ساعة كل يوم ينصب فيها مكرهًا علي الدروس المملة المضجرة يعد من أقوي دلائل الهمجية. وأي فرق يوجد بين تلك المدارس وبين السجون المعدة للأشقياء غير أن السجين يحجر عليه ولا يعمل، والتلميذ يحجر عليه ويجهد بالعمل معًا، فإنه لا تكاد تزهق نفسه من درس حتى يبتلي بآخر، وهكذا دواليك إلى أن ينقضي النهار بين ما ذكرناه من إجهاد العقل وإزهاق الروح، وبين ما يصيبه من حسر النظر لكثره التحديق، وهي علة فشت بين أكثر التلامذة كما نشاهده كل يوم بالعَيَان؛ ذلك فضلا عما يتعرض له التلميذ من فساد الهواء لطول مدة اجتماع التلاميذ في غرفة واحدة، ولطول مدة إقامته في مقعد واحد.

وقد يكون هذا المقعد غير ملائم له، فتلتوي حركة الأعضاء وهي لينة في الأحداث، فتنمو علي اعوجاج، كما أثبته أحد الباحثين بتصوير أعضاء تلميذ

وهو جالس علي مقعده في المدرسة، وتصوير الأعضاء نفسها والتلميذ حر مطلق، فكانت في الصورة الأولي معوجة مضطربة. وفي الثانية علي أتم الاستواء.

ثم أن المعلمين يجهدون التلاميذ بالتمرينات البدنية بحجة تقوية الأعصاب، وقد فاتهم أن الأعصاب تابعة للرئة، فلا تسلم إلا بسلامتها، وكيف تسلم رئة الغلام وهو يقاسي ما ذكرناه من الإجهاد والنصب؟.

هذا بعض من كل مما نراه من الخلل في التربية المدرسية، وإننا لا نطيل الكلام في هذا البحث اجتزاء بما ذكر، وقياسا لما لم يذكر عليه، وإننا نختم الكلام بهذا القول: "وهو أن الغلام سيشب ويتجند، وان الجيش لا يستتب له النصر بالشجاعة والوطنية فقط، بل بالقوة الطبيعية أيضا"

ذلك كلام الجريدة الفرنسية التي تشكو من فساد التربية في أرض التربية، ومن سوء التعليم في بلاد العلم والمدنية، فإذا كان ذلك كلامهم فما عسانا نحن أن نقول؟

الفصل الثاني عشر

القوي النفسية في الأطفال

رأينا أن نردف هذا الفصل بفصل في القوي النفسية في الأطفال"نشرته مجلة البيان الغراء لرئيس إنشائها الأستاذ العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي"، وهو بما حواه من الدلالة علي نشأ الشعور والقوي النفسية في الأطفال، ومواعيد ظهورها ونمائها ينطبق انطباقًا تامًا علي موضوع الأبحاث التي نحن فيها؛ فلذلك آثرنا نقله برمته دون حذف منه، أو زيادة عليه وهو:

"لا شيء أحق بالإنسان وأليق به من معرفته حقيقية نفسه، ولا شيء أكثر امتناعًا عليه وأبعد عن مرأى بصره من إدراك ما وسعه هيكله من القوي العجيبة، والتراكيب الغريبة؛ ولذلك قالوا: الإنسان أشياء كثيرة، فلكثرة ما هو به يعجز عن إدراك شيء واحد مما هو به.

لا جرم أن هذا الهيكل العجيب والبناء البديع الذي هو آية الله في خلقه مؤلف من دقائق لا يحصيها العد، ولا يحيط بها الإدراك، كل منها يقوم بعمل خاص، ويستقل بحياة خاصة، وينفعل بالقوى الفاعلة في جميع الأجسام، وهذه الدقائق علي كثرتها، وتباين أشكالها، واختلاف أوضاعها، وتنوع العناصر المكونة هي منها تتضامّ فتتكون منها الأعضاء، وتتكافأ في القيام بما أرصدت له من المنافع التي تضمن لجملتها انتظام الأعمال الحيوية إلى الأجل الذي أتيح لها. فمعرفة الإنسان نفسه من حيث هو مركب علي كمال خلقه، وتمام خلقه لا تتهيأ الإحاطة بها لعاقل لما يقف دونها من العقبات المنيعة، ولاسيما في ما

اختص منها بالنفس الناطقة التي هامت العقول في أودية البحث عنها، والتطلع إلى غوامض أسرارها، فهي المشكلة المعضلة التي ما برح الطبيعيون، والفلاسفة، والمتكلمون يتجاذبون أطراف حلها، كل فريق علي نحو ما فتح عليه مقدار عمله وثقوب ذهنه.

لا جرم أن النفس البشرية مع ملازمتها لبدن الإنسان وحلولها فيه من ابتداء تكوينه إنما تعرف بالقوى التي تصدر عنها، والظواهر التي تُبديها، ونحن إنما نبحث عنها الآن بحثًا عمليًا في أبسط أحوالها منذ تجليها علي هذا الكائن الحي (وهو جنين في أحشاء أمه) إلى ما بعد ميلاده بثلاثة أشهر، مقتصرين في ذلك علي ما قل ودل من غير تعرض للمذاهب الفلسفية، والمغالطات الجدلية. إذًا ليس من غرضنا الجولان في فيافي الخيال، ولكننا إنما نؤثر تقرير الحقائق العملية الثابتة ببرهان المعاينة والامتحان.

ذهب أرسطو إلى أن النفس تظهر في الجنين بعد أربعين يوم من حمله، وعليه جمهور المتقدمين: ومنهم حكماء العرب، والقديس توما اللاهوتي[١].

ومن الثابت اليوم أن الجنين يتحرك في الأسبوع الثامن حركة رخوية، فيتخذ الحبل السري الشكل اللولبي، والدليل علي أن هذا الشكل من حركته أن الحبل المذكور لا يكون كذلك في الكثيرات من الأجنة في الحمل الواحد؛ إذ لا يبقى لأجنتها مجال للحركة، وربما تحرك حركة اختلاج وارتعاش منذ الأسبوع الرابع (وهو وقت تكون الأطراف). ولا تشعر الأم بارتكاض الجنين إلا منذ الأسبوع الثامن عشر (وهي حركة تزداد بمقدار نمائه حتى يولد)، وربما دلت علي

---

[١] زعم أرسطو أن الجنين يكون ذا نفس في اليوم الأربعين إذا كان ذكرًا, وفي اليوم الثمانين أو التسعين إذا كان أنثى, وتابعه في ذلك القديس توما اللاهوتي.

بعض المؤثرات الخارجية كالإحساس بالبرد. أما حقيقة هذه الحركات، وهل هي صادرة عن غير وجدان، أو هل يجوز أن تظهر قوى النفس قبل الولادة؟ فالباحثون في منافع الأعضاء علي أنها قسرية من حيث طبيعتها، منعكسة من حيث مصدرها، والمتكلمون يقولون أن الجنين يشعر باللذة والألم، ولا ريب في أن ذلك لا يكون إلا عن وجدان، فهو ذو نفس كاملة. ولا ينكر أن الوجدان موجود حينئذ في أبسط أحواله، وإنما هو أثري يأخذ في النماء منذ ذلك الحين، ولا يزال يزداد ويتكامل بعد الولادة حتى يصير الطفل قادرًا علي تمييز نفسه عن غيره من الكائنات. وعليه يكون مبدأ القوى النفسية الفعل العصبي المنعكس، حيث لا يكون للعقل والإرادة سلطان، ولو كان للحركة الصادرة عنه علة غائبة مقصودة. إذًا الانفعال لا يكون بدون فاعل.

ثم أن الجنين يولد لتمام حمله طفلاً لا قوام له في ذاته؛ لأنه لا يستطيع أن يستقل بنفسه متحركًا حركة يتوصل بها إلى جلب النافع ودفع الضار، وحواسه لا تعينه علي معرفة الموجودات مما حوله، فلا تتطرق بها المحسوسات إلى قوي النفس الباطنة وكأنه قد ألقى في تيار هذا العالم بين اضطراب أمواجه. وليس له من نفسه ما يساعده علي العوم فيه، فإذا لم ترأمه أمه يهلك. وأول ما يبديه عند الولادة استهلاله بصياح يدل علي تألمه لتغير البيئة عليه، وملامسة الهواء جلده، ونفوذه إلى مسالك التنفس حتى أقصى حويصلاتها، وتأثير أشعة النور علي شبكيته إلى غير ذلك مما لم يألفه من قبل. وكأن المولود يشعر لساعته من وحشة يجدها لفراق وطنه الذي كان فيه، أو كأنه يشكو ضعفه في تنازع البقاء ومغالبة الطبائع، وفي ذلك مجال يتفسح فيه القول للفلاسفة والشعراء بالحكم. وما أحسن قول ابن جريج الرومي وقد ذكر هذه الحالة وما تأول به من لطيف الحكمة:

لمـا تـؤذن الـدنيا بـه مـن صـروفها	يكـون بكـاء الطفـل سـاعة يوضـع
وإلا فمـــا يبكيـــه منهـــا وإنمـــا	لأفســح ممــا كــان فيــه وأوســع
إذا عــاين الــدنيا اســتهل كأنــه	بما سوف يلقى من أذاها يفـزع[٢]

ثم أنه يكون في بدائة هذا الطور من حياته قاصرًا همه علي الغذاء والنوم، فلا يظهر من آثار قوى النفس حينئذ إلا الأعمال التي يسميها علماء المنافع (بالمنعكسة)، والفلاسفة (بالقوي البهيمية، أو الشهوية)، عن أن حاسة اللمس تكون موجودة؛ لأن الجسيمات والألياف العصبية تتكون في الشهر الخامس من الحمل، وتنمو نماءً سريعًا، فيبلغ وزن الدماغ عند الولادة ٣٨١ غرامًا، وفي السنة الأولي بعد الولادة ٩٤٥ غرامًا، وتظهر تلافيف الدماغ في الجنين منذ الأسبوع العشرين، وتزداد غورًا وامتدادًا بتقدم العمر، ومنذ ذلك الوقت تتعين المراكز العصبية التي ترد إليها المؤثرات الخارجية، وتصدر عنها الحركات المتساوقة. ولذلك كان مبدأ القوى النفسية ورسمها ظاهرًا منذ الولادة لما هو معلوم من أن أعمال العقل لا تقوم إلا بالمجموع العصبي، فقول علماء المنافع أنها موقوفة علي حركة الدقائق العصبية غير سديد؛ لأن بين حركة الدقائق والوجدان بونًا سحيقًا.

ومعلوم أن الإنسان في مبدأ الفطرة خالٍ من تحقق الأشياء، إلا أنه مجهز بآلات يدرك بها كيفياتها بما بينهما من المناسبات والمباينات، فينتزع المعلومات الصادقة المحقة. وهذه الآلات هي الحواس الخمس التي تنقل المحسوسات إلى

---

[٢] وتروي هذه الأبيات بثلاث قواف غير هذه: قيل في الأولى منها يولد, وفي الثانية أرغد, وفي الثالثة يهدد, فيكون فيها علي هذا نوع التخيير المشهور عند أهل البديع.

الحس المشترك، فيعرضها علي القوى العقلية، حيث يقع الإدراك، والتمييز، والحكم، والإرادة، وتصدر الأفعال المحركة وغيرها.

ولكل من هذه القوى مقر خاص في الدماغ يتعين بعد الولادة؛ إذ لا سبيل قبلها للتأثر بالمحسوسات الخارجية، فقد ثبت أن الحيوانات التي تولد عميًا كالكلاب لا يتعين مقر القوة المحركة في قشرة أدمغتها إلا بعد أن تبصر بثلاثة أيام، فالحركات التي تبديها قبل ذلك إنما تكون منعكسة مصدرها النخاع المستطيل لا الدماغ؛ لأنها غير خاضعة للإرادة، خلافًا للحيوانات التي تولد مبصرة كالخنزير، والقنفذ، فإن حركاتها تكون إرادية صادرة عن مقر معين في الدماغ، ينشأ حين الولادة باقتضاء المنفعة المترتبة عليه كما هو الحال في الأعضاء التي يتوقف وجودها علي عمل تنفعل به؛ إذ تكون المنفعة هي العلة الفاعلة في التكوين. ولا ينكر أن للإرث شأنًا في ذلك، فإن العضو يتهيأ بواسطته للعمل قبل أن يقع علي الحيوان تأثير من الخارج.

واللمس هو أول الحواس منشأ وأعظمها للحيوان نفعًا، وكثير من الحيوانات السافلة ليس لها من الحواس غيره. على أنه يظهر في النوع الإنساني في الشهر الخامس من الحياة الجنينية، ويكون أثريًا غير منتظم إلى ما بعد الولادة بشهرين، فيصير حينئذ وسيلة لإدراك أول ما يتهيأ للأطفال إدراكه من المحسوسات الخارجية.

وينشأ الذوق علي أثر نشوء اللمس؛ لأن الحاجة ماسة إليه منذ الولادة، فإذا أدخلت حينئذ أصبع إلى فم المولود مصها كأنه يحاول الرضاع، ثم يتبرم من ذلك بعد أيام كأنه قد شعر بالفرق بين الوهم والحقيقة. وإذا أعطي لبن البقرة غير محلى بقليل من السكر مجه، وذلك دليل علي سرعة نماء هذه الحاسة فيه. وبعد قليل يظهر تعلقه بمرضعته، وإذا أتي عليه شهران منذ ولادته لم يعد يطيق

استبدالها. وليس الأمر كذلك من قبل، علي أن هذه الحماسة تجلب للطفل لذة لا تجلبها حاسة أخري في بدء أمره.

والشم إنما ينشأ بعد نشوء الذوق بمدة، فهو متم له؛ إذ يكون وسيلة لمعرفة الطفل بمرضعته بعد شهرين من ولادته وقد روي أنه كان لداروين طفل يستروح أمه عن بعد ٨٠ ميليمترا، فيحدق ببصره إليها، ويحرك شفتيه طلبًا للرضاع.

ومعلوم أن طفل الإنسان يولد غير مغمض العينين، فإذا عرض للنور عند ولادته انقبضت حدقتاه، وطرف بجفنيه وهو دليل علي تأثر الشبكية، ولكنه في الحقيقة لا يبصر؛ لأن مقر البصر في الدماغ لا يتعين حينئذ، وإنما يتعين بعد الممارسة، والتكرار، وألفة الأشياء المبصرة علي التدريج حتى تظهر قوة التنبه عند نهاية الشهر الأول بعد الولادة. ولا مراء في أن حاسة البصر هي رائد العقل في إدراك المحسوسات؛ لأنها الوسيلة لإدراك الأبعاد ومعرفة السطوح، ولا يتهيأ ذلك إلا في الشهر الثاني، وهي تشترك مع حاسة اللمس في تمهيد السبيل لمعرفة الطفل باستقلال جسده عن الأجسام حوله.

أما حاسة السمع فتظهر في الطفل بعد ثلاثة أيام من ولادته، بدليل أنه يصيح للمناغاة، ويثور جأشة بالصخب. علي أنها أقل نماء من حاسة البصر لاقتصارها علي معرفة الأصوات.

وهنالك قوي نفسانية أخرى تظهر في الأطفال منذ نشأتهم، مصدرها الفطرة، وغايتها المحافظة علي البقاء، وليس بالخلق، والسليقة، والغريزة، وسماها الشهوية والبهيمية التماس المنافع ودر المضار.

ومنها التنفس: وهو أول تباشير الحياة، يظهر حال الولادة؛ إذ يباشر

الهواء جسم الطفل. والنوم، ويترجح حدوثه قبل الولادة، فيعلل به عن الفترة في حركات الجنين، وهو لا يستوقف قوى النفس؛ لأن بعض الأطفال تظهر عليهم ابتسامة في النوم كأنهم يرون رؤىً مفرحة، وبعضهم يحركون شفاهم للرضاع، وأحيانا ترى المقلة تتحرك تحت الجفون الوسنى. والغالب علي الأطفال النوم كثيرًا ولاسيما في النهار حتى يبلغوا اليوم العشرين من ولادتهم، فيقل بالتدريج بعد ذلك. ومنها الخوف، وهو في الأطفال مسبب عن أمور لا يكترث لها غيرهم: كالقماط، والغسل. والبكاء وهو لا يكون إلا بعد نشوء الغدد الدمعية عقب الولادة بعشرين يومًا، وما كان قبل ذلك فهو صياح وصراخ. والابتسام وهو لا يكون قبل الشهر الأول. والضحك وهو لا يظهر إلا بعد نهاية الشهر الثاني إلى غير ذلك. والطفل يبقى في أول أطوار الحياة مدة تحت ملكة الأفعال العصبية المنعكسة، وأحكام الغريزة لا يدرك من حقيقته ما يعرف به ذاتيته، ولا يميز بين جسم وآخر، فعمل حواسه أثري، ووجدانه مفقود إلى أن يصير قادرًا علي تحقق بعد الأجسام، واختلاف سطوحها بواسطة البصر، وذلك لا يتأتى له إلا عند نهاية الشهر الثاني من ولادته. ويستدل عليه في الأسبوع السادس بعد الولادة بحركة إرادية تظهر بتوجيه الطفل رأسه نحو أمه إذا سمع صوتها، فيتعلم ثمة أن يوجه عينيه نحو الأشياء المرئية، ويمرن علي ذلك إلى أن يصير قادرًا علي تسديد بصره، فتظهر حينئذ علامات التنبه في بدء نشأته.

ويصاحب نماء حاسة البصر علي ما تقدم ارتقاء حاسة اللمس، فالطفل في بدء حياته يمسك الشيء الذي يوضع في راحته بدون وجدان، فانقباض يده حينئذ إنما هو فعل عصبي منعكس غير خاضع للإرادة، ثم يصير بتكرار التجربة والممارسة عملاً إراديًا يصاحبه نمو الحس العضلي، فتظهر الحركات العضلية المتساوقة.

ومتى بلغ الطفل الشهر الثالث من عمره قويت حواسه علي تحقق المحسوسات، وخضعت الأفعال العصبية المنعكسة لسلطان العقل والإرادة، وانفتحت له أبواب الهداية بما يعرض عليه من المؤثرات التي يستفيد منها العلم بما يكون نافعًا، أو ضارًا، فيألف النافع وينفر من الضار، ولا تزال القوى العقلية تنمو بالممارسة والاكتساب طورًا فطورًا، والاستعداد الطبيعي يمهد أمامها سبل الارتقاء حتى تبلغ الشأو العجيب. ومن الغريب أن الإنسان في بدء أمره ينسى كثيرًا من الحوادث والآثار التي ترد عليه، فلا يحفظ منها إلا ما كان مفيدًا في أمر تنازع البقاء، ولذلك كانت الذاكرة ضعيفة في أول العمر.

ومعلوم أن هذه القوي تكون في الحيوانات غريزية في أصل فطرتها: فالفراخ مثلا تلتقط الحب حالما تقف، وجراء الكلاب تمشي عندما، تولد والمهر يستوي علي قوائمه حينئذ، والقرد يتسلق الأشجار بخفة منذ ولادته، ولكن ذلك فيها يقف عند درجة القوة البهيمية، فلا يتعداها إلى القوي السامية المميزة للإنسان وهي التي تدخل تحت الإرادة والعقل، وتأخذ في النماء والارتقاء منذ أول أطوار حياته علي ما تقدم بيانه حتى تبلغ فيه إلى درجة الكمال.

الفصل الثالث عشر

العائلة

قال بعضهم لأحد الحكماء الأقدمين: أحب أن أرى الدنيا، فقال له: اتبعني أرك إياها في طرفة عين.

ولا تسل عن دهشة الرجل عندما رأي الفيلسوف يسير به إلى منزل جاره، وكان ذا امرأة، وبنين، فأومأ إلى تلك العائلة المجتمعة وقال: هذه يا بني هي الدنيا.

أجل أن هذه العائلة التي تتألف في الغالب من الأب، والأم، ومن سبعة، أو ثمانية بنين وبنات لهي الدنيا بأجمالها تتمثل في تلك الأسرة من الشيخ الهرم إلي الطفل الرضيع، ومن الرئيس إلي المرؤوس، ومن القوي إلى الضعيف، ومن العالم إلى الجاهل، ومن المعلم المرشد إلى المتعلم المستفيد، ومن القائد المحنك إلى المسترشد الساذج. وبالإجمال أنك إذا نظرت إلى الأسرة بعين التبصر والإمعان تجلت لك وهي الصغيرة المؤلفة من عشرة أشخاص، أو أقل في مظهر العالَمَ الكبير الذي تروح فيه وتجيئ مئات الملايين من الناس، وإذا كانت العائلة هي الدنيا فما أسمى مقامها وأرفع شأنها!، بل ما أسمى وظيفة رئيس تلك العائلة، وأعظم عهدته! فهو في رئاسة العائلة كمالك في رئاسة الشعب عليه مثل واجباته، وله مثل حقوقه في السلطة والاحترام.

وكما أن صاحب السلطان في الشعب مسئول عن تقدم الشعب ورفاهته، كذلك صاحب الرئاسة في العائلة مسئول عن ما قبل كل فرد من أفرادها.

ولقد قلنا في مفتتح هذا الفصل أن العائلة هي الدنيا، وبالتالي الجنس البشري بإجماله. ومثل هذا القول يقودنا طبعا إلى الحكم بأن الجنس البشري كله عائلة واحدة. ولسنا نجد حاجة إلى الإسهاب في هذا الموضوع والإكثار من هذا القول، فلقد تقدمنا من قاله قبلنا بأفصح قول، وأجلي بيان، وليس من ينكر أن الحكماء الأولين، والعقلاء المعاصرين، بل كل فيلسوف وباحث في شئون الهيئة الاجتماعية، بل كل نبي مرسل قالوا كلهم: أن الجنس البشري علي اختلاف مذاهبه، وألوانه، وعاداته عائلة كبيرة واحدة، يجب علي أعضائها أن يحب بعضهم بعضا، وينصر القوي منهم الضعيف، ويأخذ بيده ويشد أزره.

وقد قال علماء أوروبا أن الجنس البشري كله عائلة كبيرة يمد فيها الكبار أيديهم إلى الصغار ليرفعوهم إليهم. ولا يخفى ما في هذا القول من السداد والحكمة السامية، ومن الأدلة علي أن العائلة الصغيرة المتآلفة من الأب، والابن، والأم، والابنة إنما هي تمثل الجنس البشري الذي هو العائلة الكبيرة.

وإذا كانت العائلة الصغيرة صورة العائلة الكبيرة ومثالها كانت العناية بها بمثابة العناية بالجنس البشري كله دون استثناء. وعلي هذا القياس فلا بدع في أن يكون الاهتمام بأمرها في كل زمان ومكان موضوع نظر الفلاسفة، ومرشدي الشعوب، وقادتهم، حتى أننا رأينا حكماء الشعوب الوثنية أنفسهم يأمرون بالنظر في أمر العائلة نظرا دقيقا يكفل بسعادتها؛ ليكون هناؤها وسيلة الكمال للجنس البشري كله.

ومما يدلك علي اهتمام الأقدمين أنفسهم بهذا الأمر الخطير قول كنفوشيوس فيلسوف الهند وكبير حكمائها أنه: "لا سبيل إلى سياسة العائلة، وتدبيرها، وإدارة شئونها إدارة حسنة إلا بإعطائها المثل الصالح"

وهذا القول موجه طبعا إلى رؤساء العائلات وأرباب الأسر، وبالتالي على

الوالدين الذين في أيديهم زمام الأمر، وعلي تدبيرهم يتوقف مستقبل العائلة، بل مستقبل الشعب، بل الجنس البشري برمته.

وكم رأينا في الشرق رجالا أخذوا علي أنفسهم أن يكونوا رؤساء عائلات وبالتالي قادة الهيئة الاجتماعية ومديري شئونها، فأفسدوا بسيرتهم ما كان من أمرها صالحا، أو زادوها بسلوكهم اعوجاجا علي اعوجاج بدلا من أن يكونوا نبراسا يهدي ضوء إلى الكمال، ومنارا يهتدي بنوره إلى الصراط المستقيم.

ولو علم أمثال هؤلاء مقدار ما يجنون علي الدنيا، ومقدار ما يساعدون علي شقاء العالم لكانوا هم قضاة أنفسهم دون أن يقضي عليهم أحد. ولكن الإنسان موضع الضعف، بل هو موضع جهل نفسه، ورحم الله القائل:

ومـــن جهلـــت نفســـه قـــدره رأى غـــيره منـــه مـــا لا يـــرى

فلذلك ترى عائلات برمتها تشقى بجهل رئيسها، وتسير في طرق التعاسة بغباوة قائدها. بل لذلك ترى الشعوب التي لا تعرف قدر العائلة تنحط وتزداد في كل يوم انحطاطا.

هذا ولكل عائلة كما هو معروف رئيسان طبيعيان: هما الأب والأم، فنأخذن قليلا في الكلام عليهما جاهدين بقدر الاستطاعة في بيان وظيفتيهما، والطرق التي ينبغي لهما أن يتخذاها لأداء هاتين الوظيفتين الساميتين بما يجب من الأمانة فنقول:

أن الله تعالي لما خلق الإنسان وكونه جعله شريكين هما الأب والأم، نفرض عليهما بهذه الشركة فرضا يجب القيام به قياما تاما وفاء لحق تلك الشركة، واعترافا بنعمة الله. والفرض الكبير الذي نشير إليه هو أن فيما فعل الخلق العظيم بتربية الأولاد الذي يرزقانه تربية تقوده إلى السعادة في هذه الحياة الدنيا.

والسعادة كما لا يخفى علي أحد لا تنال إلا باستيفاء شرطين طبيعيين: أولهما سلامة البدن، وثانيهما سلامة الذهن. فوظيفة الوالدين إذًا هي أن يساعدوا الطبيعة في عملها ليصبح الولد الصغير بعنايتهم رجلاً قويا في جسمه، وعقله، قادرا علي تحمل مشاق الحياة وحل مشاكلها.

ولقد تقدم لنا في باب التربية الصحية كلام على الوالدين الذين لا يعرفون شيئا من مبادئ هذه التربية الخطيرة، بل هم لا يعرفون كيف يحافظون علي صحتهم قبل العناية بسلامة أولادهم، فلسنا بعائدين إلى البحث في ذلك الموضوع، ولكننا نود أن نفسح هنا المجال لملاحظة ربما لم يذهب إيرادها في هذا المكان عبثًا: وهي أن الأب والأم لما اقتربا بعقد الزواج تعاهدا سواء بالتضمين، أو بالتصريح علي أن يقوما علي تربية من يولد لهما من الأولاد قياما حسنا كافلا بأن يبلغ بهم إلى تمام السعادة والهناء في الوجهين المادي والأدبي. ولا يمكنهما من الوفاء بما ضمناه إلا معرفتهما بأساليب التربية البدنية والذهنية معا، وهو أمر متيسر إلا للذين لا يعرفون أهمية الزواج، وسمو منزلته، وخطارة الواجبات العائلية والفروض الأبوية.

ونحن إذا أجملنا الكلام علي أهل الشرق يباح لنا القول أنه ليس بيننا من يحسن القيام بواجب التربية المقدسة قياما يكفل له الوفاء بما ضمنه يوم عقد زواجه.

ولسنا ندّعي أنه لا يوجد بين الوالدين والعائلات عندنا من يحسن الاقتداء بهم، ويجدر اتخاذهم مثلا في التربية العامة. علي أن أولئك هم النادرون عندنا، والنادر لا حكم له، وليس هو من موضع نظرنا في شيء، وإنما نحن نتكلم بالإجمال.

والعجيب من أمر العرب الأقدمين، والمحدثين السالفين والمعاصرين أنهم لم

يتركوا معنى إلا طرقوه، ولا موضوعا إلا أكثروا من الكلام عليه وتأليف المصنفات فيه، ما عاد أقرب الأمور إليهم، وألصق المواضيع بهم، ونريد بذلك التربية العامة بوجه الإجمال، والتربية العائلية بنوع التخصيص، كأن الفريقين جميعا كأنهم أعزابا، أو كأنهم يكتبون لتعليم الاعزاب فقط، مع افتراضهم بقاءهم أعزابا حياتهم بطولها، فأهملوا أمر تعليم الوالدين من آباء وأمهات فن تربية الأولاد إهمالا تاما، بحيث لا يرى في كتبهم شيء من هذا القبيل علي أهميته وشدة الحاجة إليه.

وأول ما يؤاخذ عليه الوالدون عندنا جهلهم أبسط قوانين التربية والمبادئ الصحية، فتراهم إذا شب لهم ولد علي فساد، أو علي مرض قالوا أنها مصيبة ابتلاهم بها الله. في حين أنهم إذا نظروا إلى ذلك من قريب أدركوا أن تلك المصيبة قد جلبوها هم علي أنفسهم، وذلك لجهلهم المبادئ الأولية المتعلقة بالصحة والذهنية، أو لإهمالهم إياها، وتقاعدهم عن القيام بها، فما جنى أحد عليهم، بل علي نفسها جنت براقش.

ولقد سبق لنا القول في الأسطر السابقة من هذا الفصل، بل في أماكن عديدة من هذا الكتاب: أن التربية تنقسم إلى قسمين: هما التربية البدنية، والتربية الذهنية. ومعلوم أن التربية البدنية مقدمة علي التربية الذهنية؛ لأنها ينبغي أن تبدأ مع الجنين وهو في بطن أمه، في حين أن التربية الذهنية لا سبيل إلى الأخذ فيها قبل أن يترعرع الولد في مهده.

وقولنا أن التربية البدنية ينبغي أن يُشرع فيها والولد جنين في بطن حامله ليس من قبيل الغلو والمبالغة، بل هو من قبيل الحقائق التي يجب أن ترسخ في عقول الوالدين، بل في عقول الأمهات بنوع خاص؛ لأن للمعيشة التي تجري عليها المرأة وهي حامل تأثيرا عظيما في بنية الطفل الذي يتغذي وهو في

أحشائها بالدم الذي تكتسبه، سواء بما تقتات به من المأكل والمشارب، أو بما تستنشقه من الهواء. وكثيرا ما يحدث أن الولد يكون ضئيلا، كثير الأمراض، فإذا بحثت عن السبب فيما يقاسيه من الضعف والعلة وجدت سبب ذلك كله ما كان عليه ابوه قبل حمل أمه به، أو ما كانت عليه أمه وهي حامل به. وليس في استطاعتنا أن نوضح هذا القول ببيان أجلى من هذا البيان، فيقرأ الوالدون فيما بين السطور، واللبيب تكفيه الإشارة.

ثم أن كثيرين من الأزواج يرزقون البنين والبنات، فيتركونهم للطبيعة تنمي أجسادهم، وتقوي أبدانهم علي غير عناية منهم ولا نظر. في حين أن الطفل في أول أيامه أحوج إلى المدارة والوقاية منه بعد ذلك؛ لأنه كضوء الشمعة في ضعفه، وكما أن الشمعة تطفئ ضوءها نسمة السحر، كذلك الطفل الصغير يؤثر فيه كل طارئ من العوارض بين جوية وغير جوية؛ ولذلك كان ينبغي للوالدين أن يحيطوا الطفل الصغير بسياج من الوقاية والتدابير الصحية يكون له بمثابة الزجاجة التي تحيط بنور المصباح، فتمنع عنه الهواء، وتبقيه متقدا مضيئا.

ذلك بعض ما يتعلق بالأمور الصحية في العائلة، وبقي من المسائل العائلية أمران خطيران ونريد بهما: التربية الذهنية، والتربية الأدبية في البيت.

أما التربية الذهنية فقد مر بشأنها في الفصول السابقة كلام مستفيض، بينما فيه الخطة التي يجب علي الوالدين والمربين أن يتبعوها مع الأولاد لترهيف أذهانهم، وتثقيف عقولهم، ومع ذلك فلسنا نرى بدًا من الوقوف هنا ولو قليلا عند هذا الموضوع الخطير؛ للإلمام علي إيجاز واختصار بما لم نشر إليه فيما تقدم لنأمن الكلام في هذا المعنى.

وأول ما نطلق في ميدانه عنان القلم أمر لاحظناه ونبهنا إليه فيما كنا ننشره عن موضوع التربية في جرائد البلاد ومجلاتها: وهو أن الأمهات والمربيات

بنوع خاص يربين الولد علي الجبن والخوف، فيكبر هيابا وجلا، خاضعا لسلطان الوساوس والتخيلات الوهمية، وذلك أنهن يبادرن لأقل حركة يأتي الولد بها إلى تخويفه بالغول، والضبع، وبكل "بعبع" له في هذا الكون وجود، أو لا وجود له. وحجتهن في ذلك أن الولد لا يسكت ولا يسكن إلا بالتخويف والإرهاب، وهي حجة واهية ودعوي ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو عملت الأم أو المربية أنها تزرع بذلك بذار الجبن والإحجام في قلب ولدها، وتعد له قيا يمنعه الإقدام في المستقبل، ويكون عاملا علي غل يديه عن السعي؛ إذ أنه يفقده الجرأة اللازمة للنجاح، لعدلت عن هذه الخطة المذمومة، وعملت علي بث عواطف الجرأة، والشجاعة، والأقدام، والحماسة في فؤاد هذا الطفل الرضيع الذي عهد به إلى عنايتها؛ لتجعل منه رجل العمل والإقدام.

وقد عرفنا شبانا ورجالا لا يجسرون علي التماس غرض، ولا يقدمون علي ارتياد مصلحة أو طلب حاجة، وهم مع ذلك علي علم ومعرفة، فتراهم إذا كانت لهم حاجة لا يخطون نحوها خطوة، بل ينتظرون أن تأتي هي من نفسها إليهم، أو أن يسعى فيها لهم نسيب، أو صديق.

بل شهدنا رجالا عديدين تسنح لهم الفرصة، وتعرض لهم الحاجة، فلا يعرفون أن يمدوا إليها يدا. يمنعهم الخجل، والجبن، والخوف عن اغتنامها، لا بل عندنا كثيرون تضيع حقوقهم المقدسة الثابتة لجبنهم عن المطالبة بها.

وإذا نظرنا ولو قليلا إلى الخطة التي تتبعها العائلات مع أولادها وهم في سن الصغر؛ إذ يؤثر أقل شيء في عقولهم تأثيرا يظهر فعله في كل أطوار حياتهم، حتى يدرجوا في الأكفان، ويغيبوا في ظلمات اللحد، نجد في جملة ما يطمسون به علي أذهانهم طبع الخرافات في عقولهم، والاعتقاد بالأوهام التي تحول دون التفقه، وإرهاف الأذهان، واستنارة العقول.

ولقد رأينا كثيرين استولت عليهم الخرافات والأوهام في صغرهم، فكبروا علي عقائد ما أنزل الله بها من سلطان ولا رضى بها عقل في زمن من الأزمان.

وكثيرا ما تكون الخرافات سببا في خراب البيوت العامرة؛ إذ تسهل باستيلائها علي العقول سبيل التدجيل والمخرقة، فيسير أصحابها بأولئك الذين خيمت الخرافات علي عقولهم إلى هاوية الخراب ولجة الفقر. ولولا تهامل الوالدين وإهمالهم هذا الأمر الخطير منذ صغر أولادهم لما وجد المخرقون، والمشعوذون، والدجالون سبيلا إلى الاحتيال وخراب بيوت العباد. ولم يكن يوجد من يبيع بيته. ورياش منزله. وحلي أمه وامرأته لينفق ثمن ذلك كله في التفتيش عن كنز. والتنقيب عن لقيه، ولكن سوء طالع الشرق قضى عليه أن يكون مهد الخرافات، ومنبع الأوهام والأضاليل، وأن لا يقف هذا الداء الوبيل عند حد، بل أن يتفشي في كل أحوالنا متنقلا من الدين، إلى العلم، إلى العادة، إلى ما لا نهاية له من أمورنا وشئوننا.

ومن يصدق أنه لا يزال في بلادنا من يعتقد "بولاية" المجنون، ومن ينذر النذور لشجرة ويوقد عندها المصباح علي اعتقاد أن روح ولي من الأولياء تأوى إليها.

فقد حدث لنا مرة أننا ذهبنا في الرمل إلى منزل في محطة صفر، وكانت علي مدخل المكان شجرة قديمة جرداء، وقد اجتمع حولها ثلاث نساء من المصريات وهن جالسات جلسة الملتمس المستعطي. فنظرنا إلى الشجرة، فإذا الشرائط الحمراء، والخضراء، والصفراء وسواها من كل لون مدلاه منها كألوان قوس السحاب، وعند جذع الشجرة مصباحان أو ثلاثة مصابيح موقدة، فحرنا في الأمر، ولما سألنا لم ينقص العلم بسبب تلك الحالة من حيرتنا، ولم يقلل من دهشتنا؛ إذ قيل لنا أن تلك الشجرة "ولي"، أو هي مأوي لروح ولي، وأن

الرجال والنساء يقدمون بالهدايا والنذور لذلك الولي فتأمل.

ونحن لا نتعمد الدلالة هنا علي كل خرافة من هذا القبيل، فلذلك لسنا نزيد علي ما ذكرناه، ولو شئنا إيراد كل ما سمعنا به أو شهدناه بأعيننا وتحققنا بأنفسنا لضاق بنا مجال هذا الكتاب برمته. وإنما أشرنا إلى ما أشرنا إليه عرضا ليقاس علي ما ذكر ما لم يذكر.

والغريب من أمر الخرافات في الشرق سواء ما كان منها متعلقا بالعقائد الدينية مما هو منافٍ للدين منافاة تامة، أو ما كان منها عائدا إلى العلم مما يخالف الأصول العلمية المقررة، وينقضها من أساسها، بحيث يكون معها علي طرفي نقيض أنك لا تجد من كتابنا من يعني بإظهار فسادها، ويجري قلمه في بيان مضارها، وتعليم العامة نبذها وطرحها ظهريا.

بل أنك قلما تجد في الخاصة أنفسهم من يضحك مستهزئا من خرافة تذكر لديه، أو وهم يُعمل به أمامه. ولعمر الحق أننا لا ندري مثلا لماذا لا تُنَبه العامة عندنا إلى أن الحوت لا يأكل القمر؟، وأن القمر عند ما يخسف تكون الأرض قد توسطت بينه وبين الشمس فمنعت نورها أن يصل إليه؛ إذ أن القمر يستمد نوره من الشمس، فمتى حجبته الأرض عنها أظلم، فلا دخل إذًا للحوت في المسألة، ولا القرع علي الصفائح يجدي.

علي أننا بدلًا من ذلك ترانا نشارك العامة بخرافاتها وأوهامها، حتى أنك لتجد مجالس بعض الخواص، والكبراء، والأغنياء مجمعا لمرض الخرافات، ومجالا لبيان الأضاليل والأوهام. فإذا حضرها الولد، وابن العامة استولت الخرافات علي عقله؛ لأن الولد الصغير يتعلم ممن هو أكبر منه، وابن العامة والسوقة يتشبه ويقتدي في كل شيء بمن هم أرقى منه، حتى أنه ليفكر مثلهم، ويعتقد اعتقادهم، وكيف لا يحزن كل من يحب وطنه وشعبه حبا أكيدا ويغار علي هذا

الشرق غيرة حقيقية عندما يري الأوروبيين مشتغلين في ساعات الخسوف والكسوف برصد الأفلاك لاكتشاف المُخبّأت ويرى صغارهم (حتى أولاد العامة والسوقة منهم) يرصدون علي سبيل التقليد، ناظرين إلى القمر المخسوف من وراء زجاجة سودوها بالدخان، ثم ينظر إلى الأحياء الوطنية في الشرق فلا يرى غير حملة الصفائح، ولا يسمع غير قرعها، والأولاد يقفزون ويصيحون كأنما قد قامت القيامة كل ذلك "إرهابا للحوت الذي ابتلع القمر".

بل كيف نرجو أن تصلح أمورنا، وتزول الأوهام والخزعبلات المتسلطة علي عقولنا وقلوبنا إذا كنا نرى الكتبة، وطلبة العلم الشريف عندنا لا يأنفون من نقل الخرافات في كتبهم دون دحضها وتفنيدها، أو علي الأقل الدلالة علي أنها خرافة تنافي العلم الحقيقي، والمعارف العصرية.

أو لم نقرأ في كتاب لأحد شيوخ العلم في القِطر: وهو شاب من الشعراء الأدباء الأذكياء. أن في غياب الشمس أقوالا جمة: منها أنها تتوارى في البحار، ومنها أنها تدخل جوف حوت فيبتلعها ويتم في الليل هضمها فتبرز في الصباح؟

فإذا كان الشيخ الشاعر الأديب الذي قرأ العلم في الأزهر الشريف ينقل مثل هذه الروايات دون الإشارة إلى فسادها، فهل يلام العامي إذا صدقها، واعتقد بها، وهي مروية له عن لسان شيخ من طلبة العلم الذين يعتقد بأنهم فوقه بدرجات، وأنهم أبعد منه معرفة، وأصح اعتقادا وعلما، بل أنهم معصومون عن الخطأ في مثل هذه العلوم؟

وأنها لجريمة أن يكون رؤساء العائلة وقادتها أول حائل دون تربية الذهن، وشحذه، وإرهافه، وذلك بطبعهم العقائد الخرافية، والخزعبلات الوهمية في عقول الأولاد.

وقد قرأنا في بعض كتب التربية لأحد مشاهير كُتّاب فرنسا كلاما عربه بعضهم بما خلاصته: "أن تربية الذهن إنما هي إعانة الطبيعة علي إرهافه وشحذه، وإن ذلك لا يكون كيفما جرى واتفق، بل بمقتضى نواميس طبيعية لا يجوز للأبوين أن يجهلا مبادئها، ولا أن يحيدا عن طريقها. وكل والد يجهلها، وكل أم تحيد عن طريقها لا يصلحان لإعانة الطبيعة علي إتمام فعلها، بل هما عدوان لها يعملان علي إحباط عملها. والولد أول ما يتخرج ذهنه يتخرج بما يعيه شيئا فشيئا من تلقاء نفسه، وتتنبه له فطنته عفوا من الخواطر البسيطة، والمعاني المفردة، حتى إذا اجتمعت له طائفة متجانسة منها في شيء بعينه تذرع بها إلى معرفة ذلك الشيء بمقدار ما يستطيع. فمن واجبات أبويه إذًا أن يسهلا لذهنه تحصيل تلك الخواطر والمعاني، وذلك بأن يعدا له يوما فيوما من الأشياء والأمور التي تقع تحت حواسه ما تتنبه له فطنته، ويفهم بعض أمره بسهوله، حتى إذا أدرك شيئا من كنهه بالخبرة، والمعاينة، والملابسة بنفسه انتقش معناه في لوح ذهنه"

ومن ذلك يتحصل أن الأمور التي تعرض للولد في صغره، والعبارات التي تطرق أذنيه في نعومه أظفاره تنقش علي لوح صدره. وقد قيل العلم في الصغر كالنقش في الحجر، فلذلك يجب أن يعني الوالدون، والمربون بإنارة عقل الولد، وانتزاع الخرافات والأوهام من ضميره. ولسنا نطيل الكلام فوق ما أطلناه في هذا الموضوع، وإن كان هو في حد نفسه يحتمل التطويل، علي أننا مع التماسنا طريق الإيجاز، وشدة رغبتنا في الاقتضاب، لا نرى بدًا من التنبيه قبل الخروج من هذا الموضوع إلى مسألة قليلة الأهمية في ظاهرها، بعيدة التأثير في حقيقة أمرها، وهي مسألة مراضع المربيات، والخدم في العائلات.

وغني عن البيان أن المربين إنما يعطون مما عندهم، ويبثون في الأولاد

أخلاقهم، وآدابهم، وعاداتهم، وتصوراتهم، ويعلمونهم مبادئهم وعقائدهم، وبالتالي إنهم ينفخون فيهم من أرواحهم، ولو استطاعوا لأعادوا خلقتهم وولادتهم ليجدوهم علي صدورهم وأمثلتهم. فمن الخرق في الرأي أن يترك الاهتمام بأمر المربي والمربية، وتهمل العناية بحسن اختيارهما، والقيام علي مراقبتهما، والنظر في أمر سلوكهما.

وكثيرًا ما كانت هذه المسألة سببا في ضياع تربية الأولاد لقيامها منذ البدء علي غير أساس متين. وعندنا أنه خير للأب أن يقوم هو بنفسه، وأفضل للأم أن تعمل هي بيدها علي تربية الابن والابنة اللذين رزقهما الله تعالى من أن يوكلا هذا الأمر الخطير إلى من لا يعرف أن يقوم به، أو إلى من يستصغر مهمته فيه، ويلطخ ذمته بوصمة إهماله وعار التقصير في شأنه.

ذلك فيما يختص بالمربين والمربيات الذين سيأتي الكلام عنهم بالتفصيل في موضعه من هذا الكتاب. أما المراضع والخدم فليس أمرهم بأقل أهمية من أولئك، وكثيرا ما يحدث أن يكبر الطفل ضئيلا نحيف البنية كثير العلل بسبب مرضعة، وأن يشب دنيء النفس غير أبيهًا، طويل اليد، بذيء اللسان، قليل المحاسبة لنفسه، والاحترام لوالديه، والوقار لمن هو أكبر منه. شرها، نهما، كارها للنظافة والترتيب إلى غير ذلك من المعايب والنقائض، ويكون السبب في ذلك كله خادم البيت، أو خادمته اللذين لا يعرفان لجهلهما مقدار ما يؤثر المثل في الأطفال، ومقدار ما تفعل الكلمة الواحدة التي يلفظ بها أمام الأولاد.

ولذلك قلنا في أحد الفصول التقدمة أنه ينبغي التأمل في كل كلمة تقال أمام الأولاد، والنظر في عواقب كل لفظة يتلفظ بها أمامهم، ولاسيما في مجامع العائلة، ومجالس الأسرة، حيث تكون كلمة الأب قاعدة يجري عليها بلا شواذ، وإشارة الأم خطة تتبع بلا استثناء، وفعلة الكبير مثلا للصغير، يتبعه ويجري عليه

بلا مراء، ولا جدال.

ولقد أطللنا في هذا الموضوع حتى أننا لنخشي ملل القارئ لولا ما نعلمه من شرف القصد الذي نقصده، وسمو الغاية والتي نرمي إليه: وهي تربية هذا الولد الصغير حتى يصبح رجلا جامعا للكمالات التي تؤهله للسعادة والهناء، ولما كانت السعادة لا تكون كاملة شاملة إلا متى قام المرء بواجبه قياما تاما، ووفى الغرض الذي يطلب منه من كل وجوهه، كان أول ما ينبغي للعائلة أن تعرفه: هو أن سعادة الولد موقوفة علي التربية التي تمنحه إياها ليقوم فيما بعد بما يفرض علي الرجال ويكون سعيدًا.

وأي أب، وأم لا يريدان أن يبلغ أولادهما أوج السعادة، وأعلي قمم الهناء؟ ولكن الوالدين لسوء الحظ يريدون السعادة لأولادهم، ولكنهم لا يعرفون كيف يعدون لهم أسبابها.

ولذلك كان يجب علي رؤساء العائلة أن يعلموا أن السهر علي تربية أولادهم عهد اتخذوه علي أنفسهم يوم شرعوا بإنشاء هذه العائلة التي هم رؤساؤها. وأن أولادهم إذا وجدوا التعاسة بدلا من السعادة التي إنما خلقوا لأجلها فالذنب في ذلك عليهم دون سواهم لأنهم لم يحسنوا القيام بما يطلب منهم.

أما الوجه الأدبي في الكلام علي العائلة فقد رأينا أن نفرد له فصلا برمته؛ لنتمكن من أن نفي هذا الموضوع الخطير حقه من البحث، والتنقيب، والدلالة علي مواضع الخلل، والتماس وجوه الإصلاح، والله الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الرابع عشر

كيف ينبغي أن تكون العائلة

لم يكن في النية أن نجعل هذه العبارة عنوانا لهذا الفصل بل، كنا قد جعلنا له عنوانا آخر وسميناه "الآداب العائلية"، ثم عرض لنا حديث مع سيدة إنجليزية جاءت القطر منذ أربع سنوات، وأقامت تشتغل فيه بالتربية والتعليم، متنقلة من عائلة إلى عائلة، ومن بيت إلى بيت بين الأجانب والوطنيين؛ أي بين الغربيين والشرقيين، وبالتالي بين المسلمين، والمسيحيين، والإسرائيليين، فدار الحديث بينا علي التربية العامة، والفرق بين التربية في بلادنا والتربية في بلاد الإفرنج. فكان من جملة ما حزنت لسماعه منها قولها: "أن التربية في الشرق لا تستحق أن تسمى تربية"، وقولها: "أن الآداب العائلية عندكم لا وجود لها علي الإطلاق، بل أن العائلة تكاد عندكم اسمًا لغير مسمى"

ذلك ما سمعناه من فم امرأة غربية دخلت بيوتنا، وجلست في منازلنا، وخالطت عائلاتنا، فاختبرت تربية أولادنا، وأمعنت في النظر إلى كيفية معيشتنا، فحكمت بعد الاختبار والتروي أن "تربيتنا فاسدة، وأن الآداب العائلية معدومة عندنا، وأن العائلة نفسها تكاد اسما لغير مسمى" وما أمره حكم علي قلوب الشرقيين، بل ليت بني الشرق يتخذون مثل هذا الحكم عبرة يعتبرون بها، وقد قيل العاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر، فكيف لا نعتبر ونحن إنما نراها بأنفسنا؟

ومن وجه آخر فقد درسنا نحن بأنفسنا هيئة الاجتماع عندنا أياما عديدة،

وسنين طويلة، فلم يتضح لنا منها ولم يبد لنا من خططها ما يسهل لنا دفع تلك التهمة، ومحو تلك الوصمة، بل رأينا التقصير في تربية الشعب وإهمال السعي في إيجاد العائلة الحقيقية ألصق بنا من ظلنا الذي كلما هربنا منه وجدناه معنا كيفما التفتنا.

ولذلك رأينا بعد إعمال الرؤية أن نجعل لهذا الفصل عنوانا خاصا يدل علي مضمونه، ويشير بجلاء إلى القصد منه، فسميناه كما رأيت في عنوانه "كيف ينبغي أن تكون العائلة؟" وجل ما نرجوه أن لا يجد مواطنونا في هذه التسمية وما سيأتي من الكلام في سياق هذا الفصل ما يجوز لهم، أو ما يجوزون معه لأنفسهم أن يرمونا من أجله بسوء القصد، أو يتهمونا بالتحامل. فإنما القصد الذي نقصده صالح، والنية بحمد الله حسنة، وإنما الأعمال بالنيات، وبحسب نياتكم ترزقون.

ذلك ما رأينا أن نذكره في مفتتح هذا الباب توطئه وتمهيدا لما سيأتي من الأقوال التي ربما ساء بعضهم الاطلاع عليها: إما لعدم فهمهم حقيقة معناها، وإما لحملهم إياها علي محمل الذم والتنديد، غير ناظرين إلى القصد الحقيقي من الإشارة إلى كل ما نشير إليه: وهو الدلالة علي موضع الخلل لالتماس وجوه الإصلاح.

ومعلوم أن الأمة تتألف من مجتمع عائلات، وأن العائلة تتألف من مجتمع أفراد. فالفرد الواحد إذًا مثال العائلة إلا فيما شذ، والعائلة الواحدة مرآة الشعب، وصورة الأمة إلا فيما ندر.

وعلي هذا المبدأ الذي لا يناقض ولا يمارى فيه يكون الذين يحكمون علي أممنا العربية، وشعوبنا الشرقية بالتقهقر، والانحطاط قياسا علي أحوال العائلات عندنا، مصيبين في حكمهم تمام الإصابة. لأنك إذا نظرت إلى العائلة عندنا نظر

المتأمل البصير الذي لا يقف عند حد الظواهر، ولا يقنع بقولهم أن تكون "تجد أن العائلة الفلانية ليحكم بوجود العائلة في الشرق" كما ينبغي أن تكون" تجد أن العائلة عندنا إنما هي شبه العائلة الحقيقية لا هي بتمامها"

وبيان ذلك أن العائلة عندنا إنما هي عبارة عن رجل تزوج فأصبح ذا بيت يأوي إليه –وكان قبل ذلك يأوى إلى بيت أبيه– وامرأة تستقبله حين مجيئه إلى البيت –أو لا تستقبله علي حد سواء– علي شرط أن تدبر منزله، وتهيئ طعامه –وسواء كان ذلك بهمتها، أو بعناية الخدم– وذا بنين وبنات يحبهم ويحبونه – أولا يحبهم ولا يحبونه– فذلك ليس بالأمر المهم.

ذلك من جهة الرجل، أما من جهة المرأة فيكفي في نظرها أنها تزوجت. وأما الأولاد فمساكين لا يعرفون ما هي الدنيا، ولا يفهمون ما هي العائلة، وعلي ما يرون يشبون ويكبرون، فإذا جاء دورهم وتزوجوا ألفوا العائلة علي حسب النظام الذي عرفوه في صغرهم، والهيئة التي طبعت عليها طباعهم.

وليسوا لعمرك بملومين، ولا هم يؤاخذون، فإنما نعطي الذي أعطيناه، وما كلف الله نفسا غير ما وسعت.

ولرب قائل يقول أن أرباب الأسر ورؤساء العائلات الآن غير ملومين علي هذا القياس، ولا هم مؤخوذون بتقصيرهم؛ لأنهم هكذا كبروا، وكما رباهم آباؤهم هم يربون أولادهم، وكما كانت عائلات آبائهم هم يؤلفون عائلاتهم، ولسان حالهم ينشد إنما نعطي الذي أُعطينا.

نعم هكذا ربى أجدادنا رؤساء عائلاتنا، ولمعذورون هم لولا أنه لم يبق في عصر النور الذي نحن فيه، وعهد التربية الحقيقية والعلم الصحيح الذي وصلنا إليه عذر لمقصر، ولا حجة لجاهل مهمل. فالمثل أمامنا، والعبرة نصب أعيننا،

وقد اختلط بنا الأجانب حتى صار بعضهم كأنهم منا. فلماذا نتشبه بهم في كل ما يجلب الضرر علينا، وعلي هيئتنا الاجتماعية، وآدابنا الشرقية، ولا نأخذ عنهم الكمالات العائلية وطرق التربية الصحيحة النافعة التي تؤهل الأفراد لتأليف العائلة والعائلات لتأليف الأمة العظيمة القوية؟.

ونحن في وسعنا أن نجاريهم، ولكن استمساكنا بكل سيء من التقاليد القديمة، وتشبثنا بكل ضار من العادات السابقة يحولان بيننا وبين الإصلاح في أحوالنا كلها، حتى في شئوننا العائلية، ومعيشتنا البيتية نفسها. ورحم الله القائل:

ولم أر في عيـــوب النـــاس عيبـــا   كـــنقص القـــادرين علـــي التمـــام

ولعمري أنك إذا شئت أن تعرف كيف لا ينبغي أن تكون العائلة، أو كيف لا يليق أن تكون المعيشة البيتية؟ فأدر عينيك في الشرق، ووجه نحو مصر نظرا خاصا يتمثل لك ما نسميه هنا بالخلل العيلي في أشنع هيئاته، ويبدو لك فساد التربية العائلية في أقبح صورة، فإنك لا تجد بين الخاصة والعامة معا إلا ما ندر من نموذج العائلة الحقيقية المتآلفة من أب وأم يدركان سمو مهمتهما إدراكا تاما، وأولاد يعرفون المبادئ العائلية.

ولا ينكر علينا أحد أن هذه العائلة الصغيرة المركبة من الأب والأم وبضعة بنين وبنات إنما هي مثال الهيئة الاجتماعية التي يتألف منها المجموع الوطني، وعلي هذا القياس كما تقدم لنا القول مرارا تكون العائلة الصغيرة مثال الأمة الكبيرة ومرآة الوطن بإجماله. فإذا لم يكن النظام، والترتيب، والسلطان، والخضوع، والحب، والألفة، والعفاف، والنزاهة من صفات العائلة الصغيرة، لم تكن هذه الفضائل والكمالات بحكم الطبع من صفات ذلك الشعب، أو تلك الأمة التي تمثلها هذه العائلة.

فانظر بعيشك إلى حقيقة الأحوال في بلادنا، واحكمِ إذا شئت أن تحكم بنزاهة نفس، وحرية ضمير، وخلو عن الغرض، والتشيع، والمحاباة. انظر تر الرجل يعيش وحده، والمرأة وحدها، والأولاد مع الخدم.

تر الرجل في مجلس، والمرأة في مجلس، والأولاد بين المجلسين. تر الرجل لا يعرف لامرأته مقاما، وهي لا تشعر من نحوه بعاطفة سوى الرهبة والخوف. فهو السيد الآمر لا الرفيق الصديق، وهي الأمة الخاضعة لا شريكة حياته، وعشيرة أيامه، وأم بنيه.

انظر تر الرجال والنساء من أجل هذا التفرق لا يعرفون عاطفة الحب والاحترام لأزواجهم ولأولادهم. وذلك أمر طبيعي، فإن الرجل الذي لا يحب امرأته ويحترمها لا يحب أولاده، وهكذا المرأة التي لا تحب رجلها وتحترمه فأنها لا تحب أولادها، وأول الروابط العائلية الحب والاحترام.

انظر إلى الأوروبيين حتى سوقة القوم والدرجة السفلى منهم؛ لتمثل لعينيك حالة العائلة الحقيقية؛ إذ أنك ترى هناك ما لا ترى له أثرا عندنا من الائتلاف بين أفراد العائلة من كبيرها إلى صغيرها، من الأب الرئيس، والأم المسنة إلى الابن الصغير الذي يدب علي يديه ورجليه، والفتاة الطفلة الرضيعة.

بل إنك ترى هناك المشاركة في الحياة علي أجمل صورها، وأبهى هيئاتها، وتري التضامن العائلي علي أبدع أشكاله، واسمي أنواعه. وإذا طرقت بابا لهم في ساعة العشاء مثلا وجدت حول المائدة العائلة التي تمثل الهيئة الاجتماعية. وقد قام في صدرها الأب الرئيس، وأحاط سائر أعضاء تلك الهيئة به، ودار الحديث بين الكبار الذين يعرفون، والصغار الذين يجهلون، فأولئك يفيدون وهؤلاء يستفيدون، والأب الرئيس يفتي، وينصح، ويشير، ويدير نظام ذلك الاجتماع. فما أبهى، وما أجمل مثل هذا الالتئام!.

بل ما أبهي وما أجمل– علي قول داود النبي والملك– أن ترى "أولادك حول مائدتك كأغراس الزيتون"!

وكيف تصلح حال أسرة لا يحب أفرادها بعضهم بعضا الحب العائلي الحقيقي؟ وكيف الوصول إلى مثل هذا الحب السامي المقدس دون أن يعرف أفراد الأسرة بعضهم بعضا معرفة تامة حقيقية؟ وأي سبيل إلى هذا التعارف إذا كان لا اجتماع ولا ائتلاف، وكان مجلس الرجل وحده، ومجلس المرأة وحدها، والأولاد بين المجلسين؟

لعمري أننا إذا نظرنا بعين الإمعان إلى انحطاط الشرق وتقهقره وجدنا بين أسباب الحالة التي صرنا إليها المعيشة العائلية التي نحن فيها، والتربية الفاسدة التي نتلقاها. ثم إذا نظرنا إلى تقدم الغرب ونجاحه حتى أصبح رجاله يأمرون وينهون لا في بلادهم فقط، بل في بلاد غيرهم أيضا، وصاروا يفكرون حتى في اقتسام الشرق فيما بينهم، وفي تجزئته والاقتراع عليه، وهو الذي عنه أخذوا تمدنهم، ومن بحار علومه ومعارفه اغترفوا علومهم ومعارفهم، وجدنا أن هذه القوة التي تعلي كلمتهم، وترفع رؤوسهم حتى تناطح السحاب إنما هي مستمدة من التربية الجيدة التي يمنحونها لأولادهم، والمعيشة العائلية الحقيقية التي يتمتعون بها.

ونحن ما لنا وللغرب نضربه مثلا ونذكر أهله عبرة، في حين أننا لفي غنى عن ذلك كله بما عندنا في الشرق نفسه من الشعوب والممالك التي كانت بالأمس خاضعة لنا، ففكت رباطها، وحلت قيدها، وخلعت عنها سلطتنا، وأصبحت ذات عروش، والوية ولغة رسمية، بل صارت تتطال بأعناقها إلينا، وتطلب أن تسير وإيانا علي قدم المساواة. فما الذي قواها وأضعفنا، وما الذي رفعها وحطنا سوي أن العائلة عندها هي كما ينبغي أن تكون العائلة.

بل مالنا ولتلك الشعوب الغربية عنا، وأن تكن في حكم الشرقية مثلنا، البعيدة منا، وأن تكن قريبة إلينا ونحن عندنا الآن في بلادنا نفسها ما يكفينا مؤونة التمثيل والتماس العبر. أولسنا نري في مصر وسوريا خاصة فرقا عظيما وبونا شاسعا في أحوال بعض العناصر والطوائف التي يتألف منها سكان هذه البلاد. فلماذا تختلف حالة طائفة من طوائف هذه البقعة عن الطائفة الأخرى كل ذلك الاختلاف العظيم؟ فتري ابن الطائفة الواحدة مثقف الخلق، نير البصيرة، جريئا، مقداما، راغبا في التقدم، محبا للعمل، ملتمسا للعلا. وتري الرجل منهم ينصر رفيقه، ويشد ازره، ويتهافت علي مساعدته كأنه شقيقه لأبيه وأمه. في حين أنك ترى العكس في أحوال بعض الطوائف الأخرى، فلا أدب في الخصال والعادات، ولا فكر نير، ولا جرأة، ولا إقدام، ولا اكباب علي العمل، ولا مطمع في مراتب العلا، ولا ولاء قومي، ولا ائتلاف شعبي، بل ولا حب أخوي، لا بل ولا عواطف والديه، ولا شعائر دينية والعياذ بالله.

فما سبب هذه الحالة السيئة التي تمزق قلوب الوطنيين الحقيقيين حزنا، وأسفا؟ لأنها في حقيقة الأمر ونفس الواقع تمزق قلب الوطن، وأحشاء الجامعة القومية، وتؤدي بالمجتمع الشعبي إلى التفرق، وبالتالي إلى الخمول، والتقهقر، والانحطاط، ثم إلى الدخول في ربكة الأجنبي.

أجل، ما هو السبب يا ترى في ما نحن فيه؟ سؤال لسنا نحوم كثيرا في مضمار البحث لنجد له جوابا، بل نحن نرد القارئ اللبيب إلى مفتتح هذا الفصل إلى الكلام علي "كيف ينبغي أن تكون العائلة". فيجد الجواب عليه نعم، إن علة العلل التي تنحر عظم هذا الشرق، وتقتل في نفوس أبنائه عواطف الائتلاف، والمحبة، والأقدام، والشجاعة، والعفة، والنزاهة، وما سوي ذلك من العواطف الشريفة، والشعائر السامية التي تمثل التربية الحقيقية، والعلم

الصحيح، وترفع الأمة إلى أعلى قمم النجاح والفخر إنما هي كون العائلة عندنا علي غير ما ينبغي أن تكون، بل هي كون العائلة عندنا اسما لغير مسمى.

ونحن لا نستطيع الدخول هنا إلى مضمار البيان والإفصاح بأكثر مما فعلنا؛ مخافة أن يعد دخولنا في هذا الباب بمثابة الدخول إلى ما لا يجوز لنا الاشتغال به، ولا الالتفات إليه. بل قد يحسب البعض كلامنا في هذا المعني من قبيل التطفل والتطاول، ولاسيما إذا عمدنا إلى الكلام علي هذه العلة بالتفصيل، وبينا الأسباب المؤدية، وأوغلنا في البحث عن نتائج تعدد الزوجات والتشديد في الحجاب.

ومع ذلك فلسنا نرى بدا من الإلماع إلى بعض نتائج هذا الأمر الخطير، ولاسيما وقد بدأ بعض مواطنينا من أدباء المسلمين وأكابر كتبتهم بالتنبيه إلى هذا الأمر الجلل، والخوض في عباب موضوعه. فقد قرأنا في الجرائد والمجلات العربية علي أثر ما كنا ننشره من المقالات الانتقادية علي هيئة الاجتماع في الشرق مقالات عديدة لكثيرين من أخواننا أدباء المسلمين في القطرين المصري والشامي، ضمنها أصحابها ملاحظات جمة مفيدة في ذلك الموضوع الخطير، وفي التربية العائلية بنوع خاص. وقد سمعنا أن عالما من جلة العلماء المسلمين –وهو أحد رجال القضاء في مصر– قد شرع في وضع كتاب خاص في الزواج، والحجاب. فنحن نمسك القلم عن الجري في مضمار هذا الموضوع المهم؛ لأن أصحابه أخلق منا وأجدر بالكلام عليه بما يقتضيه من التطويل والتفصيل. وانه ليسرنا أن يبدأ كتاب المسلمين بالتنبيه إلى التربية العائلية؛ لأن البدء في ذلك فأل حسن، وتبشير بقرب الوصول إلى الغاية.

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

ومما يحسن أن نختتم به هذا الفصل قول الفيلسوف مونتسكيو الفرنسي

"أن العائلة العفيفة الفاضلة هي بمثابة سفينة تشد طرفيها في خلال الزوبعة بمرسيين: هما الدين، والتربية الجيدة". ولعمري أنه قول يجدر أن يكتب بأحرف من ذهب علي باب كل منزل من منازل العائلات، فليتدبره أولو الحجى، وليتبعه ذوو الذكاء.

الفصل الخامس عشر

الآداب العائلية

لم يكن الإكثار من الكلام في كيف ينبغي أن تكون العائلة ليمنعنا من تخصيص فصل آخر بالكلام، ولو بإيجاز واختصار علي الآداب العائلية. فإننا كما تقدم لنا القول في الأجزاء السابقة لا نبرئ آدابنا العامة من المغامز، والمعايب.

ولسنا نتعمد الدلالة علي كل عيب ومغمز في آدابنا العامة، فإنه أمر يطول شرحه، ولا تكفيه عدة صفحات من هذا الكتاب، فلذلك نأخذ الأمر بجملته علي رجاء أن لا يرى أحد فيما نكتبه ونشير إليه من هذا القبيل سوي توخي الخدمة العامة، والتماس وجوه الإصلاح.

تقدمت لنا في الفصل السابق إشارة إلى أن الهيئة العائلية في الشرق تكاد تكون اسما لغير مسمى، وقلنا أن الرجل في مجلس، والمرأة في مجلس، والأولاد بين المجلسين. ولهذه الحالة كما لا يخفى علي الناقد البصير نتائج وخيمة، وأضرار جمة؛ لأنها تنجلي عن ضياع التربية ضياعا تاما. وذلك أن الأولاد إذا لم يكونوا في الصغر تحت نظر والديهم، أو في عناية مربيهم مع مراقبة الوالدين لهم بحيث يشعر الولد بأن أعين أبيه وأمه ترعاه علي الدوام، خرج عادما كل صفة جيدة وإحساس شريف.

ولعمري أي رادع للولد عن الكلام البذيء، وعبارات السفاهة، وألفاظ التجديف، وعن النميمة، والكذب، والغش، والاحتيال إذا لم يكن عالما بأن

عليه من أبيه وأمه حارسين يرقبان حركاته، وينصتان إلى كلماته، فيكافآنه إذا أحسن، ويعاقبانه إذا أساء.

ثم كيف يجري الولد علي المثل الصالح ويقتدي بالصنع الحسن إذا لم ير المثل أمامه، وصنع أبيه يتقدم صنعه. ومعلوم أن الولد يجب أن يكون لديه ما يقتدي به، فإذا أخرج من مجلس أبيه وأمه لينشأ في مجالس الخدم والغرباء لم يكن أمامه إلا كل مثل غير صالح.

ثم من يعلم الولد أن هذه الكلمة قبيحة فلا يستحب أن يقولها، وأن تلك العبارة معوجة سقيمة فينبغي له أن يصلحها، وأن ذلك الرأي خرافة ووهم فلا يصح أن يعتقد به. ومن يعلمه كيف يسلم علي من هم أكبر منه؟، وكيف يخاطبهم ويجلس في حضرتهم، وكيف يجلس للأكل ويتناول الطعام، وكيف يحمد الله علي ما أسبغ من النعمة، ويشكره علي ما أبعد من النقمة، وكيف يتهيأ للنوم، وكيف يلزم في كل هذه الأحوال جانب النظافة التامة إذا لم يكن يري المثل من أبيه وأمه؟

بل من يوضح للولد ما أشكل عليه فهمه مما يعرض من الأمور، ويفسر له الكلمة التي لا يفهم معناها، ويشرح له المسألة التي لا يدرك فحواها إذا كان أبوه في مجلس وأمه في مجلس، وهو بين المجلسين لا في هذا ولا في ذاك؟

لا بل كيف يمتنع الرجال أنفسهم عن إيراد القصص السافلة، وسرد الحكايات التي حشوها الكلام البذيء، والتفكه بالأقوال التي يخدش وقعها الآذان وتحمر لسماعها الوجوه إذ لم يكن في المجلس من النساء، أو الأولاد من يتجافي الرجل عن مثل ذلك أمامهم.

ولا ينكر علينا أحد أن في وجود امرأة واحدة. أو ولد صغير واحد في

مجلس يضم عشرين، أو ثلاثين رجلا كفاية لتقييد ألسنة أولئك العشرين، أو الثلاثين عن التفوه بكلمة واحدة غير لائقة، ولغل أيديهم عن الإتيان بإشارة واحدة خارجة أقل خروج عن ظل الآداب. فلماذا إذا نعمل نحن بأيدينا علي تهديم السياج الذي يقي الآداب العائلية من الضياع، ونسعي بقدمنا إلى الوهدة التي تهوي فيها الفضائل والكمالات، وذلك بأن نكون نحن في مجلس، ونساؤنا في مجلس، وأولادنا ضائعون بين المجلسين.

ونحن نضرب لذلك مثلا شهدناه بنفسنا: وهو أن رجلا من علماء الفقه في بيروت كان يلقي دروسا في حلقة لم يكن يحضرها غير الرجال، فكان متى طرق باب الزواج، والطلاق، وغيرهما من أمثال هذه الأمور لا يسمى الأشياء إلا باسمها، بل كان يذكرها باقبح أسمائها دون أن يكلف نفسه عناء استبدال كلمة تحسب سفيهة، وإن كانت في وضعها تفيد المعني بكلمة غير خارجة عن حدود الأدب، وهي تفيد المعني بتمامه. فلما سئل في ذلك أجاب: وممن تراني استحي، ألست في حلقة رجال؟

ثم لم يمض علي ذلك زمن طويل حتى استدعى الأستاذ إلى إلقاء دروس في الفقه في منزل أحد الأغنياء لتعليم ولدين له كانا في غرة صباهما، وكانت والدتهما تحضر الدرس. ولا تسل عن ارتباك المعلم في بادئ الأمر، وتلعثم لسانه، وذلك أنه كان قد ألف إلقاء الكلام علي عواهنه دون التدبر، وإعمال الروية، وانتقاء الألفاظ في التعبير؛ لوجوده دائما في حلقة من الرجال. فلما جيء به لتدريس فتيين صغيرين في حضرة امرأة، رأي نفسه مضطرا إلى محاسبة نفسه علي كل كلمة تدور علي لسانه وتخرج من بين شفتيه.

إذن فوجود النساء والأولاد في مجالس الرجال شكيمة لهم، رادعة عن كل ما لا أثر فيه للأدب، وكان بعيدا عن جمال الفضيلة والكمال.

فلذلك كان من الواجب علي رؤساء العائلات عندنا أن يجعلوا مجالسهم مجالس عائلية، يرأسها الأب، وتخضع فيها المرأة والأولاد خضوعا مجازيا أدبيا؛ إذ أن العائلة -كما قال تين الفيلسوف الشهير- تقوم بعاطفة الخضوع، والطاعة من قبل المرأة والأولاد في سياسة الزوج والأب.

وهل يعتب السيدات ويحنقن علي مؤلف هذا الكتاب فيقمن عليه القيامة كما فعلن مرة "بثعلبة" حين قال لهن الحق علي صفحات الأهرام في السلوك الذي يسلكنه، والتربية الفاسدة التي يجري بعضهن عليها، إذا قال لهن هنا: أن مجالسكن أيتها السيدات المصونات لا تخلو إذا خلت من الأولاد والرجال من مغامز لا تليق بربات المنازل، ولا تتنزه عن عبارات لا يجوز أن تجري علي ألسنة أمهات البنين.

وليس من ينكر علينا أن النساء كالرجال، فكما أن الرجال لا يعقلون لسانهم، ولا يضعون شكيمة لجماح تصوراتهم إذا كانوا علي خلوة وانفراد في مجلس لا يري فيه ذوي الشوارب واللحى، فكذلك النساء يطرحن برفع الحياء الكمالي، ويردن دون حساب موارد الخفة في الحديث والتصورات إذا خلت مجالسهن من الرجال والأولاد.

ونحن لا تلقي القول في هذا الموضوع علي علائه دون تجربة ولا اختبار، ولو شئنا أن نورد عليه الأمثلة والأدلة لما عدمنا ألف مثل وألف دليل يثبت صحته، ولكننا نكتفي باستشهاد الرجال والنساء، وشهادتهم حق. فليقل لنا الرجال هل يقدمون علي أحاديث المجون السافلة إذا كانت نساؤهم بينهم؟. ولتقل لنا النساء هل يجرؤن علي التلفظ بكلمة خارجة عن حد الحشمة والأدب أمام رجالهن، أو أحد أولادهن الصغار. معاذ الله أن يكون الجواب نعم نقدم، ونعم نجسر. بل نحن نجل عامتنا قبل خاصتنا عن مثل ذلك الإنكار للأدب

الشرقي الطبيعي.

وقد يقول بعضهم وهم لا يفكرون فيما يقولون، أي شر عظيم في أن يخرج المرء في بعض الأحيان عن جادة الجد إلى فسحة المزاح، والمزاح ملح الكلام. ولكن هل تعتبر المزاح المجونية، والأقوال اللفظية، والعبارات البذيئة، والكلمات السفيهة من قبيل المزاح الجائز يا حضر المعترضين.

وهل يجهل أحد، أو ينكر أن مثل تلك الأحاديث تكون أعظم عوامل الفساد، وأضمن الوسائل المؤدية إلى ضياع التربية؟

لا لعمري إنه ليس من يجهل ذلك، ولا من ينكر حقيقته، وهو خلل عظيم في هيئة الاجتماع عندنا ينبغي ملافاته، ونقص كبير في المجتمع العائلي في الشرق يجب إصلاحه.

ومن وجه آخر أفلسنا نري القلوب حتى بين الأقارب والأنسباء، بل بين الأخوة، والبنين، والآباء علي غير ائتلاف ولا حب، حتى أنك قلما تجد عائلة علي رأي واحد، وأخوين علي قلب واحد، بل قلما تجد أبا برا بابنه، وابنًا غير عقوق لأبيه، وأخا مخلصا لأخيه، وابنه مقيمة علي ولاء أمها، وأما تحب ابنتها كما يجب أن تكون محبة الأم. فالخلاف ضارب إطنابه في قلب كل عائلة علي التقريب وحب الذات، مستول علي كل فؤاد دون استثناء، والبغض حال محل الحب والقلب، والجفاء موضع الوداد والولاء.

فما هو السبب في هذه المصيبة الدهماء التي تفرق بين بني الشرق، فتجعل اجتماعهم شتاتا، وقوتهم ضعفا، وعلمهم جهلا، وتمدنهم همجية؟. السبب كل السبب تفرق العائلة، وبالتالي تفرق الحب العائلي، فلا يعرف قلب الأخ أخاه، ولا فؤاد الابن أباه. السبب في ذلك تفرق العائلة بحيث تضيع التربية العائلية

التي هي أساس كل تربية وكل علم يقوم بعدها. فتأتي تربية المدارس علي غير أساس، معرضه للأخطار مثل كل ما يبني علي غير أساس، أو كبيت بُني علي الرمل، فلما عصفت الريح وهطلت الأمطار سقط، وكان سقوطه هائلا مخيفا.

نعرف في الإسكندرية أسرة كبيرة ذات ألقاب رفيعة، وثروة، وحسب، وكان كبيرها متزوجا بامرأتين، ثم توفاه الله عن ثلاثة أولاد ذكور. وجاءت ساعة اقتسام الميراث، فتألب الشقيقان ولدا المرأة الأولي علي ابن الثانية، واتخذا لحرمانه إرث أبيه إلا جزءا صغيرا منه كل طريق ووسيلة، ولو غير جائزة ولا محللة. وقد نجحا في سعيهما لعلة لا نعرفها، وليس من شأننا التعرض لها في هذا الكتاب، وفازا بمعظم الثروة، وأخواهما الآن يتقلب بين مخالب العوز وهما يقولان أنه ليس أخانا، وهو ما نشأ ولا تربى معنا.

نعم إنها حجة، ولكنها واهنة، وأنه لقول ولكنه سفسطة؛ لأن الرجل أخوهما إن لم يكن لأمهما أيضا فلأبيهما، وفي ذلك كفاية، ولكن التفرق العائلي قد انتزع من صدريهما كل عاطفة أخوية، فحسبا غير مباليين هذا الأخ غريبا، وعاملاه معاملة الأجنبي، بل معاملة العدو البغيض.

وإذا كان ذلك هو الشأن بين الأخوة فما الظن بما تكون عليه الحال بين أبناء الأخوة، والأعمام، والأخوال، وسائر الأقارب والأنسباء. بل ما الظن في معاملة الأهالي بعضهم لبعض، وليس ثمت ائتلاف وولاء. اللهم أننا نعوذ بمحبتك للجنس البشري من هذه الشحناء، وإلى كنف انعطافك علي الإنسان نلجأ من هذه البغضاء.

ولسنا نزيد علي ما تقدم شاهدا واحدا، وإن كثرت الشواهد ففي ما سبق إيراده غنى وكفاية، ومنه يتضح لقراء هذا الكتاب أن الاجتماع العائلي ليس فقط حافظا للآداب العامة من الضياع، واقيا للأخلاق من الفساد، بل هو

واسطة التحابب الخالص بين أفراد العائلات، والتعارف الحقيقي بينهم. وحيثما وجدت الاجتماع العائلي علي قواعده وأصوله، وجدت الألفة الحسنة والحب النزيه، بل وجدت النظام، والتدبير، والقوة، والتقدم، والنجاح.

ومما لا نجد بدا من التنبيه إليه في هذا الفصل من كتاب العلم والتربية ما لا يزال شائعا في بلدان كثيرة، وأماكن جمة من هذا الشرق الذي نحب أن نخدمه خدمة نافعة، تنهض به من وهدة التقهقر والانحطاط إلى قمة التقدم والفلاح. ونريد به اعتبار الرجل للمرأة أنها أمة له، مسخرة لخدمته وقضاء مآربه فقط، لا رفيقة له في هذا العمر، وشريكته في هذه الحياة، فلذلك تراه ينزل هذه المرأة التي أوجدها الله لتكون شريكة له، ومدبرة لبيته، ومربية لأولاده، بل أوجدها لتكون ربيعا لحياته، وغره في جبين عمره، وكوكبا لامعا في أفق منزله، منزلة الشيء، والمتاع، والملك الذي يشرى ويباع. فهو يمتهنها متى أراد، وينقص من احترامها، ويشتمها، ويسبها أمام أولادها، بل هو يرفع يده، لا بل يرفع الهراوة، والعصا عليها.

ولعمري أن امتهان المرأة، وسوء معاملتها، والإساءة إليها أمور ذات عواقب وخيمة، وهي قبل كل شيء من أكبر العوامل علي تفريق قلوب الأسرة وتشتيت الجامعة البيتية، بل هي من أقبح ما خدش به وجه الآداب العائلية. لأن البيت الذي تهان المرأة فيه، وتضرب تحت سقفه يخلو طبعًا من عاطفة الحب العائلي، والولاء الزوجي، والاحترام البنوي، وبالتالي من كل العواطف السامية والشعائر الشريفة التي يجب أن تكون شعار العائلات الصغيرة التي تتألف من مجموعها العائلة الكبيرة، ونريد بها الأمة كما تقدم.

ومن طاف بلاد الريف في مصر –ونحن نتمثل ببلاد الريف في مصر كي لا نبعد في المثل كثيرا– بل من أمعن النظر قليلا في قلب الإسكندرية التي يطبع

فيها هذا الكتاب، والتي نسميها أم الحواضر الشرقية، وزهرة المدائن العربية، ورأى كيف تعامل المرأة، وأي مقام لها في الهيئة الاجتماعية يدرك صدق ما نقوله في هذا المعنى؟

وذلك أن المرأة -ولاسيما امرأة الفلاح- تبكر منذ الفجر إلى الخدمة والعمل، فتشتغل في البيت كالخادمة، ثم تعمل في الحقل كالفاعل، وتجري وراء البهائم كالأجير. وهي تزرع، وتحصد، وتطحن، وتعجن، وتخبز، وتخدم حتى البقر والحمير، وأجرتها في أكثر الأحيان سوء المعاملة، والشتم، والضرب بالعصا والإهانة. فحبذا لو قام من كتابنا الوطنيين من يعظ أولئك القوم ويعلمهم أن الرجل مطالب باحترام امرأته؛ لأن احترام المرأة واجب طبيعي وفرض تأمر به الشرائع والقوانين، ويدخل في أذهانهم أن المرأة ذات مقام سام في المجتمع العائلي، وأنها شريكة الرجل ومساوية له، فلا يحق له أن يصول بقوته علي ضعفها وقيمتها، ويطأ بقدم أثرته حقوقها.

بل حبذا اليوم الذي يصبح فيه كل فرد منا نحن الشرقيين وهو ينشد قول الشاعر العربي القائل:

رأيــت أناســا يضــربون نســاؤهم فشــلت يمــني يــوم أضــرب زينبــا

هذا ويقرب من امتهان المرأة، وإساءة معاملتها، امتهان الأولاد، والقسوة الزائدة في معاملتهم، والغلظة في مخاطبتهم، وإلقاء الكلام الفظ علي أسماعهم، ورميهم بالنعوت القبيحة، والصفات السافلة، إلى غير ذلك مما يجري عليه الذين يرزقهم الله نعمة البنين، فيكفرون بنعمته، ويحسبون الولد من قبيل المتاع كما يحسبون المرأة ملكا يشرى ويباع.

ومما يؤسف له ويبكي من أجله أننا نرى في بلادنا العربية رجالا لا يحسبون

أن لهم أولادا، بل يحسبون ولدهم الذي هو نفخة من روحهم، وقطعة من جسدهم كالحجر، والهرة الشاردة، إن عاش، أو مات علي حد سواء.

بل نرى الحيوان البهيم غير العاقل أكثر حنوًا علي نتاجه منهم علي أولادهم، وأبعد إدراكا وأشد عناية مع ما هو فيه من البهيمية بشؤون الوالدية، ولا ندري علي أي سبب نحمل هذه الحالة، ولا إلى أية علة نرجع بها. ولكننا نعلم أن قلة عناية الوالدين بأولادهم، وعدم فهمهم بسمو المهمة التي ندبتهم إليها العناية يعودان بأسواء النتائج وأشد العواقب وخامة علي الآداب العائلية الشريفة.

وربما تبادر إلى الذهن مما ورد في سياق هذا الفصل من الكلام علي الاجتماع العائلي، واحترام المرأة، والعناية بالولد أننا نحرض الشرقيين علي اقتفاء أثر الغربيين، والجري علي منوالهم في إطلاق حرية الاجتماع، وتجاوز كل حد في الاختلاط بين الرجال والنساء، والمبالغة في توفير المرأة إلى الحد الذي تصبح فيه هي الآمرة الناهية، والإغراق في العناية بالولد إلى أن تبلغ العناية به والانعطاف له حد التدليل الذي نهينا عنه، وحذرنا الآباء منه في أحد الفصول السابقة من هذا الكتاب. كلا ثم أنه الرأي القائل: وأنه لمن وساوس الباطل فإننا من وجه نعلم أنها غاية يستحيل البلوغ إليها مع ما نحن فيه من المذاهب، والتقاليد، والعادات، ومن وجه آخر أننا نكره لتقاليدنا الشرقية، وعاداتنا العربية أن تستبدل بما يخالفها من التقاليد والعادات علي خط مستقيم، وبما هو معها علي طرفي نقيض. ولأحب إلينا ألف مرة أن نرى القديم باقيا علي قدمه من أن نراه مستبدلا بهذا الجديد الذي أودى بالآداب الاجتماعية، أو كاد.

إذن فنحن لا نحض علي إطلاق حرية الاجتماع والاختلاط بين الرجال والنساء، بحيث لا يبقي باب مقفلا، ولا حجاب مسدولا، وبحيث تخرج المرأة إلى

حيث تشاء دون أن تؤدي حسابا للرجل، ويذهب الرجل مع تيار الأهواء دون أن تعلم امرأته بذهابه ومجيئه، بل جل ما نرجوه لهذا الشرق وندعوه إليه أن تتكون فيه هيئة اجتماع سامية شريفة دالة علي علو مقام الشعب، وارتفاع مكانة الأمة، وإغراقها في المدنية والحضارة، وبلوغهما الغاية التي وجد لها الإنسان من إدراك ما له من الحقوق، ومعرفة ما عليه من الفروض نحو قريبه، ونحو نفسه، ومتى بلغنا تلك الغاية السامية: وهي إدراك ما لنا من الحقوق، وما علينا من الواجبات، أصبحنا حينئذ في غنى عمن يضع لنا الحدود لهيئة الاجتماع، ويعلمنا كيف ينبغي أن تكون العائلة، وكيف تكون الآداب العائلية.

فغني عن البيان إذًا أننا لا نقصد فيما نحض عليه وندعو إليه إلى إطلاق حرية الاجتماع كإطلاقها عند الأوروبيين بحيث لا يبقي لهذا الإطلاق حد، بل جل ما نبتغيه ونتمناه لبلادنا الشرقية أن يعود إليها ذلك الائتلاف العائلي الذي كنا نسمع به، وهو قد أصبح الآن أثرا بعيد، حتى أن بعضهم بالغوا في حجاب المرأة حتى حجبوها عن ابن عمها، بل عن أخيها، بل حجبوها عن النسيم مخافة أن يبلغها السلام، أو مخافة أن تطير مع النسيم.

أما توقير المرأة والعناية بالولد فيكفي فيهما أن يعرف الرجل ويعتقد أن هذه المرأة شريكته لا أمة رقيقة له، وأن لها عليه حقوقا تتقاضاه أياها بحق تلك الشركة، كما يطالبها هو بواجبات لا ندحه لها عن أدائها.

فليعرف إذًا مقامها، ويحترم حقوقها الزوجية والوالدية لتبقي المساواة مرعية بينهما، وبذلك يتم نظام المعيشة الزوجية، وتحفظ الموازنة البيتية. ثم أن يعرف أيضا ويعتقد أن هذا الولد الذي رزقه الله إياه مدعو لأن يصبح فيما يأتي من الأيام رجلا مطالبا بأعمال عظيمة: منها خدمة الوطن، ورئاسة العائلة، وإدارة شئون حياته وحياة الموكول أمرهم إليه. وأنه سوف يأتي زمن يطالب هذا الولد

فيه بأن يعول والديه، فهو يعيد لهما في أيام شيخوختهما ما استودعاه أباه في أيام صغره.

ولا مراء في أن الولد يبر بأبيه إذا اختاط أبوه له المثل الصالح، ورسم له الخطة الحميدة، وإلا فبأي حق نطالب الولد برد ما لم نستودعه إياه من الانعطاف والحب، ونسأله أن يعتني بنا ونحن لم نبذل له العناية عندما كان صغيرا، فلا نعتبن عليه إذا عاملنا ونحن شيوخ هزمتنا الأيام بما كنا نعامله به وهو صغير ضعيف، فبالكيل الذي تكيلون به يكال لكم، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ولسنا نظن أن مثل هذه الحالة تحتاج إلى دليل يثبت صحتها، لأن ما لا ريب فيه من طبيعته لا يحتاج إلى دليل يثبت صحته؛ لأن ما لا ريب فيه من طبيعته يحتاج إلى شاهد كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل

ومع ذلك فنحن نضرب لذلك مثلا رجلا عرفناه في الإسكندرية، رزقه الله ولدين أنثي وذكرا فحسب أن حقوقهما كلها عليه أن يأتي لهما بالمراضع، ويرسلهما بعد ذلك إلى المدارس، وأهمل كل أمر آخر من أمورهما، فلا رقيب منه عليهما، ولا اشتغال بحالهما، ولا اهتمام بما يفعلانه في ساعات فراغهما من الدرس وسائر الأعمال.

وكان يتركهما في البيت ويذهب مع امرأته، أو يذهب وحده إلى الملاهي ومحلات المقامرة حيث يبذل ما في جيبه من المال، وفي وجهة من ماء الحياء غير مكترث بمن تركهم وراءه، ولا مهتم بشأن امرأته وأمر ولديه.

وكان إذا سأله صديق عن ابنه يقول ربيته، وعملته في المدارس، فليدبر بعد اليوم نفسه. وفي الحقيقة أن ولديه دبرا نفسيهما، فإن الفتاة علقت بشاب

من غير جنسها ومذهبها، ولما تمكن حبه منها وجاء أبوها يحاول منعها من أن تراه كان جوابها لقد فات الأوان، فأين كنت منذ أشهر وأيام؟. أما فتى هذا الأب الذي يضرب به المثل فإنه كان إذا مرض أبوه لا يعوده كأن ليس له أب والعياذ بالله من مثل هذه الحال.

وعلي الجملة فإن العناية التي نبذلها للولد في أيام صغره أنما هي دين نتقاضاه إياه مضاعفا في أيام شيخوختنا، فمن شاء أن يبر به ولده متى كبر فليبر هو به متى كان صغيرا محتاجا إلى عناية أبيه وانعطاف أمه.

وشهد الله أننا في المسائل الثلاث التي تقدم لنا ذكرها وهي: الاجتماع العائلي، واحترام المرأة، والعناية بالولد لسنا نشير بالتطرف في أحدها، والغلو فيها إلى الحد الذي تعود معه النتيجة بعكس المقصود. بل نحن نريد التوسط في الأمر، فخير الأمور الوسط، فإذا نظرنا إلى الأمر وقابلنا فيه بين حالتنا وحالة الأوروبيين وجدنا كلا الفريقين قد اتبع في مذهبه جانب التطرف والغلو، فإن الأوروبيين أطلقوا حرية الاجتماع والاختلاط بين الرجال والنساء إلى حيث لم يبق لذلك حد يعرف، وبالغوا في توقير المرأة حتى جعلوها آلهة تعبد، وأكثروا من بذل العناية بالولد فأصبح مدللا فاقد التربية. أما نحن فخالفناهم في ذلك كله، وبالغنا في مخالفتهم إلى درجة غير محدودة، فضربنا علي المرأة حجابا صيرها أسيرة، وصير منزلها سجنا، وجعلها في واد والجنس القوي في واد، وأنقص من احترامها حتى لم تعد هي تعرف لنفسها قيمة، وحتى أنكرت هي نفسها مكانتها الزوجية ومنزلتها الوالدية. وأهملنا الولد، أو أسأنا معاملته حتى صار لا يعرفنا، أو صار يعدنا أعداء له. ونحن إذا تدبرنا الأمر وتبصرنا فيه ولو قليلا نجد الشطط والإفراط بالغين حدهما فيما يأتيه الذين تخالف طرائقهم، وفيما نتبعه نحن من مخالفة تلك الطرائق، بحيث لم يبق في الوسط، بل هم تجاوزوا الحد في

إطلاق الحرية، وتجاوزنا نحن الحد في التضييق، وكل ما جاوز حده جاوز ضده، وخير الأمور الوسط.

أما الذين يتخذون من الأوروبيين طرق معايشهم كلها، ويقلدونهم في تمدنهم وحريتهم المطلقة، وهيئة الاجتماع عندهم فقد سابقوهم في هذا المضمار حتى سبقوهم وتركوهم ورائهم بمراحل، فأضاعوا التربية البيتية، والآداب الشرقية، والحياء الجميل، والأنفة الذاتية، والوقار الشخصي، بل أضاعوا الدين، والشرف، والعواطف السامية، كل ذلك بدعوى التمدن والحرية، وحجة مجاراة الأوروبيين في طريق الحضارة العصرية.

وقد كان يجمل بنا أن نفرد هنا فصلا خاصًا تضمنه كل ما يجب من الملاحظات علي هيئة الاجتماع عند الشرقيين الذين يقلدون الإفرنج في معايشهم، فيأخذون منها الفاسد والمضر، غير مكترثين بالصالح والمفيد، لولا أننا لم نضع هذا الكتاب لذم الهيئة الحاضرة، وبيان معايبها ونقائصها، بل للإشارة إلى ما يجمل أن يتخذ قاعدة للهيئة الناشئة المقبلة التي نرجو أن تنشأ علي غير ما نشأت عليه هيئتنا الحاضرة من فساد التربية، واختلاط الآداب العائلية.

ومع ذلك فلسنا نجد مندوحة عن أن نشير هنا –ولو إلماعا– إلى آفة منتشرة في البيوت، وداء متفش بين العائلات الشرقية المتفرنجة، ونريد بذلك علة كل خراب: وهي المقامرة التي أصبحت لسوء الحظ في هذه الأيام صفة من صفات التمدن، فلا نكاد نزور عائلة، أو ندخل منزلا دون أن نجد لها أثرا.

ونحن إنما نشير في فصل الآداب العائلية إلى هذا الداء الوبيل؛ لأنه أكثر عللنا ضررا بآدابنا الاجتماعية، وأشدها تأثيرا في صفاتنا العائلية.

فالمقامرة –ونعيذ قراء هذا الكتاب منها– لا تنفذ سهمها في الجيوب

وتدس سمومها إلى الأكياس فقط، بل هي العلة الرئيسة في ضياع الآداب العائلية الشريفة، وفقدان العواطف المنزلية السامية، وحيثما حلت ضيفا ثقيلا، بل داء قتالا وبيلا انحلت معها عرى الأدب الشرقي مهما كانت وثيقة، وتزعزعت لها أركان التربية العائلية مهما كانت وطيدة.

وقد حدا بنا إلى ذكر هذا الأمر ما نراه في كل يوم رأي العين من تعاظم هذا المصاب، بحيث صرنا نخشى أن تعم العدوى، وأن لا يبقى سبيل إلى الخلاص. ولعمري أننا إذا نظرنا بعين البصيرة ومقلة النقد الخالص عن كل غاية وغرض إلى ما يجري في اجتماعات المقامرة في منازل العائلات، وكيف يسقط برقع الحياء الشرقي ويرتفع ستار الأنفة الذاتية والوقار الشخصي، وكيف يختلط الحابل بالنابل، ويمنع كل حديث أدبي، ويترك جانبا كل اهتمام بأمر العائلة وبنيها. لجزمنا دون مراء ولا جدال بأنه ليس في الإمكاه المحافظة علي الآداب العائلية الشريفة، والتربية البيتية المقدسة مع المحافظة علي هذه العادة السيئة القبيحة.

ولا شك في أن المتمسكين بالعادات التقليدية القديمة إمساكا شديدا يبلغ بهم إلى حد التعصب لها، والمغالين في تقليد حرية الأوروبيين وتمدنهم الحديث علي مغامزة، وكل غير صالح فيه مما لا ينطبق علي أخلاقنا ومشاربنا سوف ينظرون شزرا إلى هذا الفصل من هذا الكتاب، وربما أخذوا الكتاب برمته بذنب هذا الفصل، ولكن ماذا علينا إذا لم يرق في أعينهم أن نقول الحق، ولم يعجبهم أن نجهر بالصدق، فلهم شأنهم ولنا شأننا.

إنما نحن قد وقفنا القلم، وعقدنا النية علي خدمة الوطن الشريف، والتماس وجوه الإصلاح الحقيقي للأمة العربية، فليسمع من كانت له أذنان سامعتان.

هذا وقد رأينا قبل الخروج من الكلام علي العائلة والآداب العائلية إلى البحث في حالة المدارس وأمر المعلمين والتعليم -ولاسيما تعليم البنات- أن نردف هذه الفصول بفصل في "الوطن"؛ لأن الوطن ولا مراء هو العائلة الكبيرة المتألفة من مجموع العائلات الصغيرة، بحيث كان الكلام في هذا الشأن غير خارج عن المعني الذي نحن فيه، والله المسئول في تسديد خطواتنا إلى سبيل الرشاد، وجعل خدمتنا نافعة للأوطان بمنّه تعالى وكرمه.

الفصل السادس عشر

الوطن

من لنا باسمى فصاحة، وابلغ تعبير لنصف الوطن بما يستحقه من الأوصاف، وننعته بما يبين سمو مقامه من النعوت.

الوطن، وأي اسم أشرف من هذا الاسم، وأيه كلمة أسمى مقاما من هذه الكلمة؟

الوطن وما أدراك ما الوطن. إنه الأب، والأم، والأخ، والابن، والملك، والمال، وكل ما يحبه الإنسان، ويميل إليه، ويكلف به، ويعز عليه. الوطن شرف الرجل، وعنوان فخره، ومرجع عزه، وموضع مجده وموضع افتخاره.

الوطن تثور عواطف النفوس لذكره، وتخفق القلوب لسماع اسمه، وتراق الدماء في الدفاع عنه، وتبذل المهج والأرواح في خدمته، ويسترخص كل غال في محبته.

والوطنية أعظم العواطف شرفًا، وأسمى الشعائر مقاما، وهي أقدس وجدان يختلج في صدور الرجال، وأفضل إحساس يدفع إلى عظائم الأعمال. بل الوطنية علاقة سامية، تعلم المرء أن نفسه ليست له بل هي لهذه البقعة من الأرض التي هو مولود فيها، والتي ينتمي إليها ويعيش في ظل رايتها، والتي عرف فيها أباه، وأحب فيها أمه، ونادى أخاه وصديقه، وقرع فيها باب مدرسته، وتعلم لغته، وخضع لأستاذه، وخدم ملكه وأميره، واستنصف فيها القاضي من ظلم لحقه.

بل الوطنية عاطفة شريفة تعلم المرء أن حب الوطن من الإيمان، فمن لا وطن له لا دين له. وتعلمه أيضا أن حب الوطن قبل حب الأب والابن، وكم من أب قدم ابنه فدي لوطنه وكان مشكورا، وكم من ابن خالف أباه من أجل وطنه ولم يسمه التاريخ عقوقا.

أو لم نسمع بأولئك الأمهات والزوجات اللواتي يفضلن أن يرين أولادهن وأزواجهن أمواتا من أن يشهدنهم متخلفين عن الدفاع عن الوطن في يوم الغارة. فما الذي يحمل الأم –ومحبة الأم لولدها لا يحيق بها وصف– علي إلقاء ولدها الحبيب في وسط المعارك والمعامع، حيث تستخرج القلوب وتنتهب الأرواح.

إنما يحملها علي ذلك ويدفعها إليه حب الوطن المقدس الذي لا يعادله حب، ولا يجب أن يعادله حب. فالأم تحب ابنها ولكنها تحب وطنها أكثر منه، والابن يجل أباه ولكن يجب أن يجل وطنه أكثر منه.

ونحن نوصي بالطاعة للوالدين، ومع ذلك فنحن بكل جرأة وحرية ضمير نقول لكل ابن إذا أمرك أبوك بما يعود علي الوطن بالضر فاعصه ولا تطع له أمرا، فالوطن قبل أبيك، بل قبل نفسك أيها الإنسان.

وقد كان أحد الأقدمين يوصي أولاده في كل صباح بمحبه الوطن، والتفاني في خدمته، والموت فداء عنه. وكان يقول لأكبر أولاده: ليكونن أخلاصك الحب لوطنك عبرة لسائر أخواتك، ولجيرانك، ولكل من يسمع بذكرك. ويا بني إذا وجدتني في خطر وكان الوطن في خطر فبادر إلى نجدة الوطن قبل نجدتي، وأنقذ الوطن من الخطر المحيق به قبل أن تنقذني؛ لأنك إذا أنقذتني فقد بررت بأبيك وحده، ولكنك إذا بادرت إلى إنقاذ الوطن فقد بررت بأبيك، وأمك، وأخيك، وأختك، وسائر انسبائك وأقاربك، وأصدقائك، وصحبك، وأبناء أمتك ولغتك أجمعين.

ويحكي أن أحد العقلاء شعر بدنو أجله، فجمع إليه أولاده، فلما اجتمعوا حول سريره قال: إنني ذاهب عنكم إلى ملاقاة ربي. فبكي أحد أولاده.

فقال: لا يبكينك يا بني دنو ساعتي، فإنني والحمد لله قد وفيت الغرض، وقمت بالواجب، وأريد بهما خدمة الوطن. ثم قال بكر أنجاله أوصني يا أبي، فقال: أوصيك يا بني بحب وطنك فهو الأب لك من بعدي، وهو أمك التي تحبك وتحنو عليك فاذكره أينما حللت، وأخلص له الولاء أينما كنت، وأعلم أن من لا وطن له لا دين له، ولا ذمة، ولا شرف، ولا ذكر.

وقد قال أفلاطون: إذا كان الإضرار بالأب، أو الأم ذنبا عظيما، فالأضرار بالوطن ذنب أعظم. وقال شيشرون: إن آباءنا، وأمهاتنا، وإخواننا، وأقاربنا، وأصدقاءنا أعزاء علينا، ولكن هذا الحب لهم يمتزج ويجتمع كله في حب الوطن. وقال هوارس: أن أجمل موت وأعذبه الموت عن الوطن. وقال لامارتين: الشعوب تحب أوطانها كما يحب الرجل الحياة. وقال أحد كتاب العرب: ما عز علي شيء إلا كان الوطن أعز منه، وكان هو فداء عن الوطن.

وكنا مرة في مجلس أحد الحكام في لبنان، فجري الحديث في أحب الأمور إلى الإنسان، فقال الحاكم: أحبها إلى ثلاثة: الأول الوطن، والثاني الوطن، والثالث الوطن.

وكفى الوطن تعريفًا قول المثل العربي المأثور: "حب الوطن من الإيمان"، وقول الآخر: "من لا وطن له لا دين له".

ولقد أكثرنا من الاستشهاد وإيراد الأقوال في هذا المعني لا عن غير قصد، بل لغاية عظيمة: وهي أننا كنا نظن أن أقل ما كتب أجدادنا العرب فيه أنما هو التربية فقط فأكثرنا من لومهم علي إغفالهم ذلك الموضوع الخطير. فلما بلغ بنا

الموضوع إلى فصل الوطن وجدنا لسوء الحظ أن إهمالكم للكتابة في هذا المعني الشريف قد فاق إهمالهم للموضوع الأول، فإنك إذا تصفحت قصائدهم الحماسية، وخطبهم التحريضية قبل الدخول إلى ساحة الحرب لرد هاجم علي الوطن، ومغير علي البلاد لم تكد تجد فيها للوطن اسما، ولا للبلاد ذكرا. وفي ذلك ما فيه من مواطن النقص والتقصير في التربية الوطنية، وترك الأثر الحميد من السلف للخلف. حتى أننا اضطررنا بعد أن نقلنا أقوال بعض فلاسفة الأقدمين وكتاب الإفرنج المعاصرين أن نوجد العبارات والامثال عن لسان كتاب العرب كي لا يخلو هذا الكتاب العربي من كلمة لهم في الوطن، وحبه، والإخلاص في خدمته. وهي حالة كان في ودنا لو لم نكن مضطرين إلى الإشارة إليها، ولكن إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، ورحم الله القائل:

إذا لم يكـــن غـــير الأســـنة مركـــب فـــلا يســـــع المضـــطر إلا ركوبهـــا

هذا ولنعد إلى ما كنا فيه من ذكر الوطن، وشرف الوطنية فنقول: أن من جملة ما يشرف به المرء في خدمة وطنه ووفاؤه ماله عليه من حقوق الخدمة العسكرية المقدسة المفروضة علي كل رجل، والتي يتوق إليها كل ذي نفس أبية.

ولعمر أبيك هل رأيت عسكرا يمر والرايات تخفق من حوله، والموسيقي تعزف في طليعته ولم يخفق فؤادك في صدرك، وتترقرق الدمعة بين جفنيك، وينعطف قلبك إلى كل فرد من أولئك الجنود الذين لا تعرف منهم أحدا ولم يكن لك فيهم صديق.

أننا لا نظن أحدا –اللهم إلا الذين تجردوا عن كل عاطفة بشرية وفقدوا الوطنية– يري الجيش يمر، والعلم يخفق، والموسيقي العسكرية تعزف دون أن يختلج قلبه بين جنبيه، وترق عواطفه حتى تترقرق الدمعة في عينه.

ولماذا تحنو أيها الرجل ولا حنو المرضعات علي الفطيم علي هذا الرجل الذي لا يفرق بسوى لباسه عن أي رجل سواه مارا إلى جانبه، ولماذا تصفه بأجمل الصفات وتنعته بأحب النعوت إلى الإنسان وأنت لا تعرفه، ولا تعرف اسمه، ولا تعرف من أبوه وأمه؟

ذلك لأن هذا الرجل الغريب عنك، المجهول منك إنما هو المدافع عن وطنك، الحامي لعائلتك، الحرس لشرفك، وهو سياج ورافع منار مجدك، المخاطر بنفسه في سبيل دفع الخطر عنك، المرهق دمه لصيانة حياتك، المتأهب في الليل إذ تنام ملء جفنيك، وفي النهار إذ تكون مشتغلا بما يعود نفعه عليك للسير إلى حيث يقيك كل شر طارئ، ويدفع عنك غارة كل عدو طارق، إلى حيث يبيع نفسه رخيصة في الذب عن حياضك، ويريق دمه بلا ثمن ليرفع شرف رايتك، إلى حيث يدعوه صوت الوطن، ويناديه لسان الوطنية. فما اشرف هذه الخدمة، وما اسمي مقام الجندي وارفع شأن الجندية!

فالسلام عليكم أيها الجنود البواسل يا حماة الوطن، وسياج الدولة، وعنوان شرف الشعب، وفخر الأمة. السلام عليكم من قائدكم الكبير إلى "النفر" الصغير فيكم، والسلام عليكم في ساحة الحرب كنتم أم في ساعة السلم، ويوم تشهرون السيوف وساعة تغمدونها.

وانظر رعاك الله إلى البلاد التي تعرف قيمة الوطنية وشرف الجندية، وارقب خروج الجيش فيها إلى استعراض، أو إلى قتال. تجد الشيوخ يدعون بالنصر، والأولاد يصفقون ويتغنون بالأناشيد الحماسية، والنساء يهللن ويصفقن، والبنات ينثرن الازهار ويقدمن الهدايا. ثم عد بنظرك إلى هذا الشرق وارقب يوم القرعة، فلا تري غير دموع النساء، ولا تسمع غير الولولة من كل فج كأن من وقعت عليه القرعة للخدمة في الجيش قد انتخب للموت، وقام

السياف علي رأسه.

بل تأمل في الشبان أنفسهم فلا تجد فيهم إلا كثيرين قد اقتلعوا أعينهم بأصابعهم، واقتطعوا أناملهم من أيديهم للخلاص من الخدمة العسكرية والعياذ بالله.

فلماذا يوجد هذا الفرق كله بينا وبين الإفرنج. أليسوا مخلوقين مثلنا من لحم ودم، أم ليست في أجسامنا نفوس مثل نفوسهم؟. بلى، ولكنهم عرفوا الوطن وأحبوه. أما نحن فإننا ننكره ونجفوه. هم يجلون الوطن إلى حد العبادة، ونحن نحقره إلى حد الجحود. هم يستميتون في خدمته، ونحن نميته في خدمة أغراضنا. هم يريقون دمهم إلى آخر نقطة في سبيله، ونحن نمتص كل نقطة من دم الوطن. هم يبيعون أنفسهم ويهبون أرواحهم من أجل الوطن، ونحن نبيع الوطن من أجل لقب نكتسبه، أو منصب نتوسده.

هم ينفقون أموالهم وثروتهم للوطن، ونحن نجرد الوطن من ردائه، وننهب ما تصل إليه أيدينا من أمواله.

ذلك هو الفرق فيما بيننا وبينهم، وأنه لفرق إذا تأملت عظيم، وبُعد إذا نظرت شاسع سحيق. وخليق بهم وهم يحبون أوطانهم كما يحبون أن يعظم جاههم ويضخم سلطانهم. وجدير بنا ونحن علي ما نحن عليه من إنكار الوطن أن نصير إلى أبعد مما نحن فيه من الانحطاط والخمول.

ولعمري هل سمعنا بمن قام في الشرق فترك ملذات المعيشة في المدن الكبرى، والعواصم الزاهية بالعمران الزاهرة بالحضارة، وسار يقطع المفاوز ويجوب القفار مخاطرا بحياته في كل ساعة، يطوي الأيام بلا طعام، ويقطع الليالي بلا نوم ويسير من قفر إلى قفر، ويخلص من قوم متوحشين ليقع بين أقوام من

الهمجيين، ويفلت من وحش ضار ليلاقي وحشا مفترسا، كل ذلك في خدمة الوطن دون التماس مكافأة أو رغبة في جزاء، بل وفاء لحق الوطن عليه وقياما بالفرض المقدس نحو البلاد التي إليها ينتمي وفي ظل رايتها يعيش.

ولقد مر بنا في هذا الفصل ذكر الراية مرددا. فما هي الراية حتى نشرف اسمها إلى هذا الحد ونعلي ذكرها بهذا المقدار؟

الراية أيها الشرقيون رمز الوطن المحبوب، فهي علي ما هي عليه من كونها قطعة من النسيج أغلي ما ينافس فيه، وأشرف ما يفاخر به، وأعز ما يدافع عنه.

متى نصب ملك تنصب له الراية، وإذا سار جيش يرفع في طليعته العلم، وإذا قدم أمير تزين الطرق التي يمر فيها بالإعلام، وكلما احتفل بعيد كبير أو بتذكار عظيم ترفع الرايات، وإذا مات قائد كفن براية بلاده، ومتى حمل نعش جندي غطي صندوقه برايته، وإذا أهينت دولة طلبت الترضية والتعظيم لرايتها تكفيرا عن الإهانة التي لحقت بها.

يشب القتال بين جيشين فيتفانى الجنود في الدفاع عن راية فرقتهم، ويفاخر المنتصرون منهم بغنمهم راية العدو. والموت أحب ألف مرة إلى جيش من أن تؤخذ منه الراية، أو ينال العدو منه علما. فالراية إذا علي كونها قطعة من النسيج لا حد لقيمتها، ولا تقدير لثمنها، فهي أكبر الأشياء ثمنا، وارفعها مقاما، وأغلاها قيمة.

وأيه راية أسمى مجدا من رايتنا نحن الشرقيين، وأي علم أعظم فخرا من علمنا؟. أفلم تسر ألوان رايتنا من الشرق إلى الغرب؟. ألم ينصب علمنا حتى علي أبواب "فينا" نفسها؟. فلماذا ترانا لا نعرف لهذا العلم قيمة، ولا نؤدي

لهذه الراية ما تستحقه من التعظيم والإجلال.

انظر إلى الشرق وفتش منازل الشرقيين ولاسيما القرويين منهم، وقل لنا بعد ذلك: هل تجد في أحدها راية يرفعها الرجل فوق منزله يوم تذكار مولد سلطانه، أو جلوس أميره؟

بل مالنا وللقرويين الذين لا يعرفون كيف تكون الراية، ولا ما هو الوطن، ولا يعلمون متى يحتفل بتذكار مولد السلطان، أو جلوس الأمير؟ فلندعهم وراء بقرهم، وجواميسهم. وبين جمالهم، ونعاجهم. وفي وسط حقولهم، وبساتينهم. وهيا بنا إلى المدن الكبيرة والحواضر الزاهية بالعمران، وسل أبناء الشعب ورجال العامة: هل في منازلهم راية، وفي بيوتهم علم ينصبونه يوم تنصب الأعلام، وترفع الرايات في بلاد الوطنية؟

بل نحن نجد الكثيرين منا لا يعرفون ألوان رايتهم، ولا يذكرون لها رسما، فكيف ننتظر ممن لا يعرف رايته أن يعرف وطنه، ويحبه، ويخدمه، ويفتديه بدمه؟

ونحن لا نقني في منزلنا راية، ولا نعظم لوطننا علما؛ لأننا لا ندرك شأن الراية ولا نعرف قيمة العلم. ولسنا نجهل شأن الراية ونتعامي عن قيمة العلم إلا لأننا لا ندرك قدر الوطن ولا نعرف مقامه.

نعم نقول ذلك ولسنا نخشى في الحق لومة لائم. فأين الشرقيون الذين يعرفون الوطن ويأتمرون بالوطنية الحقه؟ أين الشرقيون الذين يفضلون مصلحة الوطن علي مصالحهم الذاتية وأغراضهم الشخصية؟ أين الشرقيون الذين يفتدون الوطن بمالهم. ولسنا نقول بدمهم؟ أين الحاكم الشرقي الذي يقول لرعيته إذا رأيتم فيّ اعوجاجا فقدموه بحد السيف؟ وأين الشرقي الذي يقول لحاكمه إذا احتجت في خدمة الوطن إلى ذراع فهذا ذراعي، وإذا احتاج الوطن

إلى نقطة دم تراق في خدمته فهذا دمي بكليته؟

فهل حلف الدهر ألا يقيم لشرقي قائمة، وألا ينشئ لعربي تعمده. كلا بل حلفنا نحن الشرقيين أن نساعد الدهر علينا، ونأخذ بناصر العدو علي أوطاننا، فإذا ولى أحدنا منصبا فلخدمة نفسه وأغراضه، ولو أضر فعله بالوطن وخالف عواطف الوطنية. ولقد أمعنا النظر فيما أصاب الشرق من النوازل، وتوالى عليه من الرزايا والكوارث في هذه السنين الأخيرة خاصة، فوجدناها مسببة عن انحطاط العواطف الوطنية عند الشرقيين، وبلوغهم في ذلك إلى الحد الذي يصح أن يقال معه عنهم أنهم أنكروا الوطن وجحدوه.

وأي إنكار للوطن أعظم من مساعدة الغريب عليه، وأي جحود للوطنية أكبر من الميل عنها والعمل بما ينافي أوامرها ونواهيها. أو لم نر في الشرق رجالا أؤتمنوا علي الوطن فخانوه وقلدوا الحسام، ولكنهم في وجه الوطن استلوه. أو لم نر في الشرق رجالا اتخذهم دروعا فكانوا، ولكن للأعادي، ورفعهم إلى المناصب السامية والرتب العالية، فجاروا، واستبدوا، وظلموا، ونهبوا، ومدوا أيديهم إلى كل ما تحرمه الوطنية، وساروا في كل طريق تنهي عن السير فيها وهم يدعون أنهم خدمة الأوطان، إلا أنهم الأعداء في زى الأصدقاء، والذئاب المفترسة في ثياب النعاج.

وقد يحسب بعضهم أن إنكار الوطن لا يكون إلا بخيانة الوطن خيانة عظيمة معروفة، وهم واهمون فيما يحسبون. فإن كل إضرار بالوطن مهما كان قليلا يعد إنكارا له، وجحودا، ويحسب جريمة لا تغتفر. وكل رجل في الأمة من ملكها، وأميرها إلى أصغر فرد من عامتها وسوقتها مطالب بفروض وواجبات نحو الوطن. وأي تقصير يقع في تلك الفروض يحسب خيانة للوطن. حتى أن الرجل الذي لا يعمل عملا ينفع به الوطن يعد مقصرا في ما تفرضه عليه

الطبيعة، ويوجبه عليه الناموس نحو وطنه وبلاده.

ولسنا نريد بهذا القول أن كل رجل من رجال الأمة مطالب بعظائم الأمور، والإتيان بما لم يأته أحد قبله ليكون وطنيا قائما بما يجب عليه نحو وطنه. كلا بل نحن نقصد القيام بفرضه الوطني.

فالملك بحسن سياسته ورأفته بالرعية، والقاضي بعدله وانصافه، والجندي ببسالته وإقدامه، والصحافي بصدقه ونزاهته، والعالم بعمله وتدقيقه، والصانع بإتقانه واجتهاده، والزارع بعنايته وكده، والغني الموسر ببذله وسخائه، ورجل الدين بتنوير الأذهان والتأليف بين قلوب أهل الوطن علي اختلاف مذاهبهم. فمتى رأيت بلادا يعمل فيها مثل أولئك الذين تقدم لنا ذكرهم بما هم مطالبون به طبعا وشرعا فقل أنها البلاد التي يكرم فيها الوطن، وتعرف فيها قيمة الوطنية.

ولكن متى كان الملك يظلم، والقاضي يأخذ الرشوة، والجندي يأنف من حمل الحسام ويهرب من ساحة القتال، والصحافي يتلاعب بالحقائق ويلقي الشقاق بين العناصر، والعالم يرسل الأمور العلمية علي علاتها، والصانع يقصر في عمله، والزارع يهمل شأن أرضه، ورجال الدين يطمسون علي العقول بالخرافات ويدسون سم التعصب الديني في النفوس، فيفرقون القلوب المتآخية، ويشتتون كلمة الوطنيين، والغني يضن بدرهم في سبيل علمي أو عمل خيري. ولسان ينشد:

إني أضـــــن بـــــدرهم متصـــــدقا وأجـود في قـدح بمـا ملكـت يـدي

فأعلم أنها البلاد التي لا وطن فيها، ولا وطنية في صدور رجالها. فعلي مثل هذه البلاد السلام؛ إذ لا رجاء لها في حاضر، ولا أمل في مستقبل والعياذ بالله.

بقي من وسائل إنكار الوطن الوطنية الكاذبة التي يتصف بها كل مدعي الوطنية في بلاد مصر والعثمانية، بل في سائر البلاد الشرقية والأنحاء العربية، وهي من أعظم الضربات التي ابتلي بها الشرق، وأكبر المصائب التي نزلت به. فإنك كيف ألفت، وأين وجهت قدميك لا تجد إلا كل من كانت دعواه في الوطنية وإخلاص النصح للوطن أطول من إنكاره للوطن، واعرض من جحوده إياه، وهو إذا استطاع با ع الوطن وأهله، لا بدينار، بل بدرهم.

وعندنا أن أمثال هؤلاء أضر بالوطن من أعدائه الأجانب؛ لأن العدو الداخلي المتزي زى الصديق أشد فعلا، وأكثر ضرا من العدو الخارجي الذي تعرف أنه عدوك. فلذلك كانت دعوى الوطنية لا تثبت إلا إذا قامت عليها الشواهد من الأفعال، ورحم الله الشيخ اليازجي إذ قال:

أن قلت ويحك فأفعل أيها الرجل   لا يصدق القول حتى يشهد العمل

ونحن مردفون هذا الفصل بكلام وجيز في خيانة الوطن، نرسل فيه القول هزلا مبطنا بجد بيانا لقبح خيانة الأوطان، وشجبا لعمل الخونة الأشرار، والله يهدي من يشاء.

الفصل السابع عشر

خيانة الأوطان

كنا نود لو نستطيع تنزيه هذا الكتاب عن ذكر خيانة الوطن كي لا يكون لهذه الفظاعة ذكر في أنديتنا الشرقية، ومحافلنا العربية. ولكن ما نشعر به من قبح هذه الجريمة ونشهده من إنكار الشرقيين للوطن، والوطنية اضطرنا إلى الإيماء إليها ولو علي سبيل الفكاهة والهزل؛ ليعلم الذين يخونون الوطن أنهم بما يعملون يحاسبون، والجزاء الحق من جنس العمل.

وقد سبق لنا القول في الفصل المتقدم أن خيانة الأوطان ليست فقط بيع الوطن للأجنبي وتسليم البلاد للغريب، ولكن كل تقصير في خدمة الوطن، وإهمال للواجب العام يحسبان من قبيل الخيانة للبلاد. ونحن لا نحاول أن نفصل في هذا الباب كل ما كانت له علاقة بهذا الموضوع، بل نحن نجتزي علي إيراد حكاية "لثعلبة" رواها عن محاكمة رجل خان الوطن، وأخلف رجاء فيه بزوغ الشقاق بين أهله، وتفريق كلمة الوطنيين، وتبديد جامعتهم، وهي أقبح خيانة للوطن، وأفظع طريقة تتبع للإضرار به.

وغني عن البيان أن هذه الحكاية إنما هي رمز مجازي لا نقصد به إلا إلى تمثيل فظاعة الخيانة وبيان قبحها بأسلوب ينطبع في مخيلة القارئ، فليست هي إذا حقيقة واقعة يشار بها إلى شخص معين، أو يقصد بها أحد من الناس.

هذا ويروي أن رجلا غشى مجلسا لقوم بينهم رجل موثق الأكتاف، وهم يتشاورون في أية ميتة يميتونه، وكان أجحدهم يقول عند وصول الرجل نربطه إلى

ذنب فري جموح ونطلقه في الطرق والشعاب الوعرة. فقال الرجل: وأي ذنب جنى حتى يقتل هذه القتلة الشنيعة؟ فهل سرق أرملة، أو يتيما؟ قالوا بل جنايته أعظم مما تقول، قال: فهل كفر بالله، أو غدر بجاره، أو خالف الناموس؟ قالوا: بل ذنبه أجسم من ذلك. قال: فهل قتل أباه، أو أمه، أو أخاه. قالوا: إن وزره فوق هذا الوزر، فلقد خان هذا اللئيم الوطن. قال: إذا فاقتلوه شر قتله، ومثلوا به تمثيلا شنيعا، وإذا كان مفتاح جهنم في يدكم فزجوه في أعمق دركاتها.

ولسنا نبالغ إذ قلنا أن خيانة الوطن أفظع جناية يجنيها الإنسان في حياته، وهي وحدها الذنب الذي لا يغتفر، ووصمة العار التي لا تزول ولا تمحى.

ونحن موردون الآن حكاية "ثعلبة"، فيري القارئ أن موقف المحاكمة علي خيانة الوطن رهيب، وأن القصاص صارم شديد. قال:

خرجت مرة استنشق هواء المساء وقد ترصع بساط السماء، فقادتني رجلاي إلى ضفة النيل، فاقمت ساعة أتفرس في الأشياء فأراها تتغير رويدا رويدا، فكأن ذلك الموضع قد ارتفع وعلا حتى أصبح جبلا شامخا وأنا جالس علي قمته. ثم لم أشعر إلا وقد زلزلت الأرض زلزالها، وعصفت الريح، ولمع البرق، وهزم الرعد، واستولي على الدنيا ضباب، كثيف وما مضى علي ذلك برهة حتى انقشع الضباب وسكت الرعد وانقطع البرق وسكنت الريح وهدأ الزلزال واستولي علي المكان صمت هائل. كل ذلك والجبل راسخ لا يتزعزع وأنا واقف علي قمته، وقد جمد الدم في عروقي وأخذتني الرعبة. علي أن الصمت لم يكد يستتب حتى تلاه دوي طبق أقطار الدنيا الأربعة كأنما "تداول سمع المرء أنمله العشر" حتى خيل لي أن قد نفخ في البوق، وقامت القيامة، فاستعذت بالله من هول الموقف في اليوم الأخير.

ورأيت كأن شعلة من النور تتلهب في ذلك الفضاء وهي تدنو مني بين

ذلك الدوى حتى وقف أمامي فأنقطع الضجيج بغتة، وخرج من الشعلة صوت كالرعد القاصف صارخا في تلك البرية "أعدوا طريق الوطنية". أما أنا فكنت لا أجسر أن أبدئ حراكا، وكنت أسمع ولا أري للصوت مصدرا، فهالني الأمر ولعنت في نفسي الساعة التي خرجت فيها إلى ذلك المكان علي أنني لم أتم الفكر حتى خاطبني الصوت من داخل اللهيب فقال: استغفر الله يا ثعلبة عما تجدف به، فإن الوطن قد اختارك من بين الرواة، واصطفاك لأن تري ما لم يره ولن يراه سواك. وأعلم أن الموقف موقف محاكمة وستر لواء العداء والمساواة منشورا منصورا، وجيش الظلم والاستبداد مكسورا مدحورا، فتنبه إلى ما سيجري وكن شاهدا عدلا. وما سكت الصوت حتى رأيت رجلا قبيح الوجه، شديد السمرة، صغير العينين، رقيق الجثة، وعلي رأسه عمامة وهو مرتد بجبة طويلة تتدلي إلى عقبية، وكان يمشي علي غير هدي كأن يدا غير منظورة تقوده بالرغم عنه. فأمعنت في النظر إليه فإذا هو رجل ولع بإيقاع النفرة بين مواطنيه، وتهييج الخواطر، وتفريق الكلمة .فكان معززا لدعائم البغي والفساد، مقوضا لأركان العدل والإصلاح، فأشفقت عليه من عدل القضاء، وفكرت في أن أشفع فيه لدى الديان، ولكنني خفت أن أكون شفيع المفسدين فتلحقني من العار وصمة لا أريدها. ومع ذلك فإنني كنت علي يقين بأن شفاعتي لا تفيد في ذلك الموقف فأضربت عنها.

ثم صاح الصوت بالرجل صيحة ارتجت لها أقطار العالم. فقال الآن يأخذ العدل مجراه فأستعد أيها المجرم لتأدية الحساب... وما كان إلا كلمح البصر حتى أحدقت بالتعيس أشباح مخيفة زادت الموقف هولا، وأوقعت الرعب في نفس الرجل، فارتخت مفاصله، وكاد لولا أن يتداركه شبح من الأشباح يسقط إلى الأرض. ثم بدئ بمحاكمته فكانت محاكمة قانونية عادلة؛ إذ بسط له الصوت ما

أتاه من المساوئ والجرائم في تفريق كلمة الوطنيين إرضاء للغاية الخسيسة، وقيادتهم إلى ما بعث بمصلحة البلاد خدمة لبعض الأنفس الخبيثة، وكلفه عن ذلك عذرا صحيحا فلا يستطع إليه سبيلا، فحكم عليه وسحبه، وقال: صارت النار لك مقيلا. فبكي الشقي وقال ندمت ولكن لات ساعة مندم، وما تبرد الندامة بعد الفوات غليلا. وعقيب ذلك أمر الصوت بالرجل فسيق مكبلا مغلولا. ورأيت فوق رأسه سيفا من اللهيب مجردا مسلولا. فعلمت أن قد وقع القضاء وصار الخلاص مستحيلا. وقضى الله أمرا كان مفعولا.

قال ثعلبة: فلما رأيت ذلك اعتراني الذهول، واستولت علي الهواجس، وتوغلت في التأمل والتبصير، ورجعت إلى ماضي أعمالى فرأيت ذاتي نزيها في الخدمة بريئا، فهنأت نفسي وقلت لها لا تحفلي بما يقوله الناس فأنت في خدمة الوطن مخلصة، ولسوف تعرفين وتكافئين. وكأن مخاطبتي لنفسي أنستني ذلك الموقف فلم أعد أنظر إلا إلى داخلي وضميري، ولكن صوت الشعلة أخرجني من ذهولي؛ إذ هتف بي قائلا لقد رأيت بعينيك وسمعت بأذنيك كيف يصرع البغي صاحبه، وكيف تقوم القيامة وينتصب الميزان لمحاكمة من يسعي في تفريق قلوب الأخوان، ويدأب طمعا في مصلحة نفسه علي الإضرار بمصلحة الأوطان. ومن العبث أن يتصور المفسد أن حاميا يحميه، وأن يدا قوية تنقذه من عقاب الوطن. فأذهب عني إلى القوم نذيرا فإن أحسنوا فلأنفسهم، وأن أساؤا فعليها. وأنا صوت الوطن أحب من يحبني وأكافئه، وابغض الصادقين بحسن الثواب، ومنذرا للمخالفين بهول العقاب. ثم سكت وعد الدوي، وأخذت الشعلة بالابتعاد وأنا أنتبعها النظر حتى توارت عن بصري، وحينئذ ارتجت الأرض فزلزلت زلزالها، وهزم الرعد ولمع البرق وعصفت الريح ثم عاد كل شيء بغتة إلى السكون، فلم أشعر إلا وأنا علي الأرض وقد غار الجبل ورجعت

الأحوال إلى مجاريها.

فلما رأيت ذلك أيقنت أن الصدق في خدمة الوطن أولي من كل ذهب الأرض، وأن للوطن ملاكا يراقب أعمال الناس ويكلف كلا منهم حسابا، فمن أحسن فللثواب، ومن أساء فللعقاب. ولقد جئتكم باسم الوطن فلا تخالفوا له أمرا، ولا تعصوا له إرادة، بل قولوا جميعكم سمعا وطاعة للآتي باسم الوطن...

الفصل الثامن عشر

اللغة والوطن

من الأدلة علي تقدم أمة من الأمم تقدم لغتها وانتشارها، ومن الأدلة علي استمساك شعب من الشعوب بالوطنية وإخلاصه والحب لوطنه: حبه للغته وتمسكه بها إلى حد أنه لا يحب أن يكتب، أو يتكلم لغة سواها.

ونحن الشرقيين –ونخص العرب منا– إذا اتخذنا هذا الأمر قياسا علي أنفسنا حكمنا لأول وهلة ببعدنا عن الوطنية الحقة بعد الثريا عن الثرى؛ إذ ليس في لغات الدنيا أجمع من الكلام والتعابير ما يكفي لوصف إهمالنا لأمر لغتنا وتقصيرنا في خدمتها. بل ليس في لغات العالم كله من الألفاظ والمعاني ما يمكن الاكتفاء به للدلالة علي عظم الذنب الذي ارتكبناه نحو هذه اللغة العربية التي كدنا نؤدي بها، ونقضي بإهمالنا عليها.

وإذا شئت أيها القارئ العربي دليلا علي صدق هذا القول، فأرقب اجتماع، لا أقول من عامة الشعب وسوقته، بل من أذكياء شبانه وخاصته أولئك الذين يُتخذون رمزا عن الشعب ودليلا علي مقام الأمة من الحضارة والمدينة. وأصغ إذا وجدتهم مجتمعين يتكلمون، متنقلين من حديث إلى حديث. وأنا الضمين لك بأنك تحسب نفسك في البرج يوم تبلبلت الألسنة، وتفرقت اللغات. إذ أنك بينما تحسب الحديث عربيا تجده فرنساويا، ثم لا تلبث أن تراه متحولا وقد حلت كلمات الإيطالية، أو الإنجليزية محل الفرنسية والعربية. بل أنك لا تكاد تسمع اثنين من أبناء الشرق أنفسهم حتى من الذين نزل القرآن

الشريف بلغتهم –اللهم الذين أخذوا منهم وقضوا السنين في المدارس– يتمّان حديثا لهما بلغة الآباء والأجداد، حتى أننا شهدنا مرة أربعة أصدقاء: أحدهم مسيحي سوري، والثلاثة الآخرون مسلمون مصريون، يأخذون علي أنفسهم العهود بألا تجري علي ألسنتهم كلمة عربية، وأكرم به من عهد!

وقد كنا نرجو أن تصلح حال هذه اللغة مع عود المدنية إلى الشرق، وانتشار المدارس فيه، وتنبه الأمم الشرقية إلى ما صارت إليه من الخمول والانحطاط بسبب إهمالها العلم، ونهوضها إلى الاستعاضة عما فات. فإذا التمدن الذي نأخذه هو الضربة القاضية، وإذا الدواء الذي نلتمسه هو الداء القاتل؛ لأننا لا نجد بين شبابنا المتعلمين إلا من يأنف من أن يرى ممسكا كتابا عربيا، ويخجل من أن يسمع متكلما بلغة وطنه.

ولسنا ننكر أن خطة التعليم في بلادنا هي العلة الكبرى في هذه المصيبة الدهماء، ولكننا لا نجد بدًا من الإقرار بأننا نساعد بأنفسنا علي نجاح هذه الخطة التي يقصد بها إلى قتل اللغة العربية في بلاد المشرق.

ولسنا نود الدخول هنا في موضوع الكلام علي المدارس وطرق التعليم في الشرق، فإن لذلك حديثا خاصا به سوف يأتي في مكانه من هذا الكتاب. ومع ذلك فإننا لا نجد مندوحة عن الجهر هنا بأن إهمالنا لأمر لغتنا العربية قد أصبح متجاوزا كل حد، حتى لأننا نرى الأجانب يتعرضون لاستبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية، بل نراهم يسعون في استبدال أحرفنا العربية بأحرف إفرنجية، بحيث لا يبقي لهذه اللغة أثر ماثل للعيون والأبصار وهم ينفقون في السبيل ما عز وهان من النضار، ونحن ناظرون إليهم نظر المتفرج، كأن اللغة التي تُضرب علي أم رأسها لتُقتل شر قتله ليست لغتنا.

بل نحن لا نكتفي بالوقوف لدى هذا الأمر الفظيع في موقف الفرجة وعدم

الاكتراث، ولكنك تجد عندنا في قلب مصر –وهي ملجأ العربية، وحمى الكاتبين بهذه اللغة الشريفة– من يطبعون لأعداء اللغة كتبهم، ويوزعون نشراتهم، ويذكرونها في جرائدهم، ويجادلون أصحابها في صلاحيتها وأوجه النقص فيها.

وليس ذلك فقط، بل نحن نجد بين رجال الحكومة الذين يمثلون الهيئة الرسمية من يناقش المشيرين باستبدال اللغة الفصحى بلغة العامة، ويتبادل معهم الآراء في هذا الموضوع كأن الحديث فيه جائز مسموح.

فهل مثل هذه الأفعال مما يدل علي الوطنية؟ وهل ترجو أن تقوم لشعب قائمة وهو يساوم علي قتل لغته وطمس آثارها؟. لعمري إن الشعب الذي لا يحب لغته بحيث يفضلها علي أيه لغة سواها، لشعب تقل فيه المروءة، وتهون عنده الوطنية. والأمة التي تقل مروءتها ويهون عليها وطنها ليست خليقة بأن ترفع إلى مقام الأمم الحية والشعوب المتمدنة.

والغريب أننا نشهد في كل يوم مثلا جديدا، بل أمثلة عديدة علي حب الأجانب للغاتهم، ومحافظتهم عليها، ومباهاتهم بتمكنهم منها، فلا يزيدنا ذلك إلا تهاونا فوق تهاون بأمر لغتنا، بل لا يزيدنا ذلك إلا امتهانا فوق امتهان لها.

ونحن عاملون علي التشبه بالأجانب في كل أمر يأتونه، ومسلك يسلكونه. فلماذا لا نتشبه بهم ونحذو حذوهم في حبهم للغتهم ومحافظتهم علي تقاليدهم وعاداتهم؟. هل رأيت اثنين من الفرنسيين، أو الإنجليز، أو النمسويين، أو الإيطاليين يتكلمان فيما بينهما بلغة غير لغتهما؟. فلماذا نتهافت نحن في اجتماعاتنا علي التكلم بكل لغة غير لغتنا، ولماذا يأنف الواحد منا أن يري متصفحا كتابا عربيا، أو جريدة عربية ويخجل من أن يقال عنه أنه يميل إلى قراءة الشعر العربي والتلذذ بسماعه؟ في حين أن الشعر العربي من أجمل ما نطقت به شعراء العالم، وأفصح ما جرى على ألسنة البشر، بل هو السحر الحلال علي ما

قال فيه أحد واصفيه.

لعمري أننا إذا نظرنا إلى ما نحن فيه من بوار سوق الأدب في بلادنا، وإقفال النوادي العلمية، وانحطاط الجرائد والمجلات، وقلة التأليف، وخمول الذاكرة الشعرية، وندرة المكتبات، وقلة عدد الشبان الذين تقودهم العاطفة الوطنية إلى تعلم هذه اللغة علي أصولها. ورغبتهم في كل شيء إلا في خدمتها والاشتغال بها لا نجد لذلك سببا آخر سوى إهمالنا لأمر اللغة العربية، وعدم اكتراثنا بها، فكأنها إن عاشت، أو ماتت علي حد سواء.

ولو تدبرنا الأمر من أصح وجوهه لحكمنا غير هذا الحكم، وأدركنا أن الاحتفاظ باللغة والغيرة عليها بمثابة الاحتفاظ بالجامعة الوطنية نفسها؛ لأن اللغة من جملة الروابط الوطنية، بل هي أوثق عرى الوطنية، وأمتن دعائمها، وأمنع سياجًا لها.

ولو كان الشرقيون يدركون هذا الأمر لما وجدنا بينهم من لا يعرف لغته العربية وهو يتقن لغة، بل لغات أجنبية إلى حد أنه يجاري أهل الفصاحة فيها، ويسبقهم إذا سابقوه في مضمارها. وفي الحقيقة أننا لا نجد بين الناشئين من شبابنا من لا يقول الشعر الإفرنجي ويجيد فيه، في حين أننا لا نجد بينهم إلا ما ندر من يحسن قراءة سطرا أو سطرين من النثر العربي. وهي حالة قد أدت إلى بوار سوق اللغة إلى حد لا نلقى معه كاتبا عربيا إلا وهو يعتقد أن العلم مقرون بالإفلاس والشقاء، ولا نجد معه بين كبرائنا وأغنيائنا من يعرف شأن كاتب عربي، أو يعظم له قدرا.

وقد أذكرتنا هذه الحالة رسالة كتب بها إلينا أستاذنا الفاضل العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء الغراء التي تصدر في القاهرة.

بعث بها إلينا من سوريا منذ نحو ثماني سنوات؛ ردا علي كتاب شكونا فيه إليه حالة الأدب العربي في هذا العهد، فرأينا أن نقتطف منها ما يجمل أن يكون رثاء لآدابنا العربية في هذا العصر، وعبرة للذين لا يحسبون لها حسابًا. قال: "أسألك أين الذي كنا نسمع عن نهضة الأدب عندكم، وغيرة الوطنيين في تلك الناحية وسخاء أيديهم علي أدبائهم؟ ألم يكن في فضلات أموالهم ما يقوم بمجلة صغيرة في حجمها، رخيصة في ثمنها، قليلة المزاحم في خطتها، تشغل فراغهم سلوة، وتملأ مجالسهم أدبا، وتسود صفحاتها بذكر مآثرهم والذود عن حياضهم،

وتقول أن في عزمك الرجوع إلى مجلتك. كلا ثم كلا، إنه الرأي القائل، وأنه لمن وساوس الباطل، وقد بلوت من أمره أولا وثانيا ما يغنيك عن إطالة النصيحة. وإن كنت فاعلا ولابد فأصدر منها جزءا واحدا تقوم فيه علي ضريح الشرق خطيبا مؤبنا، وشاعرا راثيا يستعير مراثي إرميا في مراثي قومه وأرضه حتى تبكي وتستبكي. إن وجدت في تلك الرمم المتحركة قلبا يشعر أو عينا تدمع. ثم انقش ما تكتبه علي لوح ذلك الضريح وشج رأس القلم وادفنه في تلك الرمم إلى أن يبعثه الله فيهم مرحوما مترضى عنه.

وإن توخيت بعد ذلك وجها من المعاش فاستعر لك ثوبا من الجهل تتردي به، وبرقعا من الخلاعة تستر حمرة وجهك أمام عيني نفسك، وتمسح ندي جبينك عن بشرتك الرقيقة، ثم اتبع القوم في سبيلهم، إنه اليوم هو السبيل"

ثم قال في موضع آخر من تلك الرسالة: "وإنني لا أراك إلا متحاملا علي نفسك بما لا تحتمله، جاهدا إياها في إدراك خطة ليس في وسع الأيام أن تماليك علي نيلها؛ لأنه ما دامت بضاعة الأدب كاسدة، وأهله معدومين فأنت أشبه بمن يطلب الثلج من الرمضاء، ولتمس العشب في ظهر الصفاه الصماء"

ونحن قد استشهدنا بما كتبه إلينا الأستاذ منذ نحو ثماني سنوات للدلالة

علي أن آفة إهمال اللغة ليست بالحديثة العهد عندنا، وأنها قد أصبحت علة مستحكمة وداء دفينا لا دواء لهما إلا المثابرة جهد المستطاع علي إحياء اللغة بعد موتها، وذلك بإقبالنا علي كل ما هو عربي من الكتب، والمجلات، والصحف، والمسارح، والنوادي، وبتعليم أبنائنا لغتنا، ولغة أجدادنا، وآبائنا، وبلادنا قبل كل لغة سواها. ونحن بخدمتنا هذه اللغة إنما نخدم أنفسنا وبلادنا بما يعود علينا خيره، ويؤول إلينا نفعه وبره، والله الموفق.

الفصل التاسع عشر

الدين والوطن

لم يكن في النية أن نعود بعد وضعنا فصل الدين والتربية إلى مثل ذلك الموضوع، ولكننا عثرنا في أحد أعداد مجلة "الموسوعات" الغراء التي تصدرها في القاهرة لجنة من أفاضل الكتاب المصريين بإدارة حضرة الفطن اللوذعي أحمد أفندي حافظ عوض علي بحث رائق في رابطة الدين لحضرة الأستاذ الألمعي الشيخ محمود أبو النصر: أستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس. وقرأنا فيه شذرة ذات علاقة بموضوع الدين والوطن، والجامعة الوطنية، فآثرنا نقلها هنا للدلالة علي أن ذوي المدارك السامية الذين يعرفون حقيقة الدين، ويدركون ماهية الوطن يحكمون حكما صائبا عادلا: بأن اختلاف المذاهب لا يؤثر في الوطنية الحقة، ولا يجعل اختلافا بين العناصر التي يتألف منها سكان البلاد.

ونحن إنما عدنا إلى طرق باب هذا الموضوع الخطير، لأنه من أعظم المؤثرات علي تربيتنا العامة، وأكبر الأسباب في ما هو واقع من الانقسام العظيم بين عناصر الشرق. ولاسيما في بلادنا العثمانية، والمصرية التي أوقفتنا لخدمة هذا الكتاب.

ولا شك في أن كثيرين من قراء كتاب العلم والتربية لا يزالون يذكرون المقالات والفصول المطولة التي خصصناها فيما مضى، سواء في جرائد القِطر، أو مجلاته لدعوة الشرقيين عامة، والعثمانيين خاصة إلى الائتمار بأوامر الوطن

ونواهيه، ونبذ التعصب الديني الممقوت، واحتساب العثمانيين كلهم وطنيين علي السواء مع غض النظر عن المذهب الديني الذي هم فيه؛ لأن الوطن لا دخل له في المذهب، واختلاف الدين بين اثنين لا يمنعهما أن يكونا ولدي وطن واحد. ولقد عدنا إلى تلك الدعوة في فصل التربية والدين الذي تقدم إيراده في صدر هذا الكتاب، ونحن عائدون الآن إليها بلسان واحد. رجال المسلمين الأفاضل الذين يوقرون دينهم، ويحترمون شريعتهم، ويجلّون مذهبهم، ولكن ذلك لا يمنعه عن الاعتراف بالجامعة الوطنية، ووجوب نبذ التعصب المذهبي لخدمة الوطن والبلاد.

ونحن ننشر هنا الكلام الذي وقفنا عليه في مجلة "الموسوعات"، مؤملين أن يحل لدى مواطنينا في المنزلة السامية التي هو جدير بها، وأن يقتفي الكتبة آثار صاحبه الفاضل في تنوير أذهان العامة، وتبديد غياهب الجهل والتعصب؛ لأن أجل خدمة يؤديها الشرقي لبلاده في هذه الأيام التي كثر فيها أعداء الشرق وخصومه أن يعمل علي تأليف قلوب أبنائه، ويحضهم علي نبذ التعصب الذي أنتج التفريق والانقسام بينهم وكان سببا في تقويض أساس جامعتهم الوطنية، وتفريق كلمتهم المجتمعية.

أما قول الأستاذ فهو بمبناه الرائق ومعناه الشائق:

"دع كلا ودينه. دع المسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَّدًا رسول الله، والنصراني يقول بالأب والابن وروح القدس، (وإن كان لا يُري في الحقيقة غير إله واحد)، وخل إليهودي يوحد بالله سرا وعلنا ويعبده علي شريعة نبيه موسي، واتل إذا حمى وطيس الجدل "أنا أو إياكم لعلى هدى، أو في ضلال مبين". ثم قل إن جمعك بهم وطن" يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم"، نحن وإن اختلفنا دينا أبناء وطن واحد.

فليجعل كل قوم دينهم رابطتهم الخصوصية أولا، ثم المرشد الأمين لسيرهم مع الغير، ثم لتجتمع طوائفنا أمة واحدة. فكما أن للدين علينا حقا فللوطن علينا حق، وللجنسية علينا حق، وللغتنا علينا حق، ونحن عن هذه الحقوق مسئولون أمام الله والناس وكفى به داعيا إلى وجوب الاتحاد بيننا. فلنتحد من هذه الجهة قلبا، ولسانا، ويدا كما اتحد غيرنا من الناس في خدمة بلادهم وإن اختلفوا مذهبا ومشربا. هذا هو الوطن مرتع الآباء، ومنبع السعادة والشقاء، وكلنا فيه شركاء متجاورون.

دخلنا أرضه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

وارشقنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم

فهل أنتم فيه متفقون ولأمانتكم وعهدكم راعون؟. إذن لكنتم أمة واحدة، ولسعدتم كما سعدت تلك البلاد الغربية التي إذا ذكر اسم الوطن لدى أهلها انتبذوا اختلاف الأديان وراءهم ظهريا، واجتمعوا قلبا واحدا كأنما دينهم الوطنية ليس إلا. يبذلون في إعزازها الأنفس والأموال، ويجاهدون في سبيلها مجاهدة الأبطال، إن ماتوا فشهداء، وإن عاشوا فسعداء.

كم بين قوم إنما نفقاتهم مال، وقوم ينفقون الأنفس

أترى هؤلاء أقل درجة عند الله من مجاهدي الحروب الصليبية مثلا. وعليه فإذا تعددت الأديان في أمة، وجاز أن يستند من وراء وحدة الدين إلى شيء آخر، فذلك الشيء هو وحدة الوطنية.

فليتدبر هذا الكلام الذين لا يزالون منا يذكرون الدين في إزاء الجنسية والمذهب قبل الوطنية، وليجعلوا نصب أعينهم، ولينقشوا على صفحات قلوبهم قولا مؤداه: أن الدين لا دخل له في الجنسية، وأن العثماني عثماني، والمصري

مصري مسلما كان، أو مسيحيا، أو إسرائيليا. وإنما الكل أبناء وطن واحد، ورعايا راية واحدة، تجمعنا البلاد، وتضمنا اللغة، وتقربنا العادات، وتقيدنا التقاليد، فلا نجعلن الدين يأمر بحب الوطن والتفاني في خدمته سببا في سقوط الوطن، وضياعه. وعلي الله الاتكال.

الفصل العشرون

حب الوطن من الإيمان

لله در قائل هذه العبارة. وسقيا، ورعيا لرجل ينقشها لا علي ورق وقرطاس، بل علي صفحات الصدر، وفي ثنايا الضمير. ونحن لا نطيل الكلام في حب الوطن بعد ما تقدم لنا إيراده في الفصول السابقة، بل نضمن هذا الفصل قصيدة غراء لأحد أمراء الشعر العربي في هذا العصر: وهو صديقنا المبكي أدبه، المأسوف علي شبابه، المرحوم نجيب الحداد. وأن في ما حوته من العواطف الوطنية كفاية لها عن الوصف والتعريف وهي:

يا بـني الشـرق أيـن ذاك الضـياء	أيـن تلـك النفـوس والآلاء؟
أيـن ذاك المقـام تحـده الشـمس	بهـا، وأيـن ذاك العـلاء؟
أيـن مـن طـاولوا النجـوم فـودت	شـرفا أنهـا لهـم حصـباء؟
أيـن أرض قـد خصـها الله بالـوحي	وجـاءت مـن قومهـا الأنبيـاء؟
أيـن مـن أسسـوا الممالـك منـا	فاقتـدت بعـدهم بهـا الغـرباء؟
قـد عهـدنا في الشـرق مطلـع	أنـوار، فمـا بالـه عـراه المسـاء؟
أي شـيء جـري علـي الكـون حـتى	انقلبـت عـن نظامهـا الأشـياء؟
فرأينـا غـرب الـبلاد منـيرا	وغـدونا، وشـرقنا الظلمـاء
لسـت أعـني بالنـور شمـس سمـاء	بـل شموسـا مـا أطلعتهـا سمـاء

أبرزتها أيدي الرجال بآفاق ... ذكاء تغار منها ذكاء

هي شمس العلا تمثلها الشمس ... كما مثل النجوم الماء

كتبت أحرف المساواة فيها ... قتلتها حرية وإخاء

كلهم كلها محبة أوطان ... ورأس الإيمان ذاك الولاء

عظّمته ممالك الغرب حتى ... بلغت منه في الورى ما تشاء

عرفت أنه الدليل إلى الخير ... وأن الضلال فيه اهتداء

فأراقت دماءها وبنته ... بجسوم لها ونعم البناء

واطرحناه نحن في الشرق حتى ... صد عنا، وطال منه الجفاء

لا لعمري بل طال منا جفاء ... عنه، واستحكمت بنا الأهواء

من تخلى عن حبه لم يكن للحب ... ذنب فالحب منه براء

ليس حب الأوطان في لبس خز ... واختيال تغار منه النساء

واقتداء بأهله كيف جاءوا ... في الذي لا يفيد فيه اقتداء

وانصراف عن كل علم، وتفريق ... قلوب بها يقوم النماء

واشتغال عن البلاد بأهواء ... نفوس قد صد عنا الحياء

واطراح الملا أولي الفضل ميلاً ... لغوان تميلها الصهباء

واتخاذ المناصب الغر أسباب ... عداء ترمي بها الأبرياء

إن حب الأوطان عدل، وحلم ... وثبات، وعزة، ووفاء

واصطبار على الزمان ... وتأليف قلوب، وغيرة، وإباء

وجهاد في كل فضل وحرية ... قول، وأنفس شماء
وقلوب لا تنثني في الذى نبغى ... ولو حال فيه نار وماء
وأكف تعاقدت تكتب المجد ... لو أن الحروف منه دماء
ذاك حب الأوطان يا أيها الناس ... وهذه صفاته الغراء
كم ننادي يا قومنا ثم لا نسمع ... غير الصدى، وكم ذا النداء؟
أو لسنا العرب الأولي ملكوا المدن ... ودانت لديهم الغبراء
والأولي سطروا المعارف واستجلوا ... خفايا الورى فزال الخفاء
والأولي طالما أعانوا سواهم ... فلنعن نفسنا ففي ذا غناء
ليس نيل العلا بصعب إذا سارت ... إليه حمية عرباء
نحن أبناؤها، ومن نصر الآباء ... تنصر بفضله الأبناء
كلنا واحد لنا وطن ... فرد، وإن عددت بنا الأسماء
إنما نحن هيكل واختلاف الاسم ... وهم فكلنا أعضاء
وسبيل العلا قريب هو الألفة ... فيها المنى، ومنها الرجاء
وعلى الله نجحنا في ختام أن ... ثبتنا، وصح منا ابتداء

ولنردفن هذه القصيدة بصلاة نجعلها ختاما للكلام في حب الأوطان، فنرددها في كل صباح وكل مساء، ولتكونن بعد الصلاة إلى الله أول ما نعلمه لأولادنا، ونطبعه في ذاكرة أبنائنا وبناتنا، هاتفين السلام أيها الوطن المحبوب.

أيها البلد الذي فيه ولدت وربيت، وفي ظلاله نعمت وشقيت. السلام أيتها الأرض التي أول ما دبت رجلاي دبت عليها، وأيتها السماء التي أول ما

ارتفع نظري ارتفع إليها. السلام أيها القوم الذين أول ما أنفك لساني من عقاله انطلق بكلمات لغتهم، وأول ما خفق فؤادي خفق لولائهم ومودتهم. السلام أيتها الماء، والأنهار التي أول ما سبحت سبحت فيها، وأيتها الأدغال والأشجار التي أول ما في ظلالها استظلت. السلام علي الوطن الذي ولد فيه قبلي أبي، وجدي، وأمي، وفيه أخي، وخالي، وعمي. السلام علي الأرض التي إليها أنتمي، وبرايتها أحتمي.

السلام أيها الوطن أنت لا سواك. الحبيب إلى قلوبنا، المسلط علي النفوس. أنت الأب، والأم، والصديق، والرفيق، والمرشد، والحارس. بل أنت الكل ونحن جزء منك، فإن سلمت سلمنا، وأن اعتللت اعتللنا، فهذه ذراعنا نوقفها لخدمتك، وهذا دمنا نريقه في سبيلك. وليباركك الله من سمائه، ويحل عليك نعمته من علائه. اللهم أمين.

هكذا فلتكن شريفا، فليقل كل منا المجد لله وللوطن.

لا تدعني إلا بيا عبده   فإنه أشرف أسمائي

والسلام علي من عرف الوطن وأحبه وأدرك إلهي واتبعه.

الفصل الحادي والعشرون

العلم في الشرق

أما وقد تم لنا الكلام في التربية العامة، والعائلة، والوطن. فنأخذن بأطراف الحديث علي العلم عندنا، وحالة المدارس في بلادنا، مختصين مصر بهذا الموضوع، فهي البلد التي عاصرنا فيها غصن الشباب، واجتنينا ثمار العلوم والآداب، فلا بدع إذا جعلنا هذا الموضوع وقفا عليها، ولا غرابة في أن نرجع بما نقصده من الخدمة إليها.

ومن وجه آخر فإن بين مصر وسواها من البلاد العثمانية: كسوريا مثلا، فرقا عظيما في ما يتعلق بالأحوال العلمية، وذلك أن الكلام في هذا الموضوع يجب أن يوجه في العثمانية إلى الحكومة، وفي مصر إلى الأمة نفسها.

ولسنا نظن أن أحدا يخالفنا في القول بأن الشعب في بلاد العثمانية عامة –وسوريا منها خاصة– أرقي من الشعب بدرجات عديدة. ولذلك نحن نرسل الكلام في ضرورة العلم علي وجهة العام، ثم ننظر في هذا الأمر إلى مصر نظرا خاصا، لا نقصد فيه إلا إلى الخدمة العامة التي هي غايتنا من وضع هذا الكتاب، فنقول: جاء في الحديث الشريف: "مجلس علم خير من سبعين سنة عبادة". وقد قيل أيضا: "العلم خير من صلاة". وقال الأمام علي: "العلم زين وتشريف لصاحبه".

أجل، والعلم للمرء كالمطر للأرض، فمن لا علم عنده، ولا معرفة له كالأرض القاحلة الجدية، لا يرجى له نفع، ولا يؤمل منه خير.

والعلم وسيلة الإسعاد، وواسطة نجاح كل بلاد، فلذلك ترى الحكومات باذلة جهدها في سبيل انتشاره، تعضد كل مشروع علمي، وتساعد المدارس، وتحث الناس علي طلب المعارف وتحصيل الفنون. وترى الرجال العظام مقبلين علي إكرام العلماء، ورفع منازلهم، وتعزيز مقامهم، ومعرفة قدرهم، والإقرار بحاجة البلاد إلى العالم الحكيم أكثر منها إلى صاحب السيف ورب الدينار. وشاهد القول نصب العين، وتحت الناظر، فانظر معنا أيها القارئ إلى البلاد التي كانت في حالة الخشونة والتعاسة أيام كان الجهل فيها ضاربا سرادقه، كيف أصبحت بعد ما نشر العلم فيها لواءه، وإلى أية درجة وصلت من السعادة والرفاهية؟. ثم عد بي نلق علي ديار كانت للعلم مهدًا، فنعمت به زمنا، ثم أهملته وتخلت عنه، فخسرت سعادتها، ولحق بها الخراب والدمار، فكأنما كان العلم لها حياة، ولجسمها روحا، فلما جف ماء الحياة وفارقتها الروح ماتت وتلاشت.

وأننا إذا نظرنا بعين البصيرة إلى حالة الوطن العلمية نراها منحطة إلى درجة لا يؤمل معها نجاح، ولا يتوخى فلاح. فالعلم يقتصر عندنا منه في غالب الأحيان، وعند أكثر الناس من قومنا علي معرفة بعض قواعد اللغة العربية، ومبادئ لغة أخرى أجنبية، غير ناظرين إلى العلوم العالية، ولا مهتمين بتحصيل الفنون وإدراك الصنائع التي عليها يعول، وإليها يرجع في إسعاد بلاد، وإنهاض أوطان.

ونحن العرب قد كانت لنا دولة علم باهرة قد سكنا قصورها، وشمس علوم زاهرة فكسفنا نورها، وارتضينا بعد العلم بالجهل، وخالفنا طريق أجدادنا المتقدمين الذين بنوا للمعارف في بلادهم صرحا مشيدا، وأقاموا للعلوم منارا رفيعا. فازدهرت في أيامهم البلاد، وسعدت العباد، وراجت الأحوال، وتحققت

الآمال، وابقوا لنا من بعدهم دستورا لاتباع عملهم أثرا للعلم والهمة لا يضمحل، وعرشا من المجد والعز لا ينثل. أجل ذهبوا ولسان حالهم ينادي

إن آثارنا تـــــــدل علينـــــــا فـــــــانظروا بعـــــدنا إلى الآثار

فنظرنا إلى الآثار، ولكن بعين الفرجة لا بقصد الاتباع. فأين الكتب التي ألفوها، والمكاتب التي شيهدوها، وأين التعاليم التي رسموها، والطرائق التي اختطوها، والصنائع التي ابتدعوها، والفنون التي اخترعوها، وأين، وأين، وأين...؟

غرّقت بعضها الماء، وأكلت بعضها النار، ولحق بنا من بعدها الخسران، والذل، والعار...

علي أننا لسنا في موقف الانتقاد الإهمال، ولا في مقام التقريع علي التقصير، بل نحن نقصد إلى بيان فوائد العلم في الوطن العزيز؛ ليعلم الناس أن تقدم بلادنا ونجاحها متوقفان علي تقدم المعارف وفلاحها. فكيف يرجى إصلاح الأحوال إذا كنا نجهل وسائله؟. وكيف يؤمل شفاء الداء إذا كنا لا نعرف الدواء؟. ولقد وضح وثبت بالاختبار أن بلوغ بلاد ذروة المجد، وقمة النجاح لا يتم إلا بغزارة المال، وعظم الثروة، وأن المال هو أساس الأعمال. فبأية واسطة نجلبه؟ وكيف يستدر في البلاد وابلة؟. سؤال تقف عنده الأفكار، وتحط لديه جاريات التبصر والافتكار، بل أمر كرس له الباحثون معظم أيام الحياة، فما وجدوا له إلا جوابا واحدا لا ثاني له، فقال أجمعهم: بالعلم.

أجل، فما أخطأوا. أفلا تري رأي العين كيف تنجح الصنائع، وتزهو الفنون، وتنمو الزراعة، وتروج البضاعة، ويكثر الاختراع، وتزهر الأعمال. فتقوي همم الرجال، وتجري بين أياديهم ينابيع الثروة والمال؟.

قف معنا وقفة المتفرج تر في بلاد العلم ما يدهش البصر، ويبهر النظر، ويسر القلب والخاطر، ويشرح الصدر والناظر، من بدائع الأعمال، وغرائب الأشغال. أفتدري كيف يستطيع المرء التغلب علي تلك الأهوال؟. يستطيع ذلك بما ندعوك إليه، مثابرين علي حثك أيها الوطني عليه. يستطيع ذلك بالعلم، وما نكثر من المقال دون إبداء البرهان، وبسط الإيضاح والتبيان، فإن خير الكلام ما وضح وبان... لسنا نجهل أننا بافتقار كلي إلى ما يعضد أعمالنا، وينجح أشغالنا، ويصلح زراعتنا، وينهض ساقط صناعتنا. بل نعلم علم اليقين أن الحالة التي صرنا إليها لا تسر صديقا، ولا ترد كيد مبغض. فلقد ذهبت من أيدينا الصنائع، والعلوم. وقلت بذهابها ثروتنا، بل ذهبت علي أثرها أموالنا، وأصبحنا كأننا لم نكن أصحاب الصنائع، ومخترعي الأعمال. فوجب علينا بعد ذلك أن نسعى جهدنا، ونصل الليل بالنهار سعيا إلى تحصيل ما كنا أربابه قبل فوات الوقت، والوقت ثمين، وقبل ضياع الفرصة، والفرصة لا تضاع، فإنها متى أفلتت لا تعود. ولا ملجأ لنا غير العلم، فمتى انتشر بيننا انتشارا عاما أتقن الزارع فن الزراعة، وتفنن الصناع في أعمالهم، وظهر المكتشفون، والمخترعون، وعادت الصنائع إلى مجراها القديم، واشتغل الكتاب والمؤلفون بما هو مهمل لقلة الطلاب، وعدم وجود الراغبين.

ولقد أعجبتني من أحد الوطنيين بها يوما وهو ممسك بقطعة نسيج من الحرير، فتفحصها مليا، وقلبها في كفه، ثم قال: "أنظر إلى هذا النسيج، فهو يخرج من بلادنا بأرخص الأثمان، ثم يعود إلينا كما تراه، فنبتاعه بما عز وغلا. فما ترى ينقصنا لاصطناعه في وطننا، وبيعه بربح وكسب؟"

قلت: "ينقصنا أمران: العلم، والمال". قال:" أصبت ينقصنا أمران: ولكنهما الإرادة، والوطنية. فلو وُجدت الإرادة وكنا ممن لهم علي الوطن غيرة،

وفيهم حمية لسعينا وراء العلم مجتهدين، فأدركنا منه ما يكفل لنا مباراة غيرنا من الشعوب التي تباهينا بتقدمها، وحضارتها، وأصبحنا بجدنا وهمتنا، وبما نحن مفطورون عليه من الذكاء والنباهة نفاخر سوانا من الأمم؛ إذ ندرك قمة المدينة، وأوج الفلاح، ونعيش كسوانا في ساحة السعد، والرفاهية تحت سماء الحرية، والعدل، والمساواة، والإخاء "وهو وايم الله" كلام جدير بأن يكتب بماء الذهب، وينادى به علي رؤوس الأشهاد ليكون عبرة للمتقاعدين من قومنا. المتقاعدين عن السعي وراء ما يكسبهم راحة، ويوليهم أجرا، ويبقي لهم ذكا، تفنى الأدهار ولا تزول آثاره.

وما أخص في كلامنا عن العلم جنسنا القوي، بل لابد من تعليم الجنس اللطيف أيضا، وترويض أخلاقه بآداب العصر؛ لتكون المرأة مساعدة للرجل في أعماله، وشريكته في أشغاله، ومنيعة له علي تحمل الأتعاب والمصاعب، وذلك بقيامها قياما حسنا بتربية أولادها، وتدبير شأن بيتها كما سيجيء.

والحمد لله أن رجال الشرق –ولاسيما في مصر وسوريا– قد أدركوا فساد الخطة التي كانت متبعة في بلادنا الشرقية: من إهمال العلم، والتقصير في مجاراة الغربيين في مضماره، فتنبهوا إلى ضرورة استبدال القديم بجديد تبدد أنواره ظلمات الجهل، فأقبلوا علي بيوت العلم إقبالا يحمد، ولكن ليس من كل وجوهه؛ لبقية فساد في نوع التعليم كما سنبينه في موضعه من هذا الكتاب. علي أنه مهما يكن من الأمر نحمد الله علي هذه اليقظة؛ لأنها فأل حسن مبارك علي حد قول الشاعر:

وإذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أنه سيصبر بدرا كاملا

هذا ما قاله الشعراء، وقد قالوا أيضا: "وأول الغيث قطر ثم ينهمر"

ثم قالوا: "كل من سار علي الدرب وصل" إلى غير ذلك من الأقوال والمعاني السامية المثبتة أن من الشعر لحكمة.

وقد أخطر هذه الأقوال ببالنا ما شهدناه في هذه البلاد من النهضة الباهرة، ونريد بها نهضة الشعب من لقاء نفسه إلى ارتياد موارد العلم الصحيح، والتربية الحقة مما نذكر تاريخه للدلالة علي أن الهلال متى بدا لا يبطيء أن يصير بدرا، ولا يلبث أن يبلغ التمام.

وذلك أن حضرات القراء يذكرون كيف كان يساق ابن المصري من العامة، بل من الخاصة إلى المدارس عن غير رغبة منه، وبالرغم عن أبيه، وأمه كأنه إنما يساق إلى السجن، وموقف العذاب. ثم انتقل الشعب من هذه الحالة إلى حالة أخري، فصار أقل تعصبا في الرضا بإرسال أبنائه إلى المدارس. ثم أصبح يرغب في ذلك، ويسعى إليه. ولم تمض علي ذلك مدة حتى صار ينفق من أجل ذلك الدرهم والدينار، ويطرق من تلقاء نفسه أبواب المدارس مسترحما قبول أولاده بين صفوف المتعلمين، وكثيرون من الأهالي كانوا –ولا يزالون– يتحملون النفقات الباهظة لإرسال أبنائهم إلى أوروبا، حيث يتمون العلوم التي بدأوا بها في هذا القطر، ويأخذون بأطراف العلوم السامية التي لا وصول إليها في مدارسنا.

وهي خطوة خطاها الشعب المصري في سبيل الحضارة والتقدم المصري، في مدة لم يكن أقصر منها في تاريخ الشعوب. ومع ذلك فإننا نراه في هذه الأيام ناهضًا ليخطو في هذا السبيل المحمود خطوة هي أعظم من الخطوة الأولي. وذلك أنه لما رأي الاحتلال الأجنبي قد أخذ يعيث في مدارسنا فسادا بحجة الإصلاح، ويعمل علي طمس آثار لغتنا العربية، وقتل عواطفنا الوطنية بإفساد طريقة التعليم. بحيث يكبر أولادنا بين أساتذة من الأجانب، ويشبون علي غير ما يجب أن يشبوا عليه؛ ليكونوا في الحقيقة رجال الوطن القادرين علي خدمته،

والأخذ بناصرة مما أشرنا إليه ونبهنا عليه المرة بعد المرة. قام يسعى إلى الاستغناء عن المدارس التي أوجدتها له الحكومة، وقَلب الاحتلال نظامها، فانعكست الغاية المقصودة منها.

وهو سعى لا نري أجمل ولا اسمي منه، بل هي نقطة بيضاء في تاريخ الشعب المصري في ختام القرن الذي يسمونه عصر العلم والمدنية.

أجل، وأي سعى أجمل، بل أي عمل اسمي من أن تسعى أمة إلى تعليم نفسها بنفسها، وتعمل علي أن تتولى تربية أبنائها بيدها. ورحم الله القائل:

مـا حـك جلـدك غـير ظفـرك　　　فتـول أنـت جميـع أمـرك

ذلك ما شعر به المصريون في هذه الأيام، فهبوا إلى إلقاء نير التعليم الذي يريد المصلحون أن يلقوه علي عاتقهم، ونِعم ما فعلوا. ولقد كنا في مقدمة المنبهين إلى هذه الحالة، المنادين بالأمة، إلى أن تتولى كل أمرها، وتحك جلدها بظفرها قبل أن يفوت الأوان وتضيع الفرصة. والحمد لله أن صوتنا قد سمع، وكان له دوي نبتهج له، ونفرح به. وبذلك صار الهلال بدرا، وتم تاريخ النهضة العلمية. فبعد أن كانت الأمة تهرب من المدارس كأنها السجون أصبحت تتأهب لتشييدها علي حسابها، وبنائها علي نفقتها.

ونحن نقابل بالمسرة، والابتهاج مطالع هذه النهضة الشريفة؛ لأننا نعتبر أن الأمة التي تضع كل اتكالها علي الحكومة في تعليم أبنائها، وتربيتهم دون أن تشاركها في ذلك العمل العظيم بإنشائها المدارس الحرة، ومجالس العلم المستقلة لهي أمة لا أمة، أو شعب لا يأهل لأن يكون في مصاف الشعوب. وغني عن البيان أن العلم هو دون سواه واسطة إلى ترقية الشعوب، وسلم تبلغ بها الأمم قمم المدنية والحضارة. وهو الميزة الكبيرة التي تفرق بين الشعوب الحية،

والشعوب الميتة. فالأمة المتعلمة هي الأمة الحية، والأمة الجاهلة هي الأمة الميتة في الحقيقة؛ وذلك أن العلم هو حياة الأقوام، والقوة التي يتذرعون بها إلى تسلق المعالي التي يريدونها، وإلى كبح جماح الصعوبات التي تعرض لهم في أدوار هذه الحياة، وهو الحسام الذي تجني به أبعد غايات الشرف، والمجد. والآلة التي تستخرج بها معادن الثروة، والغنى. فالأمة المتعلمة إذًا هي الأمة الحية قياسا علي ما لديها من أسباب العمران، ووسائل التقدم؛ لأنها بالعلم تزيل كل عقبة تقوم في سبيل نجاحها وتقدمها.

أما الأمة الجاهلة فإنها بالطبع عادمة كل أسباب التقدم، وبالتالي كل أسباب الحياة. ولذلك فهي محكوم عليها بالتأخر، وبمعني أوضح بالدمار والموت.

ولا مراء في أن موت الشعوب لا يكون فقط بإبادة الشعب ومحو آثاره من الوجود، بل يكفي لأن يحسب الشعب ميتا أن يكون جاهلا خاملا، لا تجارة له، ولا صناعة عنده، ولا أدب يؤخذ عنه. وأن يكون محتاجا في أموره إلى الشعوب الأخرى، يأخذ منها كل شيء، ولا يعطيها سوى المال الذي لديه.

ولكن الشعب يحسب حيا مهما كان صغيرا إذا كانت لديه مادة يبادل بها الشعوب الأخرى موادها، فلا يكون كالبقرة الحلوب يعمل لغيره، ويستثمر لنفع سواه. ولعمري أنه يخلق بالمريدين الخير للشرق، الطالبين إصلاح حاله، وانتشاله من الوهدة التي هو واقع فيها، أن يمعنوا النظر في أمر بالغ غاية الشأن وحد الخطارة: وهو أن الأمة لا تكون أمة، والشعب لا يسمى شعبا إلا إذا كانا يعرفان ما لهما من الحقوق فيطلبانها، وما عليهما من الواجبات فيقضيانها. وغني عن البيان أن هذه المعرفة الواجبة لرفع الأمة إلى مصاف الأمم لا تنال إلا بالعلم، واقتباس أنوار المعارف. وأول ما يشرط في هذا الشأن معرفة لغة ذلك

الشعب، وتاريخه، وحقائق دينه. ولنأخذن مصر قياسا نقيس عليه في هذا الموضوع؛ لنرى إذا كانت بلادنا سائرة كما ينبغي في طريق النهضة العلمية فنقول:

أننا إذا نظرنا إلى عدد الذين يعرفون القراءة البسيطة في هذا القطر نخجل لهذه الأمة التي يوشك عدد أبنائها أن يبلغ العشرة ملايين. وإذا أحب القراء برهانا علي هذا القول فلينظروا إلى هذه الأرقام الرسمية الواردة في حساب الإحصاء الأخير.

فقد جاء فيه أن عدد سكان مصر يبلغ ٩ ملايين و٧٣٤ ألفا، و١٤٠٥ أنفس. وعدد الذين يعرفون القراءة من هذه الملايين ٤٣٥،٩٩٣ نفسا من الذكور؛ أي بمعدل ٨٠٨ في المائة، و٣١٨،٩٣ من الإناث؛ أي بمعدل ٦ في المائة، وجملتهم من الجنسين ٤٦٧،٨٨٦ نفسا فتأمل. ومعلوم أنهم ليسوا كلهم من المصريين، بل بينهم الأجانب علي اختلاف أجناسهم. والبلاد التي لا يعرف القراءة من سكانها أكثر من نصف عشرهم لخليقة بأن تجعل همها العلم، وتوجه كل عنايتها إلى تكثير عدد المتعلمين، وتقليل عدد الأميين فيها.

ولسنا نريد بالعلم في هذا الموقف العلوم العالية، والمعارف السامية، بل نقصد به تعليم القراءة والكتابة لابن الشعب، بحيث يعرف لغته، وتاريخ بلاده، وقواعد دينه، وبحيث إذا وقع تحت يده كتاب، أو جريدة فيها ذكر الوطنية، أو الواجبات القومية يكون في وسعه أن يتصفحها، ويفهم معانيها. فالذي نطلبه الآن إذًا بإلحاح عظيم كما يلتمس العليل الكثير الألم دواء يخفف به ألم العلة، ويدفع به مخاوف الموت، إنما هو تعليم أبناء الشعب، وتربيتهم تربية شرقية وطنية. أما العلوم السامية التي لا تأهل إلا للخاصة فالأمل وطيد، في أن أغنياء الأمة وكبراءها يتخذون لتعليم أبنائهم الخطة التي يجب علي وجوه كل أمة أن

يتخذوها.

وليس لبلوغ الغاية التي تقدم لنا بيانها أنفع من تكثير عدد المدارس الأهلية لتعليم أبناء الشعب، وتهذيب أخلاقهم، بل هي الطريقة الوحيدة التي تصل بها الأمة إلى هذه الغاية الحميدة، وكلما زاد عدد الذين يعرفون القراءة في القطر زاد عدد الذين يعرفون واجباتهم، وحقوقهم. وبمقدار ما يزيد عددهم يزيد عدد الأمة المصرية.

وخير طريقة للوصول إلى هذه النتيجة قيام لجنة وطنية تنشر المدارس في البلاد، حتى في القرى، والكفور. بحيث لا يبقي الشعب أميا كما هو الآن، ولا يكون عدد الذين يعرفون القراءة البسيطة من أهل مصر قاطبة من أجانب، ووطنيين ناقصا عن نصف عشر عددهم، وبالإجمال أن سبب تأخرنا جهلنا، ودواء هذا الداء العلم، فهو حاجتنا الكبرى، وإليه كل احتياجاتنا، وهو وحده السبيل إلى نهوضنا من السقطة التي سقطناها، والانحطاط الذي وصلنا إليه.

وقد طلب إلينا مرة أن نقف في مجتمع دعى إليه قوم كثير عددهم، ونخطب في حاجة الشرق الكبرى، فجري علي اللسان ما لا يزال مدونا في الخاطر من الحض علي اقتباس المعارف، وورود مناهل العلم. ونحن موردون هنا شذورا من ذلك الخطاب الذي كلما تقادم عهده تجددت حاجتنا إلى إعادته؛ لأن في الإعادة إفادة، وذَكّر أن نفعت الذكري. وهو:

"أيها الإخوان، والأعوان، لقد جمعناكم إلي هذا المكان حيث تجمعنا الوطنية، واللغة، والقصد. علي تفرق المذهب، والبلد، والرأي. رجاء أن نكون الواسطة في ضم قلوبكم، ورأب ما انصدع من أنفسكم، وتوحيد ما تفرق من كلمتكم، وتوجيه أنظاركم إلى محجة واحدة، وإرسال سهام أفكاركم إلى الغرض الأعلى، والغاية القصوى: ألا وهي خدمة الوطن العزيز خدمة صادقة، لا

تشوبها الأغراض، ولا تدنسها الغايات والأهواء.

ناديناكم وأنتم خير من أجاب، فلبيتم الدعوة، واجبتم النداء؛ إذ علمتم أن اجتماعنا لأمر جلل، وحال ذي بال. فأكرم بكم من قلوب شبت علي حب الأوطان! فدانت به وانعطفت بكليتها إليه، لا تدخر جهدا، ولا تضن بنفيس، فلا عدمتكم الأوطان. أما الذين تقاعدوا عن حضور هذه الحفلة متخلفين عنها إما إلى الملاهي السائدة علي عقولهم، وإما لرهبة ممن يكرهون الخير للبلاد الشرقية العربية، فلندع في ظلمات ضلالهم وسيريهم الغد أنهم هم الخاسرون، أما نحن فلنا شأننا، ولكل من دنياه حال يعمل بها، فلنعمل إذا بما انتدبنا إليه العناية، ووقفنا له النفس من إعلاء شأن البلاد، متكلين في ذلك كله علي أنفسنا من بعد الله، وإياه نسأل الهداية في السبيل الذي نسلكه، وهو المسئول في أن يسدد خطواتنا إلى ما به الخير لبلادنا، وسائر عباده، آمين.

وبعد، فإن من نكد الدنيا علي الحر الصادق أن يري الانحطاط قد استولي علي وطنه العزيز، وهو لا يجد إلى دفعه عنه سبيلا. ولقد اجمعنا في الاجتماع الأول رأيًا، واتفقنا كلمة، وعقدنا النية، ووطدنا العزم، وتألفت قلوبنا الملتهبة بحب الأوطان –وحب الوطن من الإيمان– علي أن نجعل وجهة حديثنا، وموضوع اهتمامنا في أعمال هذا المجلس النظر إلى الواسطة الفعالة في دفع المكروه، ودرء المفاسد عن البلاد التي عاصرنا فيها غصون الأنس في حدائق الصباء، ثم استنباط الحيلة لرأب صدع تلك الأوطان، وجبر كسرها. فإننا مكلفون في ذلك مطالبون به، ولا عذر لنا في إهماله؛ إذ كانت لنا بمثابة الأم، وكنا البنين. وأي ابن يرى جرح أمه يسيل فلا يغسله بالدموع؟، بل أي ابن يسمع أن أمه من فؤادها عليل فلا تنشق منه الضلوع؟. ولقد تفضلتم فكلفتمونا النظر في الأمر اعتقادا منكم أننا لذلك أهل، وعهدتم إلينا البحث

والتنقيب، فشمرنا عن ساعد الجد والاهتمام، ولم نخلف ظنكم بنا مع ما نحن عليه من قصر الباع وقلة المتاع. فلقد فتح علينا -ونحمد الله علي ما أولانا إياه، ونحن أحقر عبيده من الفتح الذي يؤهلنا لخدمة الأوطان- فجمعناكم إلى هذا النادي لنزف إليكم بضاعتنا، فانظروا إليها بعين الحلم، وأصلحوا ما فسد منها. فالإنسان موضع الغلط، وما نحن في الأرض بمعجزين.

موضوعنا أيها السادة والأخوان البحث عن علة تأخر الأوطان، والسعي وراء الواسطة التي تُنيلنا الأمنية والنجاح. أما علة تأخرنا فمعروفة مشتهرة عنا ألا وهي: الجهل الذي خيم فوقنا، والإهمال الذي تسلط علينا مع عدم النظر في العواقب. وما أفيض في الكلام على هذا الموضوع؛ إذ ليس فيكم إلا من يدري بأمره، ويذوق الآن مرارة عاقبته.

وأما وسيلة النجاح فهي النقطة التي ينبغي أن نوجه إليهاالإبصار، والمحور الذي يجب أن تدور عليه الأفكار... لا يتم نجاح شعب إلا باستقلاله، ولا يكون استقلاله إلا بعمله، وغناه. ولا سبيل إلى العلم، والغنى إلا بالجد، والسعي، والإصلاح. ولا إصلاح إلا مع الحرية، ولا حرية إلا متى عرف الشعب واجبه، وحقوقه. وهنا نقطة المسألة.

وكأننا بكل فرد منكم ينتظر أن نطيل الشرح عن كل هذه المواد، ونفصل كلا منها علي حدتها، ونعرفها تعريفا يدينها من فهم الجميع من السيد العالم إلى العامل، والحارث، والصانع، والجاهل. ولكن قد طاش سهم من ظن ذلك، وأخطأ الغرض. فإن الثمرة لا تُقطف إلا متى نضجت، ونحن نري شعبنا -وسيف الأسف يمزق أحشاءنا- لا يزال بعيدا عن التفكير بحراثة أرض هذه الشجرة، والعناية بها، ورعايتها لكي تنضج ثمارها بحسب شريعة الارتقاء، وناموس التقدم. فمن الواجب إذًا في بادئ الأمر أن نفتح أبصار الشعب

بالتعليم الابتدائي العام، فمتى تلقنه وأحسن فهمه نقوده إلى ما لا ندحه عنه للشعب الذي يسعى وراء الكمال: ألا وهو اعتبار نفسه في المنزلة الحقيقية التي هو فيها، ومعرفة ما للمرء من المقام في هيئة الاجتماع، وأن الرجل حر الإرادة غير مقيدا إلا بسلاسل الشرائع الطبيعية، والقوانين الوضعية المدنية، والنواميس المتعاهد عليها المتعامل بها. ومتى عرف ذلك أدرك من نفسه الحاجة إلى ما فوقه مما هو اسمي منه من معرفة الحقوق، والواجبات. فيسعي إليهاسعي عارف بما يجب عليه عمله للوصول إلى مبتغاه، وحينئذ فلا خوف من المناداة أمامه بالحرية، والمساواة، وفتح أبواب العلوم العالية، والمعارف السامية، والفنون والصنائع الجميلة التي هي مصدر الثروة، ومنبع الفخر والمجد عند كل أمه من أمم الحضارة.

هذه هي القواعد والأصول التي فتح بها علينا. والتي لا سبيل لأن نرومها الآن برمتها من عامة الشعب. فإن بلادنا ليست في حالة البداوة فنسير بها علي هذا النمط التدريجي، ولا هي في درجة الحضارة التامة فننهض نهضة واحدة للمطالبة بحقوقنا، وصيانة مصالحنا. ولا في طاقة خاصتنا أن تبدل أخلاق العامة مرة واحدة، وتبث فيها روح المدنية، وتسقيها العلم كالماء. والطفرة محالة، فالتأني إذا أولي، وهو خليق بنا في هذه الحالة الصعبة، والمقام الحرج. علي أن لكم لا يعفيكم –وأنتم خاصة الشعب وعيونه– من أمور يتوقف عليها مجرى التقدم في الحال. فاعلموا أنه لا بد لكم من بذل بعض ما في أيدي أغنيائكم من المال المتجمع، والذي لا فائدة من خزنه في زوايا الخزائن، بل من الواجب صرفه في الأمور التي تعود بالفائدة علي الوطن من إنشاء المدارس، والمكاتب، والمعامل، والمطابع، ومساعدة الكتاب، ونوادي الأدب، وتهذيب الأحداث، وتعليم الشبان، وتشغيل الفقير القوي، وإغاثة الملهوف، ثم إعطاء كل ذي حق حقه،

واعتبار كل في درجته، ومعرفة حقيقة الأحوال الإدارية والسياسية، والعلم بأن الرئيس كالمرؤوس تجاه هيئة الاجتماع، وأن لكل منهما حقوقا كما أن علي كل منهما واجبات. وما نكتمكم أن من وسائل التقدم في البلاد أن يكون وجوه الشعب، وخاصته، وعلماؤه ذوي اهتمام بشأنه، وسهر علي مصلحته، وأصلح رأي في أحواله، وأن يكونوا منتقدين عليه ما يجري فيه، غير خائفين سطوة، ولا عارفين غير صوت الحق. ومن مواجبهم أيضا أن يقودوا الشعب إلى الخير بآرائهم السديدة، وأن ينصفوا الضعيف من القوي، ويأخذوا للفقير من الغني، وأن يكونوا يدا واحدة، ويسعوا في ضم كلمة العامة، واستئصال الشقاق، ويؤلفوا حزبا وطنيا من شأنه المعارضة في كل ما ليس هو من مصلحة الوطن العامة، ويشجعوا كل ذي مشروع وصاحب اختراع، ويدفعوا بالوطني إلى مباراة الأجنبي، ويفضله عليه في المعاملة، وأن لا يحقروا شأن الصغير، ولا يدعوا للكبير سببا للاستبداد ولا سبيلا إلى الظلم، وأن يكونوا علي استعداد دائم لأن يقوموا أود الحكام ولو بحد السيف.

هذا ولما كنا الآن في مركز حرج وقد حظر علينا الاستقلال الذي هو خير راحة للأمة، وأعظم الغايات والأماني التي تطمح إليهاقلوب الشعوب، نري من الواجب علينا نحن الذين نصبتمونا للبحث عن الواسطة الفعالة في انتشال البلاد من الورطة التي وقعت فيها، والبلايا التي صبت عليها. أن نذكر لكم في هذا الموقف أننا لا نصل إلى ما نريده إلا بتقوية الشعب، وما نقويه إلا إذا علمناه أن له حقوقا، بل يجب عليه أن يطالب بها، وهنا عقدة المسألة.

أجل مشكلة يا قوم فكيف نحلها؟

قيل أن نهرا عظيما طغى علي بعض القرى، فقام أهل القرية المجاورة لرد شره، فلم يتمكنوا من مقاومة طغيانه. وكانوا كلما أقاموا في وجهه سدا أخذته

مياهه، وطغت على ما وراءه، وخربت، وهدمت. فراع البلاد شره، واجتمع الناس يتداولون فيما يجب أن يفعلوه ليكفوا أنفسهم شر الغرق، وفيما هم في جدال، وأخذ، ورد يريد أن يقيم كل حجته، ويعمل برأيه، همت عليهم المياه فأبتلعتهم عن آخرهم، وغرقت ديارهم.

ونحن نخشى أن يجيء أمرنا نحن العرب مصداقا لهذا المثل؛ إذ نلهو بمعارضة بعضنا بعضا عن سير التيار، فما ندري إلا وقد قبضت علينا يد لا يبقي لنا منها مناص ولا خلاص. ولكننا نذكر مثلا آخر نرويه لكم كما عرفناه، ونرى أننا إذا عملنا به كان لنا التوفيق والنجاح.

فلقد قيل أن نهرا عظيما طغى أيضا علي بلاد أخرى، فلم يضع أهلها الوقت بالجدال الفارغ، ولكنهم اجتمعوا مرة واحدة، فخطب فيهم أحد رؤسائهم فقال: يا قوم، إن البلاد في خطر الغرق، ولا طاقة لنا برد المياه، فإن كان لأحدكم رأي يكفينا به شره فلبيده. فقام من بين الجمع فتي لم يلبس الخز، ولم يتشح بالديباج، وقال أرى أن نحول مجري النهر إلى أوسع منه، ونفتح له مجاري، وسواقي أخرى كثيرة ينفذ منها. فقالوا بأجمعهم أحسنت، أحسنت، وبادروا في الحال دون مراء ولا جدال، فاحتفروا للنهر مجري جديدا واسعا، وكان بذلك خلاصهم.

وأننا نرى أن نتشبه بهم، فلا نضيع الوقت بالمجادلة، والمجازفة، وتقريع بعضنا بعضا. بل الأولي والأخلق لنا أن نبادر إلى تحويل مجري الأمور واستبدال الأحوال، وخلع الثوب القديم علي ما سبق لنا بيانه في صدر هذا الكلام. وإن كان ذلك لا يتم لنا علي سبيل العجلة فلا بأس من التأني. فإن الأهمية متوقفة علي البدء في العمل، فلنبادرن إذا إلى إثارة الخواطر بقتل القديم لإحياء الجديد. وأننا إنما نطقنا بما يختلج في صدر كل منكم، وما هو إلا بخار الوطنية يتصاعد

من نيران الحمية العربية. ونحن آملون بكم، واثقون من غيرتكم، معتمدون عليكم في تحقيق الأمنية وبلوغ الرجاء، حتى إذا دنا اليوم السعيد الذي يتم فيه عملنا المجيد نرفع رؤوسنا المنخفضة، ونقول بتيه وافتخار: "ألا يا قومنا لقد فتحت لكم أبواب الحرية، فأدخلوها بسلام آمنين. وإذا سألتمونا كيف تنفتح البصائر، وتنار الأذهان، وتجتمع الكلمة، وتعقد المحاضر، وتوجد الجامعة الوطنية، وتعظم الشعوب، وتعلو مكانة الأمة، وينال الاستقلال وغزر المال بين أيدي الرجال؟ أجبناكم أن ذلك حاصل بالعلم، وأن العلم يحيي الأمة والجهل يقتلها، فلا ترضوا أيها السادة والإخوان بأن تكون أممنا الشرقية أمما ميتة، وشعوبنا العربية شعوبا خامدة بائدة، والسلام علي من اتبع الهدى"

ولسنا بعد كل ما تقدم نشعر بالحاجة إلى مزيد من الحض علي تعليم أبنائنا، وإنشاء المدارس في هذا القطر الذي لا نهضه لأهله من عثرتهم إلا بتعليم الشعب، وتربيته، وتهذيبه إلى حد يصبح معه قادرا علي مجاراة سواه من الشعوب المتمدنة، وأمم الحضارة، والصناعة.

هذا ولم لم تكن الحالة في مصر علي ما هي عليه الآن من وجود الاحتلال الأجنبي القابض بيد حديدية علي عنق البلاد وحكومتها. لكان حديثنا موجها بعضه إلى الحكومة، ولكانت لنا كلمة في التعليم الإجباري، ولكن الحالة هنا لا تشبه أحوال الشعوب الأخر في شيء. فإن القابضين علي زمام الأمور أحب ما إليهم أن يفسد التعليم فسادا تاما، بل أن تقفل أبواب المدارس، ويغوص الشعب في لجة من الجهل لا قرار لها. فلذلك نحن نوجه الخطاب إلى الشعب، مرددين لكل مصري آية إحدي الكتب المقدسة: "خلاصك في يدك يا إسرائيل". وأنت يا مصر خلاصك بيدك، والعلم وسيلة نجاتك. "وقد تبين الرشد من الغي فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها"

ذلك فيما يتعلق بمصر. أما العثمانية التي ننتمي إليها، ونغار عليها غيرة الوطني الصادق الذي يلتمس لوطنه الإصلاح، ويرغب له كل رفعه، وعز، ونجاح، فإننا نلقي اللوم في انحطاط الآداب والمعارف فيها علي حكومتها لا علي شعبها. لأن الشعب في العثمانية –ولاسيما الذين لغتهم العربية من أشد الناس رغبة في تلقي المعارف، والعلوم، واتباع طريق المدنية المصرية، والحضارة المفيدة. حتى أنك لا تكاد تمر في شارع من شوارع الحواضر الكبيرة في سوريا، ولا تكاد تذكر قرية، ولا دسكره، ولا كفرا دون أن ترى بناء مدرسة، أو باب "كتاب". وإذا عددت الشعراء والكتبة في سوريا عددتهم بالمئات، وإذا حسبت الذين يعرفون القراءة –وكلهم من أهل البلاد– وجدت عدد المتعلمين يتجاوز عدد الأميين تجاوزا عظيما ويفوقه كثيرا.

ومع ذلك فإنك تجد الآداب العامة منحطة، وسوق العلم في كساد لم يشبهه كساد في مكان، أو زمن من الأزمان. والسبب في ذلك خطة الحكومة في التضييق علي الشعب، والضغط علي الأفكار، وسعيها في حبس الأقلام ومنع الألسنة من الكلام، بحيث صرنا علي وشك أن نحكم بأنها تعمل عمدا علي قتل العلوم، والمعارف؛ لقتل العواطف الشعبية، ومنع ترقيه الأمة ونجاحها. وليس ذلك بالشأن الذي يجب أن يكون شأن الحكومات، بل من الواجب على الحكومة في تلك البلاد التي توشك أن تخلو من كل صاحب قلم، وفكر أن تخالف طريقتها الحاضرة، وتذكر أن العمران لا يتم إلا بالعلم، وأن البلاد التي لا ينشر العلم فيها رايته تنشر فيها راية الجهل، وبالتالي التأخر، والانحطاط، والفقر مع الظلم، والاستبداد، والخيانة، وكثرة الجرائم، وامتلاء السجون.

وشهد الله أننا لم نكن نود أن نخط من هذا الكلام حرفا عن بلادنا، ولكن ليست في اليد حيلة، وقد أحرجنا القوم حتى أخرجونا عن جادة الاعتدال، ولنا

في ذلك عذر. إننا نري الوطن المحبوب يذبح بسكين الجهل، فلا بدع أن صرخنا صرخة الأواه.

وحبذا لو تنبه ولاة الشأن والشعب معا إلى حقيقة ثابتة لا ريب فيها، ولا مراء: وهي أن السجون لا تفرغ حتى تمتلئ المدارس، وأن المدارس في العثمانية لا تمتلئ كما يجب، وكما ينبغي إلا متى أخذت الحكومة بيد الشعب وعضدها هو أيضا في عمل التربية العظيم.

نعم إن الحكومة العثمانية آخذه بإنشاء المدارس، وتكثير عددها. ولكن ذلك وحده لا يكفي، بل ينبغي أن تكون طريقة التعليم من الطرائق التي تحبب مدارسها إلى الناس، فيلوون عن مدارس الإفرنج إليها، ويلجأون إلى كنفها. ثم يجب عليها أن تنظر في جعل التعليم إلزاميا، وحفظ مقام المتعلمين، وإيجاد الطرائق التي ينفع العلم معها، بحيث لا يفضل أحد في البلاد الجهل علي العلم كما هي الحالة الآن.

ولو شئنا أن نفيض في هذا الموضوع لاضطررنا إلى اختصاصه بمجلد في حجم هذا الكتاب. فنحن نقف منه عند هذا الحد، مؤملين أن يفتح رجال العثمانية أبصارهم وبصائرهم، وأن يتلافوا الحالة بالتي هي أحسن قبل أن نصل إلى يوم ننشد فيه قول الشاعر: "أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته". والله المسئول في تسديد خطواتنا جميعا إلى ما به الخير والصلاح إن شاء الله.

الفصل الثاني والعشرون

فجر الحرية في الديار العربية

أثبتنا في الفصل المتقدم أن حاجتنا الكبرى هي العلم علي شرط أن نقرنه بالتربية. لأنه كما أن الداء الذي أصيب الشرق به هو الجهل الذي منى به الشرقيون، فأوقف تيار المدنية، والحضارة في بلادهم. كان من البديهي أن يكون العلم الدواء الشافي من هذه العلة التي استحكمت فينا إلى حد يخشى معه أن تكون سببا في ضياع بلادنا، وأمتنا.

انظر إلى الشرق الأقصى تر فيه دولتين من دول الأمم الصفراء: أحداها تسمي نفسها المملكة السموية، وتدعو ملكها ابن السماء، ولا يحصي عدد سكانها إلا الله. وقد قيل في عام ١٨٧٧م؛ أي منذ اثنين وعشرين عاما. إنهم يزيدون علي أربعمائة وثلاثين مليونا، ونريد بها مملكة الصين. والثانية مملكة الشمس المشرقة، وعدد سكانها في الإحصاء الأخير ٤٢ مليونا: وهي اليابان.

فإذا قيل لك أيها القارئ أن الحرب أورث زناده وتطاير بين الصين واليابان شررها. أفلا تظن، بل ألا تحكم حكما باتا دون أقل تحفظ بأن ابن السماء يظفر بصاحب الشمس المشرقة، وأن الصين تأخذ اليابان في أسرع من لمح البصر، وتنتصر عليها نصرا مبينا.

بل هكذا كان ظن الناس جميعهم عندما ثارت الحرب منذ نحو خمس سنوات بين الصين واليابان؛ لاعتقاد الجميع أن الكثرة تغلب الدربة، وأن الأربعمائة المليون من الصينيين إذا اندفعت علي الأربعين مليونا من اليابانيين

داستها دوسا، وحطمتها بأرجلها تحطيما كما يدوس الفيل برجله ضفدعا ويهشمها دون أن يشعر بذلك.

ولكن النتيجة أخلفت ظن الجميع وظهر بنو اليابان وهم أقل من أربعين مليونا علي بني الصينظو وهم يزيدون علي أربعمائة مليون، وفازوا عليهم فوزا عظيما، وأجلوهم عن أعز مواطنهم، وأخرجوهم من أمنع حصونهم ومعاقلهم، وأسروا جنودهم وقوادهم، وحطموا بواجرهم، واحرقوا أساطيلهم. ولو لم تدخل دول أوروبا فيما بينهم لدخلت اليابان عاصمة الصين عنوة، وبزغت أنوار "الشمس المشرقة" في عرش "المملكة السموية"؛ ليستنير بها "ابن السماء".

والسر في ذلك أن العلم جعل القوة في جانب القلة، كما أن الجهل جعل الضعف في جانب الكثرة. ولا بدع في ذلك فإن الرجل الجاهل كالولد، فإنهم ينهزمون أمامه في أقل من رجع الصدى، ويهربون متشتتين تشتت جيش من الجرذان أمام هر واحد.

وقد قرعت اليابان أبواب العلم ففتحت لها، وهكذا كل من يفتش يجد، ومن يقرع يفتح له، ودخلت رحابه مشمرة عن ساعد الهمة والعزيمة، فنهضت في أقصر مدة نهضة عظيمة تضرب بها الأمثال حتى في أوروبا نفسها، وأعدت بذلك سبيل تقدمها، وهيأت بالعلم أسباب نصرها علي الصين، وتحكيمها السيف في رقاب الصينيين.

واليابان تباري الآن بصناعتها صناعة أوروبا نفسها، فما الذي رقى بها هذا الارتقاء الباهر، وحط الصين ذلك الانحطاط العائب؟. أوليس اليابانيون والصينيون أبناء جلدة واحدة صفراء؟، أوليس كلا الفريقين من طينة سائر الناس؟. فهم قابلون لناموس الارتقاء والانحطاط علي حسب التربية التي يتلقونها، والهمة التي يظهرونها.

بلى، ولكن الياباني خلع ثوب الجهل القديم، واستبدله بلباس العلم القشيب. في حين أن الصيني بقى مرتديا ذلك السربال الرث البالي، راضيا بالتعثر بأذياله، مفضلا العمى الذي هو فيه علي النور الجميل الساطع.

فلا نكونن كالصين التي علي كبرها نالت منها جارتها الصغيرة ذلك المغنم، بل فلنتشبهن باليابان في خلع رداء الجهل القديم لنتشح ببرد العلم الذي هو وحده مورد الحرية، والاستقلال، والثروة، والحضارة، وكل ما يحسب فخرا للشعوب الحية والأمم النامية.

ونحن نردف هذا الكلام بقصيدة وضعناها أيام كان غصن الصباء رطيبا. وجعلنا عنوانها عنوان هذا الفصل، وفيها من الحض علي اقتباس أنوار المعارف والعلوم ما نرجو أن يؤثر في نفوس القراء، وتعود فائدته علي الوطن العزيز، وهي:

يا بـــني عمنـــا ســـلاما فـــإنا ... قـــد وردنا مناهـــل الحريـــة

وغـــدونا أهـــلا لأن نتكـــنى ... بجميـــل المـــآثر العربيـــة

وســـلاما يا أيهـــا الفجـــر إنّا ... قـــد رأينـــاك تبعـــث الذريـــة

أنــت نــور فــاقبس لنــا منــك نادرا ... ذات نــور يضـــيء ليـــل البريـــة

أنـــت تحيـــي العظـــام وهـــي رمـــيم ... كيــف لا تبعــث النفــوس الأبيــة؟

قـــد جهلنـــاك ثم عـــدنا فعـــد ... فـــالعود حمـــد، وللعلـــي أريحيـــه

مهـدك الشـرق أيهـا الفجـر فـأحفظ ... عهــد مهــد، وأرع العهــود الوفيــة

عــد إلينــا كمــا نعــود، ونــدعو ... لا تخيـــب آمالنـــا الشـــرقية

نحـــن قـــوم لم نـــرع قـــدر المعـــالي ... فارتـــدينا الهـــوان، والســـخرية

ودعـــونا عليـــك جهـــلا ولكـــن   قـــد نـــدمنا الندامـــة الكســـعية

فـــأجرنا ممـــا جنينـــاه واذكـــر   جـيرة قـد مضـت، وكانـت هنيـة

يا لقـــومي لقـــد تألـــق في الشـــرق   هـــلال بأحـــرف ذهبيـــة

فـــأميطوا عنهـــا اللثـــام ونادوا   أيهـــا النـــاس غـــيرة وطنيـــة

واســـتنيروا بنـــور فجـــر جديـــد   لا تظنـــوا أنـــواره ســـرية

فهـــو باد دون الحجـــاب، فمـــدوا   الطـــرف تلقـــوا أشـــعة شـــفقية

هـــي بشـــرى لكـــم بأنـــوار مجـــد   دونهـــن المطـــالع الشمســـية

يا لقـــومي فينـــا المنـــادي ينـــادي   فـــأفيقوا لنجـــني الأمنيـــة

رن في مصـــر صـــوته حـــين نادي   فأفاقـــت علـــي الصـــدى ســـورية

فـــإلى مـــا نلهـــو، ونغفـــل عنـــه   ولنـــا منـــه كـــل يـــوم عطيـــة

أولســـنا العـــرب الكـــرام الأولي   قـادوا جميـع الشـعوب للمدنيـة؟

وتســـامى بفضـــلهم كـــل فضـــل   وتعـــالى بعـــزهم والمزيـــة

مـن أقـاموا للمجـد صـرحا مشـيدا   فـوق كسـرى، والدولـة القيصـرية

نهضـــوا فـــامتطوا متـــون المعـــالي   حـين ملـوا امتطـاء مـتن المطيـة

فهـم القـوم مـن يحـدث ومـن يسـكت   فـــآثارهم لـــدينا جليـــة

تلـــك آثارهـــم تـــدل علـــيهم   مـــن حســـامية، ومـــن قلميـــة

فـــاتبعوهم في إثـــر كـــل يـــراع   وأعيـــدوا المعـــالم العلميـــة

فـــبحظ الـــيراع أدرك مـــا   تعجـــز عنـــه البـــواتر الخطيـــة

وخـــذوا كتـــبهم كتائـــب نجـــح فتحهـــا في الســـطور لا المشـــرفية

فيهـــا تبلغـــون مـــا تتمنـــون مـــــن الارتقـــاء، والحريـــــة

واجعلـــوا بـــدئكم مطـــالع ســـعي تقتفيهـــــا الخـــــواتم العنبريـــــة

الفصل الثالث والعشرون

طرائق التعليم

نظن أننا استوفينا الكلام في الحض علي نشر العلوم في البلاد، وإنشاء المدارس، والمكاتب، وبيان الفرق بين الأمة المتعلمة والأمة الجاهلة، غير مدخرين جهدا في إظهار فضائل العلم الذي هو حياة كل أمة وشعب.

فبقي علينا أن نطلق عنان هذا القلم في التماس وجه من وجوه الإصلاح العلمية، ونريد بذلك اصلاح طرائق التعليم المتبعة. ليس في مصر فقط بل في سائر بلاد الشرق أيضا.

ونحن عندما نقول بلاد الشرق إنما نقصد بلادنا العثمانية، والمصرية، لا كل قطر شرقي؛ إذ لا تهمنا من كل شرق وغرب غير مصر والعثمانية.

ولا ينكر علينا القراء أن طرق التعليم في بلادنا فاسدة إلا ما كان منها متعلقا بتعليم أبناء الإفرنج في المدارس التي أنشئت في البلاد لنا ولهم، ولكن أصحابها يجرون في التعليم علي الخطة التي توافقهم وحدهم، دون أن تنطبق أقل انطباقا علي أحوالنا، وما نحتاج إليه.

وقصارى ما يمنحوننا إياه كأنما هم يجودون علينا بالنعمة التي ليس وراءها نعمة، إنهم يعلموننا علي يد أساتذة من الأجانب أيضا شذورا من لغتنا العربية، يلقنوننا إياها في فترات من الزمن غير متتابعة ولا متلاحقة. بحيث نخرج من مدارسهم بعد قضاء السنن الطويلة ونحن لا نعرف أن نكتب بلغتنا سطرا واحدا. وإذا عرض لنا حديث ترانا نمزج فيه بين الكلمات العربية، والألفاظ

الأعجمية، ونرطن بلغات لا يفهمها إلا المتخرجون منا في مدارس الأجانب.

ولا يخفي أن أول شروط التعليم أن يعلم التلميذ مبادئ لغته، وأصولها قبل كل لغة، وعلم. وأن يدرس تاريخ بلاده، وجغرافيتها، وقواعد دينه، ومذهبه؛ ليكون له ذلك سلما يرقى بها إلى العلوم السامية، والمعارف الكمالية.

ونحن إذا نظرنا إلى حالة التعليم في كل بلاد المشرق نراها علي غير ما يجب أن تكون. فإن أول ما يلقى علي التلميذ من مبادئ العلوم دروس في اللغات الأجنبية، وآخر ما يختم به عمله كتب في اللغات الأجنبية أيضا. حتى أنك إذا التمست كتابا في العلوم العصرية مكتوبا باللغة العربية فقد لا تجده. وذلك لا لقلة المؤلفين والكتبة عندنا، بل لانصباب المدارس –حتى الأهلية منها– علي تعليم كل علم خارج عن علم اللغة بكتب الإفرنج، بل أن بعض المدارس قد اتخذت لتعليم اللغة العربية نفسها كتبا وضعها بعض الأوروبيين كما يعرفون، لا كما يجب أن تكون، ودفعوها إلينا قائلين: "خذوا لغتكم من رجال أعاجم".

ولا مراء في أن هذه الطريقة من أعظم الطرائق تسهيلا لقتل العلم في البلاد، وطمس آثاره؛ لأن التعليم علي هذه الصورة لا يمكن أن يكون إلا فاسدا، ومتى فسد التعليم ضاع ضياعا تاما، وعاد بعكس النتيجة التي تنتظر منه، بل كان الجهل أفضل منه.

وغني عن البيان أننا لا نقصد بما نلتمسه من إصلاح طرق التعليم أن تتقدم فقد اللغة العربية علي سواها في مدارسنا. فإننا وإن نكن نعد هذا الأمر ذا شأن عظيم، وتأثير بعيد في كل ما هو متعلق بنا، نرى أن جعل التعليم باللغة العربية لا يكفي وحده لإصلاح أحوال مدارسنا، وجعل العلم الذي يتلقاه أبناؤنا عائدا علي البلاد بالفائدة والنفع.

والذي نراه للوصول إلى هذه الغاية أنه لا بد من قلب نظام التعليم بإجماله، واستبدال الطرائق المتبعة الآن بما يكون أكثر انطباقا علي أحوالنا وشئوننا. لأن تعليم أبناء العامة ما لا يفيدهم، ولا ينفعهم من مسائل الفلسفة الوضعية، والفلسفة العقلية مثلا لا تكون نتيجته سوى نفخ روح الكبرياء في رؤوسهم، بحيث يصبحون متى دارت علي ألسنتهم مسألة من هذه المسائل وهم لا يفهمون رأسها من ذنبها كالضفدع التي رأت بقرة سمينة، فأحبت أن تقلدها، فانتفخت حتى تفزرت.

وإذا شئت أن نضرب لك مثلا شاهدا فأجل نظرك بين صفوف المدارس في هذا القطر، الكبيرة منها، والصغيرة. تجد نفس العلوم تلقى علي ابن الوزير، والتاجر، والخضري، والنجار، والحداد، والكناس كأنهم معدون كلهم لتحصيل العلوم السامية، والمعارف الكمالي،ة وكأنهم من ابن الوزير إلى ابن الكناس الغني منهم، والصعلوك الفقير سوف يشتغلون في درس القوانين، والطب، والهندسة، والتصوير، وما شاكل ذلك من العلوم العالية، والفنون الجميلة.

علي أننا لو تدبرنا لعلمنا أن هذه الطريقة لا يمكن إلا أن تعود بالضرر علي هؤلاء الأولاد الموكولين إلى عهدتنا. أن ابن الفلاح الذي تلقنه نفس العلم الذي لقنته ابن الوزير الغني يأنف متى خرج من المدرسة أن يشتغل بأرضه. ويعمل كما كان يعمل أبوه وجده.

ونحن نري في كل يوم رأي العين من الشواهد علي صحة هذا القول ما يكفينا مؤونة الإفاضة في الكلام عن هذا الموضوع.

فلو كان المتولون عندنا أمر التدريس، والتعليم، وبالتالي إعداد أبناء الأمة لأن يكونوا فيما بعد رجالا ينفعون أنفسهم، وبلادهم، ويخدمون عائلتهم ووطنهم يتنبهون إلى هذه المسألة الخطيرة لما بقيت الحالة علي ما هي عليه الآن،

ولما كان العلم في أغلب الأحيان آفة الشرق، وسبب الضرر الذي يلحق به.

ولسنا نخاف في القول ملاما فإننا إذا نظرنا إلى بعض شباننا المتعلمين بعين التبصر والتروي وددنا ألف مرة لو بقى هؤلاء دون علم، وكان الجهل أفضل لهم من هذا العلم الذي لم ينتج إلا الضرر، والأذى: كالشوك الذي ينبت في الحقل فلا يترك الأرض مستريحة، ولا يجني منه صاحب الأرض ثمرة.

وليس فينا علي ما نظن من يجهل أن من أعظم فضائل العلم أنه يعرف الإنسان قدر نفسه. ولكنه متى كان علي تلك الصورة لا يمكن أن يكون إلا ناقصا. ومتى كان العلم ناقصا فهو إنما يعلم الإنسان جهل قدر نفسه، وتلك غاية التعاسة في هذه الدنيا.

نقول أن العلم علي تلك الصورة لا يمكن أن يكون تاما، وذلك لأسباب جمة أهمها أن: ابن الفقير الذي تأتي به من وراء البهيمة في الحقل، أو من وراء كور أبيه في حانوته، وتجلسه إلى جانب ابن ذي ثروة ويسار لا يستطيع أن يفهم شيئا مما تلقيه من الدروس، وتشرحه من القواعد العلمية حتى الابتدائية منها. بل أنك إذا بدأت بتعليمه حروف الهجاء فإنه لا يستطيع أن يتعلمها كما يتعلم رفيقه من بني النعمة؛ وذلك أمر طبيعي لا يحتاج إلى دليل. فيضطر للسير مع رفاقه إلى القفز من درس إلى درس دون أن يفهم شيئا. أو أنه يفهم بعض الشيء، ولكن حالة والديه لا تسمح لهم بتركه في المدرسة يقضي فيها السنين والأعوام. وعلي كلتا الحالتين يكون عمله ناقصا لا فائدة منه، ولا نفع.

ولذلك قلنا أنه ينبغي تعديل طرائق التعليم عندنا تعديلا تاما، تنقلب معه عما هي عليه الآن، وتصبح منطبقة على أحوالنا، فيتلقي كل واحد منا ما هو في حاجة إليه من العلوم، أو ما يساعده علي تحصيل معاشه: سواء بالاشتغال في أرضه، أو العمل بصناعته.

وإلا فما زلنا متبعين طريقة التعليم التي نجري عليها منذ سنين، فإننا نستمر علي ما نحن عليه من الجهل مع اعتقادنا في أنفسنا أن العالم الجاهل الذي يحسب نفسه عالما أضر كثيرا بنفسه، وببلاده معا من الجاهل الذي عرف نفسه جاهلا.

ومن الشواهد علي هذا الأمر أنك لا تجد في الشرق، ولاسيما في الناشئين من أبنائه في المدارس التي تلقن العلم نصفيا إلا كل صاحب دعوى، وغرور بنفسه. وأنك لا تجد فينا إلا كل من يأنف من الاشتغال بحرفته، أو العمل بصناعته بحجة أنه متعلم، فلا يليق به أن يحمل سوى اليراع.

ولا مراء في أن هذه الحالة مضرة من كل الوجوه، وقد كان في ودنا لو نستطيع بيان أوجه الضرر كلها، فنثبت لكل مرتاب بفساد طرائق التعليم في الشرق، ووجوب إصلاحها أن الاستمرار علي هذه الطرائق، واجتناء ثمار الحقيقي أمران لا يسير أحدهما مع الأخر، ولكننا نشهد في كل يوم دليلا علي أضرار هذه الطريقة، بحيث لا نجد حاجة سوى التنبيه إليها ولو إلماعا. فيكون كلامنا بمثابة تذكرة لقوم لا يجهلون.

الفصل الرابع والعشرون

تعليم المرأة

أشبعنا الكلام في الفصول المتقدمة عن ضرورة التعليم بوجه الإجمال، وشدة حاجتنا إلى العلم الذي نضب في بلادنا معينه –أو كاد–. بحيث أصبح الوطن مفتقرا إلى أهم موارد الحياة، وأمسى علي وشك أن يبتلى بالدمار والبوار إذا لم يتداركه السكان بنهضة ينسخون بها آية الماضي، ويستبدلون الثوب القديم بلباس العلم الجديد، أو ينسخون آية الليل بآية النهار (إنها كانت مبصرة).

وقد جعلنا البحث في الفصول المتقدمة دائرا علي تعليم الرجال دون أن نتعرض لمسألة تعليم المرأة لعملنا بما لها من الشأن، ورغبتنا في إفراد فصل خاص نحيط فيه بأطراف هذا الموضوع الخطير.

ألمعنا في فصل العائلة إلى خطارة مقام المرأة، ولا بدع فإنها الزوجة، والأم. وهي أول من يعهد إليه بتربية الولد، ويوكل إليه أمره ليصير رجلا حقيقيا، فمن العبث أن نتركها في حالة الجهل التي هي فيها، ثم نطالبها بإحسان التربية، وتتمة عمل الخلق العظيم.

وليس في وسع أحد ممن اطّلعوا علي المقالات التي نشرناها فيما مضى سواء في مجلتنا "الراوي" التي أخنى عليها الدهر وأسفاه لأسباب ليس هذا موضع ذكرها، أو في جريدة "الأهرام" الغراء. أن ينكر أننا نناضل منذ سنين، وأعوام في سبيل تعليم المرأة، وتربيتها تربية صحيحة تصبح معها مساعدة

حقيقية للرجل في كل الشئون التي تطلب منه. ونحن لا نقول ذلك من قبيل التظاهر، بل الدلالة علي أن الموضوع الذي نحن فيه ليس بالجديد، وأن المطالبة بتعليم المرأة الشرقية ليس بالبدعة التي ينبغي رفضها واستنكارها.

وقد كنا دائما نتحفظ في الكلام علي المرأة المسلمة، ونمسك القلم عن الجري في مضمار الحض علي تعليمها وتربيتها، وبالتالي علي تحريرها من ربقة الجهل، ورفعها من الدرجة التي انحطت إليها إلى مقام المرأة الحقيقية: وهو مقام الزوجية التي يحق لها الحب، والأم التي يجب لها الاحترام. ومن يتصفح فصل العائلة من هذا الكتاب تتضح له حقيقة هذا القول إلى أن صدر في هذه الأثناء كتاب حضرة الفاضل (عزتلو قاسم بك أمين) المستشار في محكمة الاستئناف الأهلية بعنوان "تحرير المرأة"، وهو الكتاب الذي أشرنا إليه في ذلك الفصل دون ذكر عنوانه واسم مؤلفه، فلم يبق لنا عذر علي السكوت بعد صدور ذلك المؤلف الجليل الذي اثبت ما قلناه في فصل العائلة من تنبيه أفاضل الكتبة المسلمين إلى النظر في أمر المرأة، وإدراكهم أن معظم الفساد الذي لحق بتربيتنا ناجم عن سوء تربيتها، واسترقاقها، وانحطاطها إلى درجة لم تنحط إليها امرأة من قبل، حتى كأنها من الأمتعة التي تباع وتشرى، ولا تقتني إلا للذة الرجل وخدمته.

ولسنا نفيض هنا في بيان الأسباب التي أوصلت المرأة الشرقية –والمرأة المسلمة بنوع خاص– إلى تلك الدرجة التي تقدم لنا ذكرها، بل نحن نحصر الأسباب كلها في سبب واحد: وهو إهمال تعليمها، وتربيتها بحيث أصبحت أمة للرجل، وأضحت لا تعرف لنفسها قدرا ولا مقاما.

ولعمري أننا لولا روح الأثرة وحب الذات لما أتينا نحن الرجال ما آتيناه مع المرأة من تركها تنغمس في لجج الجهالة؛ ليسهل لنا امتلاك قيادها واسترقاقها،

فلا تبقى لها إرادة ذاتية. ولولا ذلك لكنا ندرك بسهولة أن بقاء نصف المجتمع الإنساني في ظلمات الجهل مما يجلب علينا الضرر، والتعب، والخسران. وإلا فكيف تحسن المرأة تربية أولادنا، وتدبير شؤوننا المنزلية، وترتيب أحوالنا الداخلية؟ وكيف نجد معها لذة الحياة تامة من كل وجوهها، وكيف تشاركنا في أمور الدنيا، وتسهل علينا مصاعبها، وتخفف أثقالها؟. وكيف تقاسمنا الفكر والرأي، وتستطيع البقاء علي ولائنا والأمانة لنا إذا كانت جاهلة على غير علم، ولا تربية، ولا أدب؟

ومن تراه يبث في الولد الصغير روح الأدب، والتربية، والميل إلى العلم والعمل إذا كانت تلك الأم التي دُفع الولد إلى عهدتها جاهلة، لا تعرف للتربية قيمة، ولا للعلم قدرا.

وأية قدوة تكون لأولادك أيها الرجل إذا كانت أمهم لجهلها، وقلة تربيتها لا تعرف من أحوال الدنيا سوى التبرج، والتدخين، وصرف الوقت في كل ما من شأنه أن يميت العواطف الشريفة، ويفسد الأخلاق الغريزية الحسنة.

ومن ينكر أن البطالة التي يُقضى علي المرأة بها، وجهلها عندنا لا تقودها إلى كل ما لا يستحب لها، ولا يحب منها، بل إلى كل ما لا تحمد عقباه، ولا يكون إلا قدوة سيئة لأولادها والناظرين إلى أعمالها للجري علي خطتها، والاقتداء بها.

هذا ولسنا نطيل الكلام في هذا الموضوع، بل نعمد في الحال إلى تضمين هذا الفصل فصولا نشرناها في جريدة "الأهرام" الغراء، وفي مجلة الراوي للدلالة علي أننا علي اتفاق تام مع حضرة صاحب كتاب "تحرير المرأة" في وجوب تعليم المرأة الشرقية، وتهذيبها. مفتتحين هذه الأقوال بآخر فصل نشرناه في الأهرام في موضوع تعليم البنات، وقد صدر في العدد ٦٢٢٣ بتاريخ ١٢ سبتمبر من عام

١٨٩٨م. وهو كما نشر في حينه دون تغيير فيه ولا تبديل.

تربية البنات

"وقد وجدت مجال القول ذا سعة   فإن وجدت لسانا قائلا فقل"

تقدمت لي تحت عنوان "العلم والتربية" مقالة في عدد سابق بحثت فيها بحثا مستفيضا في مسألة ذات أهمية لا تخفى علي ناقد بصير: وهي كثرة الأميين من الأهالي الذين يبلغ عددهم نحو عشرة ملايين، وليس فيهم من يعرف القراءة البسيطة غير عشر هذا العدد، ثم وجهت الأنظار إلى وجوب عقد الخناصر علي مداواة هذا الداء بنشر المدارس الابتدائية، وتعليم أبناء الشعب مبادئ لغتهم، وتاريخ بلادهم، وقواعد دينهم الصحيحة؛ ليتمكنوا بذلك من معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات.

ويسرني أن هذه الكلام قد وقع أحسن وقع في نفوس القراء، وكان له أجمل تأثير في نظر الذين ينظرون إلى مستقبل البلاد أكثر مما يلهون بحاضرها. مما شجعني علي معاودة الحديث في هذا الموضوع، ولكن من وجهة أخرى، ومغنى آخر، قاصرا الكلام اليوم علي تعليم الابنة لتصبح امرأة قادرة علي إدارة شئون المنزل إدارة حسنة، والقيام بالفروض الطبيعية التي يفرضها عليها الزواج والأمومة.

ولذلك رأيت أن اقتطف من كتاب "العلم والتربية" الذي اشتغل في وضعه شذورا من فصل في تعليم الابنة الشرقية عامة، والمسلمة خاصة. وأنا مع إقراري بالعجز، والقصور في مثل هذا الموضوع الخطير أسأل حضرات الكتاب من السادة المسلمين عذرا علي تطاولي إلى الأخذ بهذه المسألة التي كان يجب أن يكونوا هم فرسان مضمارها، ولكنني أكتب عن الشرق عامة، فلا يحسن بي أن

أقصر الكلام عن فئة من أهله دون أخرى.

ومن وجه آخر فقد رأيتهم أحجموا فأقدمت، وسكتوا فتكلمت، بحيث ينطبق علي قول الشاعر:

وكم قائل، مالي رأيتك "راكبا"؟ فقلت له: من أجل أنك "راجل"

وعلي كل حال فإنني أسأل الله الصواب في القول، والهداية في العمل، وهو المسئول في جعل هذه الخدمة نافعة لهذا القطر الذي اتخذته وطنا، أحن إليه ويحنو علي. ثم أقول:

أن أجل خدمة يسدد نحوها أصحاب الأقلام أقلامهم، ويصرف إليها رجال البلاد عنايتهم: إنما هي الاشتغال للمستقبل، وبمعني أوشح: أن يمهدوا السبيل أمام هذا الشعب الذي ليس في وسعنا أن نعده علي قدمه. وبعد عهد نشأته إلا شعبا وليدا بين شعوب العلم، وأمم الحضارة، ويسهلوا له طريق الارتقاء في سلم المدنية العصرية، ولا يكون ذلك إلا بتربية الأمة، ولا تكون تربية الأمة كاملة إلا إذا شملت الرجل والمرأة معا.

ونحن أهل المشرق قد لهونا عن العلم زمنا، ولما تنبهنا له ورجعنا إليه كان تنبهنا نصفيا، بحيث قصرنا التعليم علي أولادنا الذكور كأنهم وحدهم أصحاب الحق فيه، وحرمنا البنات إياه. كأن الجمال غني عن حلية الأدب.

ثم لم نلبث أن أدركنا خطأنا في الأمر، فأخذ كثيرون منا يرسلون بناتهم إلى المدارس. ولما لم يكن في البلاد مدارس لتعليم البنات غير مدارس الإفرنج لم نر بدًا من طرق أبوابها، ومن شاء أن يعرف النتيجة التي جنيناها من هذه التربية الجديدة فليراجع مقالات "ثعلبة" عن الزواج في السنة الماضية من الأهرام.

ولست أرى حاجة للتعريض هنا بالأسباب التي تدعو إلى تعليم الابنة

وتربيتها، بل اكتفي بالإلماع إلى أمر واحد: وهو أن الرجل، والمرأة فرقدان لا يفترقان في كل أطوار الحياة، فالمرأة رفيقة الأخ في صباه، وشريكة الرجل في الحياة الزوجية، ومربية الولد في طفولته. ونحن رجال المشرق أحوج إلى رفيق صالح، وشريك حسن الأخلاق والتربية، ومربٍ كامل الآداب منا إلى أستاذ واسع العلم، غزير المعارف.

ولعمر الحق كيف تحسن المرأة تدبير شئون منزلها، وتجري في الطرق التي تعود بالراحة علي أهل بيتها؟ بل كيف تحسن تربية أولادها في الصغر، وإعدادهم للتربية المدرسية التي تأتي من بعد تربية الأم إذا كانت هذه المرأة نفسها قد خرجت من بيت أبيها إلى منزل زوجها وهي لا تعرف من أمور الدنيا غير التزين والتبرج؟

وإذا كانت الأم لا تعرف كيف تربي أطفالها فمن المكلف بذلك وهي المربية الطبيعية لهم. والرجل مطالب بواجبات أخري لا مندوحة له عنها، ولا مفر منها. ونحن إذا نظرنا إلى فساد أخلاق كثيرين من شبابنا، وسوء سيرة عدة من رجالنا، نرى السبب في ذلك إهمال التربية. فإن الولد كالغصن إذا قومته استقام، ولكنه إذا شب علي خلق شاب عليه.

ولست أطيل الكلام في وجوب تعليم المرأة فإن ذلك أمر لا يختلف فيه اثنان. فتعلم المرأة لازم ضروري كتعليم الرجل نفسه. وعندي أن بعض العلم أوجب للمرأة منه للرجل؛ لأنها كما تقدم لنا القول أول من يدرب الولد ويربيه، ويبث فيه المبادئ، ويعمل علي ترويض أخلاقه، فإذا كانت جاهلة كانت أمومتها ضررا علي أولادها وبالعكس، وإذا نظرنا إلى المسألة من وجه آخر رأينا أن الهيئة الاجتماعية متآلفة من جنسين الرجل، والمرأة. فتعلم الرجل مع بقاء المرأة جاهلة يبقي نصف الهيئة الاجتماعية منفصلا عن النصف الآخر، في حين

أنهما وُجدا لأن يكونا جسما واحدا. وقد نظرت إلى هذا الأمر بعين التبصر والروية، فوجدته حقيقة واقعية، ووجدت العائلة عند بعضنا اسما بلا مسمى، فلا هيئة اجتماعية، ولا ألفة عائلية. وقد أوصلتنا إلى هذه الحالة صوله الجهل التي كانت تصول فوق رؤوسنا، وليس للدين فيها يد خلافا لما يزعم الزاعمون.

وأنني أتحامى الخوض في عباب هذا الموضوع لئلا أتهم بما لا أحب أن أتهم به. وشهد الله أنني أنما التمس خدمة وطني، والنفع لأبناء بلادي.

ونحن الشرقيين يخلق بنا بعد ما صرنا إليه من التأخر في حلبة الحضارة العصرية، والتقهقر في ميدان العلم والمدنية أن نطرح التحزب المذهبي، والعادات التقليدية التي كانت آفة الشرق في ماضيه، وهي لا تزال علته في حاضره، وربما بقيت داء عضالا لمستقبله إذا لم يتلافها عقلاؤنا بالتي هي أحسن. ورحم الله عبدا سمع ففهم، وعلم فعمل.

وإذا كان من الثابت بالبداهة أن تعليم المرأة واجب فلننظرن قليلا في الطرق التي يجب أن نتخذها للوصول إلى هذه الغاية. ونحن الشرقيين لا حاجة بنا إلى تعليم بناتنا نفس العلوم التي نعلمها لبنينا، أو التي يعلمها الإفرنج لبناتهم؛ لأن نساءنا لا يسلمن الوظائف الحسابية، ولا يشتغلن في المسائل الكتابية، وبالجملة أن نساءنا لا يشتغلن كما تشتغل نساء الإفرنج اللواتي يزاحمن الرجل في كل الأشغال، حتى لقد أصبح قسم كبير من وظائف الحكومة التي لا تقتضي من القوة ما لا يوجد إلا عند الرجل محصورا بين أيديهن، ووقفا عليهن. فتعليم المرأة الشرقية ينبغي إذًا أن يكون مختلفا عن تعليم الغربية الأوروبية؛ لأن ما يطلب من هذه لا يطلب من تلك، والذي أراه أن الإفرنج قد تجاوزوا الحد فيما يتعلق بهذا الأمر، حتى إذا استمرت الحال علي هذا المنوال أصبحت المرأة عندهم رجلا ثانيا، وفقدت كل صفات الأنوثة التي لا تكون

المرأة بدونها امرأة ضعيفة، بل تصبح امرأة "مسترجلة"، والفرق بين الاثنتين ظاهر.

وأراني قد تحدثت عن الموضوع، وخرجت عن دائرة البحث الذي توجهت إليه. ونحن ما لنا وللإفرنج في تربية نسائهم، فلهم في ذلك شأنهم، ولننظر نحن في شأننا. فنعود إلى القول بأن الطريقة التي اتبعناها إلى اليوم في تعليم بناتنا ليست بالطريقة المحمودة لأننا –والمسلمين منا خاصة– إذا بعثنا بناتنا إلى مدارس الأجانب فكأننا نرسلهن إليها علي قصد قلب نظام تربيتنا العائلية، وتقاليدنا الوطنية قلبا تاما علي غير رجاء في اكتساب تربية وتقاليد جديدة اكتسابا تاما، فتخرج بناتنا من المدارس لا شرقية ولا غربية، كالغراب أراد أن يتعلم مشية الحجل فلم يستطع ونسى مشيته.

وغاية ما تتعلمه بناتنا في هذه المدارس التكلم بلغة أجنبية، والتطريز علي المناديل، والضرب علي البيانو، والميل إلى احتقار كل ما هو عربي، أو شرقي. وناهيك ما في ذلك من المضار، بل أن ذلك مفسده لحالتنا نحن الشرقيين، وأية مفسدة... في حين أننا نحتاج في تعليم المرأة عندنا إلى أمر هو أسمى من تعليم لغة أجنبية، وضرب آلة موسيقية. فإننا في حاجة إلى أن يصير عندنا نساء يقبضن علي زمام المنزل، ويتولين تربية الأولاد، ويرسلنهم إلى المدارس، ثم يرقبن حالاتهم، وكيفية تعليمهم إلى أن يصيروا رجالا أكفاء لمراقبة أحوالهم بأنفسهم.

ولا يسخطن علي حضرات الوطنيين إذا انكرت وجود مثل أولئك النساء بين نسائهم، ومن الغريب أنهم يعلمون أن وظيفة المرأة في الهيئة الاجتماعية أشرف وأسمى كثيرا من وظيفتها الآن في الشرق، ثم تراهم ساكتين عن ذلك غير مقدمين إلى تغير هذه الحالة رِجلا.

وكيف تتغير الحالة وتصبح المرأة عندنا كما يجب أن تكون إذا لم نعلمها

التعليم الواجب، الضروري لها، المنطبق علي أحوالنا، وأخلاقنا، وطبائعنا؟.

وكيف نلقنها هذا العلم وليست لنا مدارس ترد بناتنا فيها هذا المنهل العذب، وما لدينا من بيوت علم النساء غير مدارس الأجانب، حيث لا تدرس لغة البلاد، ولا تاريخها، ولا قواعد دينها. فلينظر الوطنيون إلى هذه المسألة بعين الأهمية والاعتبار، وليعلموا أن تربية الشعب لا تتم إلا بتربية الرجل والمرأة معا؛ ليكون الرجل قادرا علي مباراة سواه في كل عمل، والمرأة صالحة لإدارة شئون المنزل وتربية الأولاد بالحكمة والتدبير؟ والله المستعان.

ذلك آخر ما نشرناه في جريدة الأهرام في هذا الموضوع الخطير. وكنا قد نشرنا قبل ذلك علي صفحات هذه الجريدة الغراء مقالة أخرى في هذا الموضوع، أشرنا فيها إلى فساد الطريقة التي نجري عليها في تعليم بناتنا، فيضرهن العلم من حيث نرجو لهن النفع به، ولسنا نرى بدا من نشر بعض شذور من تلك المقالة تتمة للفائدة، ووفاء بحق الخدمة. فقد كتبنا في العدد ٥٩٦٠ من جريدة الأهرام الصادر في يوم ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٩٧م ما يأتي:

"أول ما نفكر فيه اليوم نحن الشرقيين متى أنيطت التمائم عن فتاة لنا أن نعلمها التلفظ بكلمات أجنبية. فالفرنسية، أو الإنكليزية أول ما تنطق بأحرفها بناتنا. هذا بعد أن نكون قد سميناها باسم أعجمي قد لا تدور مقاطعه علي ألسنتنا، وأنني أعرف آباء وأمهات لا يحسنون التلفظ بأسماء بناتهم. –فاللهم لطفك يا رحيم–. ومتى ترعرعت الفتاة بعثناها إلى إحدي مدارس الإفرنج لتحسن تعلم لغتهم، والضرب علي البيانو، والغناء، والتطريز، والتخريم علي غير اهتمام ولا عناية بالأمور البيتية الأخرى، وبحسن التربية، وفن تدبير المنزل، والتوفير، ومسائل الخياطة، والنج، وإدارة شئون الخدم، وغير ذلك من كل ما

يجب أن يكون من صفات المرأة رفيقة الرجل في رئاسة البيت، بل رئيسته الحقيقية في تدبير الشئون الداخلية.

ولو كان نوع هذه التربية منحصرا في الأغنياء وذوي الثروة واليسار لصبرنا، ولكنه قد تعداهم إلى أهل الدرجة الوسطى، بل إلى الأدنى من الوسطي جريا علي خطة التقليد، وناهيك عن أضرارها.

ومتى خرجت بناتنا من المدارس فإنما يخرجن متعلمات كل شيء إلا ما كان ضروريا للمرأة، فيقمن في الأندية وقاعات الاستقبال متصدرات للحديث في كل موضوع من مواضيع الكتب القصصية، والروايات المثيلية، وحالة الأزياء وما تقادم منها عهده ليطوى، وحلت طلاوة جديدة لينشر...

وليس بذلك تعمر البيوت، ولا علي هذا النحو تربى الفتيات ليغدون نساء فاضلات، وأمهات قادرات علي تربية الأولاد، وتقويم أولادهم، وإصلاح ما يختل من سلوكهم.

ولقد أذكرتني هذه الحالة ما قرأته عن مدام منتينون التي تولت إدارة مدرسة كبيرة للبنات في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر؛ أي منذ نحو ٢٠٠ سنة علي التقريب. فإنها بدأت في إدارة المدرسة علي طريقة التعليم التي نجري عليها اليوم مع بناتنا، ولكنها لم تلبث أن أدركت خطأها، فعدلت عنه إلى التربية الحقيقية التي تجب للجنس اللطيف، وذكرت ما قاله لها فينيلون الفيلسوف صاحب كتاب وقائع تليماك: وهو "أنه يجب أن تتولي المرأة تربية أولادها، فتشمل الذكور منهم بعنايتها إلى أن يخرجهم العمر من يديها؛ ليدفعهم إلى يد المدرس المربي. والبنات إلى أن يتزوجن، أو يعتنقن الرهبنة. وينبغي أن تتولي إدارة الخدم، والنظر في سلوكهم وعاداتهم كي لا يكونوا آفة المنزل، وأن تهتم بأمر النفقة فتجتهد في إتباع طريق التوفير."

فلما تذكرت (دي منتينون) قول فينيلون استبدلت في مدرسة (سان) سير طريقة التربية والتعليم. وأول ما كانت تطالب به البنات الشغل اليدوي بدلا من القراءة والمطالعة، فكانت الكبيرات منهن يعتنين بالصغيرات كأنهن ضرب من الأمهات لتعويدهن سلفا العناية الوالدية، فكان أول ما يبكرن إليه من العمل إلباس الصغيرات، وتسريح شعورهن، وتنظيفهن.

ثم كان لكل منهن دور ونوبة في أشغال المطبخ، وتنظيم الغرف، والأسرة، وقاعة الطعام، وإصلاح الملابس، وجمع الفواكه وعصرها، وعمل الشراب، وأصناف الحلوى، وغير ذلك مما يؤهل الفتاة لأن تصير في مستقبل الأيام مدبرة حكيمة حازمة.

وعلي هذا النحو خرج من تلك المدرسة نساءهن مثالا حسنا وقدوة صالحة. وإذا فرضنا أن ثروة بعض النساء لا تقضي عليهن بالاشتغال في شئون المنزل، فإن علمهن بها يسهل عليهن مراقبة ما يجري في البيوت، وما ذلك بالأمر اليسير.

ثم ليقل لي آباء هذه الأيام، بل لتقل الأمهات أية فتاة من فتياتنا لها إلمام ولو إلى حدج محدود بالمسائل الصحية العامة التي يحتاج إليها في البيت، وأية فتاة من فتياتنا تعرف بعد أن يمر العام علي زواجها، ويرزقها الله مولودا كيف تغسله، وتلفه، وترضعه؟ بل أية فتاة تعرف تضميد جرح بسيط، ولفه برباط أبسط؟.

فلقد شهدت كثيرات من نسائنا إذا قمن بجانب سرير مريض يزدن علته، ويضاعفن ألمه بجهلهن طرق الاعتناء والتمريض. فهل تصلح حالة الأسرة، وتلك حالة المطالبات بالعناية بها؟ وإذا فسد الملح فلا يصلح الطعام. ثم مَن منِ فتياتنا، وما نبذله من أجل تعليمهن تعرف طريقة لكسب رزقها بيدها؟ وإن كنا

نعمل علي تقليد الأوروبيين في تعليم بناتنا فيجب أن نتحداهم، ليس فقط في تعليمهن اللغات الأجنبية، والخفة، والتزين، والتبرج. بل ينبغي أيضا أن يتعلمن العمل حتى إذا دار دولاب الأيام علي إحداهن فلا تصبح عالة علي سواها، بل تقوم هي بلود نفسها.

ولست أرى في ذلك غضاضة ولا موجبا للإنفة، فإنه لخير ألف مرة أن تكسب المرأة ما تعيش به بالكد، والشغل من أن تحتاج إلى السؤال، ولو من أقرب الناس إليها.

وإذا قيل أن عاداتنا الشرقية تحول دون ذلك فلتستبدلن هذه العادات كما استبدلنا سواها بما لا فائدة منه ولا جدوى، وإلا فلنقلعن عن خطة تعليم البنات علي الصورة التي تقدم لنا ذكرها، فإن الجهل عند المرأة خير من العلم المضر. ولنقصرن همنا علي إعداد الفتاة لأن تصبح رفيقة أمينة، وأما حنونا، وامرأة مدبرة. ذلك خير وابقى.

هذا ومن أقوال الغزالي الجميلة: "الصبي وديعة عند والديه". نعم الصبي وديعة عند أبيه وأمه، بل الصبي وديعة عند أمة أكثر مما هو عند أبيه؛ لأنها هي التي تلزمه ليل نهار، فإذا رأي الولد أباه ساعة رأي أمة أياما، وإذا أخذ عن أبيه شيئا أخذ عن أمة أشياء، فإذا كانت هذه الأيام جاهلة فكيف ترد تلك الوديعة التي استودعتها كاملة سالمة؟

فيا أيها الشرقيون علموا بناتكم ليصبحن مدبرات لبيوتكم، وزوجات صالحات لكم، وأمهات حقيقيات لأولادكم، ومعتنيات رؤوفات بشيخوختكم.

أيها الشرقيون إن القول بأن العلم يضر بالمرأة أكثر مما ينفعها قول هراء، لم يقم عليه إلى الآن دليل واحد. ونحن قد جربنا جهل المرأة أحقابا وقرونا،

فلنجربن تعليمها سنين معدودة؛ لنرى الفرق بين الحالتين.

ولعمري أن في هذا القدر كفاية للدلالة علي وجوب تعليم المرأة، وتربيتها. ومع ذلك فإننا سنخص "المرأة" بفصل نضمنه شيئا كثيرا مما قيل في موضوع المرأة من كل ما يعزز قولنا بوجوب تحريرها، وضرورته، ومنحها المقام اللائق بها لتكون كما ينبغي أن تكون شريكة نافعة للرجل في كل أطوار الحياة.

الفصل الخامس والعشرون

المدرسة

نريد قبل الخوض في موضوع المرأة وشئونها أن نذكر كلمة عن المدارس وأحوالها في بلادنا الشرقية؛ للدلالة علي أن حالتها لا تنطبق في شيء علي الحالة التي يجب أن تكون عليها.

ولسنا نتعرض في هذا الفصل للكلام عما يعلم ويدرس في تلك المدارس، فإن ذلك ليس من موضوعنا الآن. ولا نريد بالمدارس التي ننتقدها مدارس الحكومة ومدارس الأوروبيين الكبرى، فإنها كلها خارجة عن معنى كلامنا، وإنما نحن نريد المدارس الأهلية، والمكاتب الوطنية التي كثر في هذه الأيام عددها، والتي نحسبها روح الشعب ومادة حياته. فإذا فسدت هذه المادة فأية حياة تبقي للشعوب.

والمدارس تدعى في بلاد المدنية والحضارة بيوت العلم، والأدب. فما الظن بها إذا كانت منازل للجهل، والفساد؟ وأي ارتقاء وتقدم ينتظران للأمة التي تكون مدارسها الأهلية مسرحا للجهل، والخرافة، وقلة التربية، والأدب. وكيف تحسن حال شعب تكون مدارسه علي تلك الصفة؟

لعمري أن البلاد التي تمتلئ مدارسها –ولكن علي غير ما ينبغي– لهي كالبلاد التي تفرغ فيها المدارس، فتمتلئ السجون.

أجل إن السجون لا تفرغ في بلادنا، والنفوس لا تصبح سامية أبية، والأخلاق لا تثقف، والصناعة لا تزهر، والثروة لا تغزر، والوطنية لا تتأصل في

القلوب، حتى تمتلئ المدارس بالذكور والإناث من أبنائنا. ولكن علي الصورة التي يكون فيها العلم صحيحا، والتربية صالحة حقيقية، والآداب مرعية الجانب، محترمة المقام.

والمدرسة التي تجهل أيها الشرقي مقامها إنما هي منبع الحرية، ومنبثق أنوار النجاح، ومشرق بدور الإسعاد، ومطلع شموس الفلاح. وهي مرضع الأدب والعلم، ومشحذ الذكاء والفهم. بل هي أم تخلق فينا ما لا تمنحنها أمنا يوم الولادة من الأخلاق، وتقوم ما أعوج فينا في زمن الصغر من العادات والأطوار، وتعدنا لمستقبل يضمن لنا السعادة والرفاهية بما تبثه فينا من المعارف، وتلقنا من العلوم وتعلمنا إياه من الفنون والصنائع، وما تدربنا عليه من علم الواجبات والحقوق ومعرفتها فهي لذلك أجل ما ينبغي أن تنصرف عنايتنا إلى إتقانه وإصلاحه حتى يبلغ درجة التمام.

وقد ذكر الإفرنج المدرسة في كل قول قالوه، وكلام كتبوه. فذهبت أقوالهم مذهب المثل، وأصبحت العبارات في هذا المعني تؤثر عنهم، وتحفظ في بطون الأوراق، وعلي صفحات الكتب، ونحن ننقل عنهم بعض ما قالوه في هذا الصدد بيانا لشأن المدرسة، وإظهارا لرفعة مقامها.

قال مارتن لوتير: أن عدم الاهتمام وقلة العناية بمدارس الشعب اشتراك مع الشيطان في عمله. وقال فولتير: لا يؤذن لغير القضاة بتعيين الكتب التي ينبغي إدخالها إلى المدارس. وقال كيزو: يجب أن تكون المدرسة ملجأ المساواة؛ أي الإنصاف. وقال فاشيرو: لا يتعلم الولد الجري علي خطة العدل، والمساواة إلا في المدارس الأهلية العامة. وقال أيضا: أن المدرسة العمومية مهد للمدنية. وقال جوردان: أن فتح مدرسة اليوم هو إقفال سجن بعد عشرين عاما.

تلك نقطة من بحر مما قاله الإفرنج في وصف المدرسة، وتعريفها. وهم مع

ذلك يعدّون أنفسهم مقصرين في مديح المدرسة، وبيان خطارتها.

ونحن ما لنا والأقوال المأثورة ننقلها بين أسطر هذا الكتاب، في حين أن لدينا أمثالا حية، وشواهد حسية تتمثل لأعيننا في كل حين وآن.

انظر إلى اليونانية مع ما تعاقب عليها من استيلاء الأتراك، وضغطهم، وبقائها السنين الطويلة خاضعة لسلطتهم، بل مطأطئة رأسها تحت نير عبوديتهم ورقهم. ما الذي حفظها من الضياع وابقي كيان شعبها ثم أوجده علي نوع ما من العدم، فجدد هذا الشعب شبابه كالنسر؟. إنما حفظ اليونانية وأقامها من سقطتها، بل بعثها من لحدها أمر واحد: وهو المدرسة. فإنك لا تجد محلة حلها ولو ثلاثة بدالين من اليونانيين دون أن تجد فيها مدرسة لتعليم أبناء هؤلاء الثلاثة بلغتهم، وتربيتهم علي تقاليد شعبهم، ومذهبهم.

أما نحن، فإننا أن أقمنا مدرسة، وعمرنا للعلم بيتا، فإنما نفعل علي الغالب دون إدراك خطارة المهمة التي نحن قائمون بها. ونحسب أن المدرسة يكفيها لتكون مدرسة حقيقية أن يكون فيها كرسي للأستاذ، ومقاعد للتلامذة، وأن يلقي المعلم درسا فيتناوله الطالب كيفما كان. وقضي الأمر.

ولولا ذلك لما كنت إذا مررت بمكان فيه مدرسة من مدارسنا الأهلية ترى تلاميذ تلك المدرسة منتشرين في الطرق، والشوارع المجاورة للمدرسة، وتسمع كلمات البذاءة والسفاهة دائرة علي ألسنتهم، وتشهد من أعمالهم وحركاتهم كل ما يمجه الذوق السليم، وينفر منه الطبع، بل كل ما يخدش وجه الآداب العامة، ويدل علي فساد التربية، وقلة التهذيب.

وقد حدث لنا منذ مدة غير بعيدة أننا كنا نثني علي النهضة العلمية في البلاد المصرية، مظهرين سرورنا بذلك، معربين عن حسن أملنا بالمستقبل. وكان

أحد أصدقائنا الأوروبيين حاضرا فقال: إنكم تغالون في امتداح هذه النهضة، فإنها عندي سطحية محضة. فأحببنا أن نحجه ونثبت له أنه مخطئ في رأيه. فقال: موعدنا غدا في الساعة الواحدة بعد الظهر لأثبت لكم صحة زعمي.

وفي اليوم التالي وافيناه إلى الموعد، فسار بنا إلى مكان في أحد شوارع الجمرك. فقال: انظروا واسمعوا. فشهدنا والأسف ملء الفؤاد مشهدا لم نكن نتصوره قط. شهدنا في الشارع تلامذة مدرسة لم نعد نحفظ اسمها، وغاية ما نذكر عنها أنها تلقب نفسها بالضوء، أو النور، وما أشبه ذلك.

وكانوا منتشرين في عرض الشارع يلعبون لقضاء فترة الظهر المدرسية.

ولعمري أنك لو أتيت بأي إنسان من أية بلاد متوحشة، وأريته أولئك الغلمان، وأسمعته. ثم قلت له أنهم تلامذة مدرسة لقال لك علي الفور أنك كاذب فيما تقول، وأنهم أبناء الأزقة، لا أولاد المدرسة.

ولسنا نكتم عن القراء ولا نحاول الإنكار أن الناظر إلى حال أولئك الغلمان لا يلام إذا حكما عليهم ذلك الحكم، وقال فيهم مثل ذلك القول.

وعلي تلامذة هذه المدرسة ينبغي أن نقيس تلامذة مدارس كثيرة.

ولا مراء في أن الذين يقضون أيام صباهم في مدارس تكون علي مثل تلك المدرسة لا يشبون علي الخصال التي تؤهلهم لأن يكونوا رجالا كما يجب أن يكون الرجال، بل يكونون ممن يصدق فيهم قول الشاعر:

إني لأغمض عيني ثم افتحها ... علي كثير ولكن لا أري أحدا

وإذا قادك سوء حظك، ودخلت إلى داخل المدرسة، فإنك تجد هناك من دواعي الأسف والغم ما لا حاجة به إلى ظهير. فإنك تجد من قلة النظام، وعدم

الترتيب، ومن القذارة والفوضى في كل شيء ما تستحي معه من إطلاق اسم المدرسة علي ذلك المكان.

ولا يظن حضرات القراء أننا نغالي فيما نذكره عن أحوال بعض المدارس الصغيرة، فإنما نحن لم نذكر إلا طرفا مما يجب أن نذكره عنها؛ ولذلك نلتمس بكل قوتنا، ونرفع صوتنا الضعيف بالمطالبة بإصلاح هذه الحال؛ لأن "من الاشتراك مع الشيطان في عمله أن نهمل شأن المدارس الشعبية". ومما ينبغي توجيه العناية إليه أن المدارس يجب أن تكون في مكان واسع فسيح، وأن تكون صحية الوضع والبناء بحيث يتخللها الهواء النظيف، وتتعهدها حرارة الشمس. والأفضل لها أن تكون بعيدة عن محلات السكنى، منفردة في مكانها، وينبغي أن يفصل الكبار من تلامذتها عن صغارهم، وأن يحافظ فيها علي النظافة محافظة تامة.

أما التلامذة فينبغي قبل أن نلقنهم المعارف والعلوم أن نصلح آدابهم إصلاحا تاما، ونقوم ما أعوج من تربيتهم تقويما يجعل العلم الذي نلقنهم إياه نافعا مفيدا. حتى إذا رآهم وطني لا يملأ الأسف فؤاده، وإذا رآهم أجنبي لا يقول هازئا أنهم أبناء الأزقة لا أولاد المدرسة.

وإلا إذا استمرت الحالة علي ما هي عليه الآن من بقاء المدارس ضيقة قذرة، وإهمال العناية بآداب التلاميذ العامة، فلا هذه المدارس تفيد، ولا التعليم ينفع. بل يكون سرورنا بانتشار الرغبة في العلم والتربية سرور الساعة، فلا يلبث أن يحل محله الغم من فساد النتيجة، والحزن علي ضياع الجهد، وحبوط الأمل والرجاء.

ثم انظر إلى هذا الرجل الجالس في منبر التعليم. أفتعلم بعيشك من هو؟ نعم تعلم، إنه المعلم الذي يلقي الدرس، ويوضح ما أشكل منه علي التلاميذ،

ولكن ليست تلك وظيفته فقط. فإن هذا الجالس في منبر التعليم هو القابض أيضا علي زمام مستقبل هذا الغلام الصغير الذي يتلقى العلم عنه؛ أي علي زمام الهيئة الاجتماعية، وبالتالي علي العائلة بكليتها والوطن بإجماله. وكما يصنع هذا المعلم التلميذ هكذا يكون الرجل فيما بعد؛ لأن المعلم هو المربي، والمؤدب. وهو أب ثان للولد، بل هو ذو شأن أعظم من شأن الأب الحقيقي؛ لأنه يبث في الولد ما لا يبثه فيه أبوه من العواطف والشعائر، وينقش في فؤاده وذهنه ما لا ينقشه فيهما والده من الأخلاق، والعادات. ولله در القائل:

أقـدم أسـتاذي علـي فضـل والـدي وإن كان لي من والدي الفخر والشرف

فـذاك مـربي الـروح، والـروح جـوهر وهذا مربي الجسم، والجسم من خزف

ولذلك كان الأقدمون والمحدثون في كل بلاد توفر حظها من المدنية يجلون مقام المعلم، ويقدرونه حق قدره، ويرفعونهم منزلتة علي منزلة سواه، ويكثرون من احترامه. وكانوا يختارونه من أعلي طبقات أهل العلم والأدب، ولا يتخذون معلما إلا من كان ذا كمال في الأخلاق، وعفه في النفس، ونزاهة في الطبع؛ ليكون المعلم مثالا حيا للكمالات والفضائل تتمثل في شخصه لإعين التلاميذ الذين يقرأون عليه، ويأخذون عنه.

فلنحاسبن أنفسنا قليلا لنرى إذا كان المعلمون الذين نلقي إليهم هذه المهمة العظيمة –ونريد بها مهمة جعل الولد رجلا حقيقيا صالحا لخدمة نفسه، وعائلته، ووطنه خدمة صادقة– حائزين كلهم للصفات التي تؤهلهم لهذا المنصب الخطير، وتعدهم للقيام في منبر التعليم والتربية.

إننا إذا حاسبنا أنفسنا حسابا مدققا، وتحرينا قول الصدق والحق دون تملق ولا تدليس وجدنا أكثر المعلمين عندنا إذا لم نقل كلهم، ولاسيما في المدارس

التي يتولون إدارتها، ويقومون بعمل التعليم، والتعلم، والتربية فيها. بل ترى كثيرين منهم كانوا السبب في فساد أخلاق التلاميذ، وضياع مستقبل الأولاد؛ لأنهم أنفسهم غير ذوي علم، ولا تربية، ولا أدب، ولا أخلاق.

ومن لم يكن حائزا صفات الكمال فكيف تطلب منه أن يمنحها غيره، والإناء لا ينضح إلا بما فيه؟

فليتنبه الشرقيون إلى هذه الحالة، وليعلموا أن تربية البيت لا تتم وتثمر الثمر الجيد إلا إذا جاءت تربية المدرسة علي الطريقة التي يجب أن تجيء عليها، وأن تربية المدرسة من أعظم المؤثرات في التربية الآتية: وهي تربية المدرسة الكبرى؛ أي مدرسة العالم، والاختبار. فقد قال الشاعر:

وأن مـــــن أدبتـــــه في الصـــــبا كـــالعود يســـقى الميـــاه في غرســـه

حـــــتى تـــــراه ناضـــــرا مورقـــــا بعـــد الـــذي عاينـــت مـــن يبســـه

الفصل السادس والعشرون

بعد المدرسة

جرينا مع الولد في الكلام عن العلم والتربية منذ ولادته، بل قبل ولادته. إلى أن كبر ونما، ودخلنا به إلى ساحة المدرسة، وذكرنا له العلم، والدين، والوطن. فليسمح لنا القراء الآن بإيراد فصل كتبناه فيما مضى إجابة لطلب أديب من أدباء العصر. كان له شقيق في المدرسة، فأحب أن يخاطبه يوم أتم الدراسة، وختم العلم، وخرج من المدرسة ناجحا غانما بما يكون له تبصره في الحاضر، وتذكرة في المستقبل. وهو كلام نزفه إلى كل ناشئ من طلبة هذه الأيام ممن قضوا أيامهم في المدارس، وهم يتأهبون لدخول مدرسة العالم الكبرى، راجين أن تكون نصيحتنا مقبولة، وخدمتنا نافعة. وهو:

"يا أخي لقد بلغت السنة الثامنة عشرة من سني حياتك، والسادسة من أيامك المدرسية، وهي العمر الحقيقي الذي عشته إلى الآن؛ إذ كفلك أبواك، ومعلموك بآداب الدينظو والعلم. وشققا عقلك وفتحوه للنور، فعرفت الواجب وأدركت الحقوق، وما أزيدك بأهمية ذلك علما.

والواجب يا أخي عند المرء ينقسم إلى أقسام: وهي ما يجب عليه نحو هيأة الاجتماع عموما، وما يجب عليه نحو وطنه، وما يجب عليه نحو نفسه.

وكما تنقسم فروضه تتجزأ أيضا حقوقه، وكما أن واجباته ثلاثة أقسام فحقوقه أيضا ثلاثة: وهي حقوقه علي الهيئة الاجتماعية، وحقوقه علي الوطن، وحقوقه علي نفسه. ويلي هذه الحقوق والواجبات حقوق وواجبات أخري

إضافية: وهي حقوقه علي أبويه، وعائلته، والأفراد الذين يعاملهم، وواجباته نحوهم.

وهذه يتعلمها المرء بسنة الطبيعية، وبدرس الشرائع. أما الأولى: فلا يصل إلى فهمها فهما حقيقيا، والعمل بها عملا حسنا إلا من سمت مداركه، وعلت أفهامة. وإنني متوسم بك الذكاء والنجابة، وبعد الفهم، وكرم النفس، وحب النظر في الأمور، ومعرفة ما يجب عليك ويحق لك. فلذلك أرجو أن أرى منك فتى يقوم بما يجب عليه، ويستولى علي ما يحق له، فلا تخيب أملي بك.

ولقد كنت أود أن اشرح لك ما هيه ما ذكرته من الفروض والحقوق كل علي حدته. لولا ما أخشاه من ملل الحضور، وما أعلمه من ذكائك وإدراكك، مما آمل معه أن تكون قد أدركت مغزى كلامي، وأن تبحث البحث الدقيق عما لم يتجل لك معناه. فإن السامع إذا لم يترو معني ما يلقي عليه، وينقب عن الغاية منه، كان كالحجر الذي يسيل عليه الماء مارا إلى سواه، فلا ينتفع به. وإذا فهم المعني، وأدرك المغزى، ولم يعمل بهما كان كالوعاء المثقوب الذي لا يضبط الماء إلا ريثما ينزف منه. ولقد ضربت لك هذين المثلين لتعلم أن الإنسان إنما وجد ليبحث ويدأب، فيعلم ويعمل. فالعالم إن لم يكن عاملا كان كالشجرة التي لا تثمر والتي لا تستحق إلا أن تقطع وتلقي في النار.

وأنني خبرت الأيام، ودرست الطباع والأخلاق، فرأيت أكثرها قد فسد وتغير، وصار الصالح بين الناس أعز من بيض الأنوق، والكريم الحر رابع المستحيلات، فرأيت أن استلفت نظرك الحاد، واجتذب فؤادك الملتهب بدم الصباء إلى وصايا أحب أن ألقيها عليك، فإذا عملت بها نشأت بين قومك وآلك صالحا كريما حرا يشار إليك بالبنان.

يا أخي. لقد كان يومك فريد في عقد عمرك، ظهر فيه من نجابتك، وتوقد

ذهنك، وذكائك ما صفقت لك معه الأيدي، وشخصت به الإبصار إليك، وحامت الأنظار حولك، وانطلقت الألسنة تقول: ما شاء الله. فلقد كللت مساعيك المدرسية بالنجاح، فكال رأسك البهي بإكليل الاستحقاق والظفر. ولست أكتمك أن قلبي قد صفق طربا، وأن عيني أغر ورقتا بدمعة الفرح لما سمعت اسمك العزيز ينادى به في مقدمة الناجحين، ورأيتك سائرا في طالعة المجتهدين المفلحين، وبصرت بالجم الغفير يصفق ويضج استحسانا لما كلمك به الرئيس، ولكن لا يستفزك هذا النصر، ولا تأخذك الخيلاء والكبر.

وأعلم أن العاقل من اغتنم يوم النصر، وساعة الظفر لإعداد راحة المستقبل، وهناء الغد المقبل. والحكيم لا يسكره الانتصار، ولا يلعب به الكبر والافتخار. نعم إن سبقك في مضمار الدرس يعد سبقا وفوزا، ولكنهما مجازيان ليس إلا. فإن شئت أن تحققهما فأفعل ما أوصيك به.

يا أخي. أول ما أوصيك به السلوك بحسب القواعد، والأصول التي ربيت عليها. والآداب التي كفلك بها أبواك، وأساتذتك. واحترام الأديان، وعدم التعصب، وليكن ضميرك قاضيا عليك، وفطرتك قائدا لك، وشاور في بدء كل أمورك عقلك، واستشر فؤادك، ولا تصغ كثيرا إلى أقوال الناس، بل أعمل بما جبلت عليه. وبما تدلك إليه الفطرة الطبيعية، فإنها في أكثر الأحيان لا تخدع، وقلما سقط من حسنت فطرته وكان متبعا لإشارتها.

وعليك بإدمان المطالعة واستقصاء الأحوال التي تشغل الهيئة الاجتماعية، والسعي ما أمكنك وما سمح به سنك إلى حلها بالطرق السلمية. وعليك بنصح من هو دونك، واستنصاح من كان فوقك، واحترام آراء الناس ومجاراتهم علي ما يريدون مما لا يمس شرفك، ولا يخدش اسمك، ولا يقلق راحة ضميرك. وإياك أن تدخل فيما لا يعنيك أمره، وأن تشتغل بصغائر الأمور لئلا تلهيك عن العظائم،

ولا تطلب الشهرة والكسب إلا من كل طريق محمود، وطريقة شريفة. وأحذرك الكلام عن الناس بدون الحرص الشديد والانتباه الدائم؛ لئلا يستعدوك ويحطوا من قدرك، ويصبح اسمك مضغة في أفواه اللئام. واحذر معاشرة من لم يشرف عنصره، وتسم غايته، وتتنزه خلاله عن كل منكر. وأهرب من السكير، والمقامر، والنمام. ولا تجالس الثرثار، والمهذار. ولا تستعمل الحيلة، والمواربة. وكن كثير البحث قليل المراء. واجتنب الحدة في جدالك وخطابك، وكن كريما جوادا، ولكن لا تكن مسرفا. وانظر قبل أن تسخو بما عندك إذا كان من تجود عليه يستأهل جودك. وإذا أعطيت فأكتم عطاءك ولا تفاخر بالحسنة فإن بهاء الإحسان أن يكون سرا. وإياك أن تكون أمام القوي المستبد جبانا لينا، أو أن تسكت عن حقك متى كان لك حق. وقابل الإساءة بالإحسان، والعنف بالملاينة، فإنك بذلك تقود الغير إلى أخلاق حسنة، وطباع مرضية. وأهجر الخمرة، وابتعد عن الملاهي، ولا تكثر من الثراء والأصدقاء. وابل قبل أن تضع ثقتك، ولا تستأمن علي سرك غير صدرك، فأن ضاق صدرك عن كتمان سرك "فصدر الذي تستودع السر أضيق". وكن رحيما شفيقا، ولكن لا تكن ضعيف الطبع كثير الميل مع الهوى، بل كن رجلا ثابت العزم، قوي الطبع، حر الإرادة. ولا تتقيد بغير الحق فإنه سيف الحر، وترس العاقل، ولأمة الحكيم. واكبح جماح نفسك وضع شكيمة لشهواتها، وكن حارسا عليها، فالنفس أمارة بالسوء. وأحذرك الدعوي فإنها آفة العلم، ووصمة عار علي المرء، وكثيرا ما تكون السبب في انحطاط شأن الرجل وسقوطه، وبغض معاشريه إياه. واستقر أقوال الحكماء والفلاسفة، واعمِل الفكرة في كل كلمة منها، وأفحصها فحصا يكفل لك حسن فهمها، ثم اعمل بما يبدو لك فيها من الحكمة واتبع فلسفتها إذا كانت صالحة. وإياك أن تعجل في الحكم، أو أن تحكم علي وهم، فأنك لا تؤمن بذلك أن تزل فتذل، وتندم حيث لا ينفع الندم. وإذا طلبت فلا تكن

مستعطيا، وإذا نهيت فلا تكن آمرا، بل كن في كل أحوالك رقيق الجانب، لين العريكة، حلو اللسان، وإذا حكمت فاحكم بالعدل والإنصاف، وساو بين الكبير، والصغير، والغني، والفقير، فإن حقوق الإنسان واحدة، والغني والفقر لا يؤثران في الحقوق. وبالجملة فأنني أوصيك بأن تعامل الناس بما تريد أن يعاملوك به. ثم دفع إليه كتابا في لغة لا يعرفها وقال. وهذا يا أخي رمز عن أن الحياة كلها أسرار ومعميات، وكلما فككت رمزا وكشفت سرا بدت لك من ورائه أسرار ورموز أصعب منها وأدق، فاجهد في فهم ما ألقيه عليك من هذا القبيل وتدبره. والله المسئول في أن يكلاك ويرعاك بعين عنايته. والسلام"

الفصل السابع والعشرون

المرأة

أشبعنا الكلام في مواضعه من هذا الكتاب في وجوب تعليم المرأة، وتهذيبها، وتثقيف أخلاقها، بحيث لا تبقى متأخرة عن الرجل، فلا يبقي نصف المجتمع الإنساني جاهلا منحطا، وتبقي فائدة تعليم النصف الآخر ناقصة.

وفي ظننا أن كتاب العلم والتربية لا يجب أن يخلو عن فصل خاص نضمنه شذورا مما قيل في المرأة؛ بيانا لمقامها في هيئة الاجتماع، وتأثيرها في العائلة، وإظهارا للشأن العظيم الذي لها. فإنها لما كانت أول من يحملنا في الأحشاء، ويفتح أعيننا للنور، ويقف عند وسادتنا ساعة الضعف والعلة، ويغمض أجفاننا للموت، وكانت شريكتنا في كل سراءً وضراء. كانت ولا مراء ذات شأن خطير لا ينبغي أن نتجاهله ونغض الطرف عنه.

وقد جاء في قول أحد الحكماء :"أن التي تهز السرير ليمينها تهز الأرض بيسارها". وهو قول إذا تدبرته وجدته بالغا حد الإصابة، فإن نهوض شعب، أو سقوط أمة متوقف أمرهما علي حسن تربية المرأة، أو إفسادها. والحقيقة التي لا مراء فيها ولا إنكار لها أن المرأة الحكيمة تعمر بيتها، والمرأة الجاهلة تجر إليه الخراب. فمن هي المرأة التي لها مثل هذا الشأن العظيم في مجتمعنا الإنساني، ومن هي هذه المرأة التي يصحبنا تأثيرها فينا منذ الساعة التي نخرج فيها من ظلمات الأحشاء الوالدية إلى الساعة التي نتوارى فيها في ظلمات القبور؟.

انظر إلى هذه الفتاة التي تلعب في فناء دارك قافزة من مكان إلى مكان،

مشتغلة بكل ما يهم وما لا يهم، ضاحكة تارة، وباكية أخري. أو جالسة علي القعد تخلع عن "عروستها" ثوبا وتلبسها ثوبا، وأمارات الاهتمام بأدبها علي محياها، وسمات الاشتغال ظاهرة علي جبينها. هذه الفتاة الصغيرة التي لا شأن لها إلا ما لكل ولد من الشأن هي امرأة الغد التي يطلب منها أن تكون زوجة، وأمًا، ورفيقة، ومربية، وشريكة في الحياة، وأمينة علي الأسرار، ومعزية وقت المصاب. والتي يجب عليها أن تبتسم للرجل وقت فرحه، وتمسح دمعته وقت حزنه، وتسهر علي أولاده، وتبث فيهم العواطف الشريفة والشعائر السامية، وتعرفهم واجباتهم، وتدلهم علي حقوقهم، وتنير أبصارهم وبصائرهم، وتفتح أعينهم للخير، وتبعدهم عن طريق الشر، وتنفخ فيهم روح الفضائل والكمالات. فهذه الفتاة التي لا تعبأ الآن بها سوف ترد إليك متى بلغت سن المرأة كل ما استودعنا إياه. إن عملا فعلما، وأن جهلا فجهلا. وبمعني أعم وأوضح إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا.

ونحن نحب أن نستشهد بأقوال بعض العلماء والفلاسفة الذين وقفوا أقلامهم للبحث في حالة المرأة. وما لها من الشأن، والتأثير في المجتمع الإنساني. وأول ما نورده من هذا القبيل كلام ورد في كتاب عنوانه "المرأة – الرجل" وضعه المرحوم إسكندر بن إسكندر دوماس الكاتب الفيلسوف الفرنسي. فقد جاء فيه ما تعريبه:

"فلنجهد الآن في الإحاطة بهذا الموضوع المهم من وجه الاختصار والجد. فهو كما لا نجهله موضوع كثير الأهمية، بل هو أكبر المواضيع الحالية أهمية وشأنا، فإن الإنسانية إفرادية كانت، أو إجمالية لا نزال نضطرب رهبة أمام ذلك القد الأهيف الهائل؛ أعني به المرأة التي نولد منها دائما، ونموت بها غالبا. فهي تبعث الحياة إلى المرء طفلا، ولكنها تأخذها منه رجلا. تلك حقيقة لا يختلف

فيها اثنان، فإننا نسمع بها كل يوم، ثم نراها رأي العين، ونشعر بها حتى لم يبقي فيها من ريب.

ولقد زعم البعض أن الشرقيين فازوا وسهلوا صعوبة الأمر بسجنهم المرأة، والإقفال عليها. فبالغرور يظنون بما يفعلون أنهم يضعفون قوة العدو، ولكنهم يجمعون قواه لو يعلمون. وبدلا من أن يتركوا الزوبعة تلاطم أقطار الدنيا تراهم يحصرونها معهم في مجال ضيق، فتصب عليهم محنها، وتلعب بهم دون رحمة ولا إشفاق وهم لا يشعرون. ويجهلون، بل نكاد جميعنا نجهل أن الواسطة الوحيدة لإضعاف امرأة إنما هي منحها الحرية، فإذا شئت أن تكون سيدها ومالك أمرها فأكسر قيود عبوديتها، فاستعباد المرأة هو الدافع لها، وهو ضمانها، وقوتها، وسلاحها. والمرأة الحرة امرأة ميتة في عجزها عن الإضرار، حية في أنها حرة"

ولعمري أن الذين ينكرون علي المرأة كل حق، ويحرمونها كل مقام في المجتمع الإنساني بحرمانهم إياها العلم، والتربية، والحرية ينبغي لهم أن يتدبروا هذا الكلام، وينظروا إليه بعين التروي، ثم يحكموا بعد ذلك إذا كانوا مصيبين فيما يفعلون.

ومما يحسن إيراده هنا من أقوال كتاب فرنسا بشأن المرأة وتعريفها قول الكاتب الشهير (أميل دي جيرا ردين)؛ إذ قال موجها الكلام إلى إسكندر دوماس الذي كان يناظره في موضوع المرأة ما خلاصته:

"وما المرأة أنه يكفينا في تعريفها أن نقول: أنها الأم، والأخت، والابنة، والحليلة. وأننا إذا كنا ذوي حياة أفليس أن حياتنا من عندها؟، وإن كنا نفكر أفليس بواسطتها؟. وإن كنا نخلص في أيام الصغر من كل أخطار الموت التي تحدق بنا فنصير رجالا ذوي لب، وذكاء، ومعرفة، وإحساس. أفليس كل ذلك راجعا إليها؟"

ثم قال في موضع آخر يخاطب مناظره: "فأنا أهنئك أيها العزيز دوماس بأنك ارتضيت بأن تكون من صف الذين يعتقدون بأن اليوم الذي تصير فيه المرأة مساوية للرجل مساواة شرعية لهو يوم عظيم للإنسانية، والحضارة، والمدنية. وحينئذ يجري التقدم في مجراه الطبيعي، ويسرع النجاح شاكلهما: وهي العقدة التي ظنت هيئة الاجتماع أن لا حل لها لما مر عليها من السنين، والأعوام. حينئذ يقل الفساد إذا لم نقل يزول. حينئذ يعود علي المرأة كل التبعية من حيث تربية البنين، وصحتهم، وتهذيبهم، وترويض أخلاقهم"

وفي موضع آخر من هذا الكتاب النفيس: "فكم كان في الزمن الماضي عقبات، ومسالك وعرة أخرت سير النجاح، وكانت حائلا دون التقدم والارتقاء، فزالت باعتناق مذهب أو اتباع رأي؟. وكم من العقبات، والموانع ستزول في المستقبل أيضا علي هذا النحو. ولعمري من لا يرى أن هيئة الاجتماع يمكنها دون خطر أن تبقى ساكنة غير متقدمة إلى الأمام.

وكيف تبقى ساكنة، والعلوم، والمعارف تغير في كل يوم، وبدون نهاية حالتها الحاضرة؟. كيف تبقى ساكنة العالم الجديد (عالم كريستوف كولومبوس) غير منفصل عن العالم القديم إلا بمسافة بضعة أيام؟. كيف تبقى ساكنة، والبلاد تتداني ماديا، والرجال تتقارب أدبيا؟. كيف تبقى ساكنة وقد أصبح الغني والفقير في منزلة واحدة تجاه الأعمال. يقلهما واحد، وتنقلهما سفينة واحدة بالسرعة نفسها؟. كيف تبقى ساكنة وأبناؤها يجهدون في الارتقاء بمقدار ما كان أبناء الزمن الماضي يجهدون في أن لا يسقطوا؟. كيف تبقى ساكنة وقد صار معظم القواد من الطبقة الوسطى، والنبلاء المستبدون ينظرون خاسرين؟. كيف تبقى ساكنة وقد صار الأمر في يد الشعب، ولا رأي إلا ما يراه؟ بل كيف تبقى ساكنة ونحن نرى المرأة في البلاد المتمدنة سائرة أمام الجميع تنادي بالحرية،

وتطلب مساواتها بالرجل؟"

ثم قال في موضع آخر: "الشعب ما تريد المرأة أن يكون، فإنها بالعلم الذي تتلقاه ولو بعد حين، وبتربيتها للفتاة منذ المهد، تفتح للعادات والأخلاق الجديدة بابا رحبا. والرعاع الجهلة من كل قوم يتناقصون في كل يوم، ولقد أصبح عددهم أقل كثيرا مما كان في بدء هذا القرن حين كان كثيرون يجهلون القراءة رجالا، ونساء. فالذي تحسن بنا ملاحظته إذًا أنما هو المرأة الراقية سلم الارتقاء، المتممة قتل الهيئة الاجتماعية القديمة لتحيي بموتها مجتمعا جديدا، وهي التي تسترد بهمتها وسعيها المنزلة التي اغتصبها منها الرجل، فأنزلها عنها ظلما واعتداءً"

وهو قول يدل دلالة واضحة علي تأثير المرأة، وعلو منزلتها في المجتمع الإنساني. كما يدل أيضا علي أنها سائرة بسنة الطبيعة في الطريق التي تعيدها إلى المقام الذي أنزلها الرجل عنه بأثرته، وغباوته معا. ونحن وإن كنا قد أطلنا في الاقتطاف من أقوال هذا الكتاب، فأننا نحب أن نأخذ عنه أيضا أقوالا أُخر، حَرِية بالاستبصار؛ لأنها وإن كانت مسطرة بقلم رجل أوروبي عن النساء الأوروبيات، فهي جديرة بالنشر بين صفحات هذا الكتاب؛ للدلالة علي استطاعة المرأة عندنا أن تكون غير ما هي الآن إلا إذا أنكرنا عليها أنها من طينة سواها من نساء الغرب.

ومما نقتطفه من كتاب "مساوية الرجل" للمسيو دي جيرارد ين. كلام أحب صاحبه أن يثبت به ضرورة منح المرأة الحرية التي يتمتع بها الرجل، وأنها قادرة علي القيام بالأعمال التي يقوم الرجل بها، وعلي مساواته في كل أمر. رأيٌ لا نتعرض لتأييده، أو لنقضه. ولسنا نطلب الآن لنسائنا كل ذلك، بل غاية ما نطلبه أن تعطى المرأة المقام الذي يحق لها ويخولها إياه كونها أمنا، وأم أولادنا.

وهذا قول المسيو دي جيراردين:

"أي عمل بعد إلغاء الرقيق يجب أن يفتخر به العالم؟. أليس هو إلغاء الفرق بين الرجل والمرأة؟. أليس إلغاء عدم المساواة والتكافؤ بين عضوين أوجدتهما الطبيعة متساويين أن الحرية التي لا تزال في مهد الطفولية تنمو نموا سريعا؟. ولسوف تقلب نظام الهيئة الاجتماعية، وتبدل الحالة الحاضرة بحالة أخري. وهذا لا خلاص منه ولا مناص. وكيف يمكن اجتنابه ونحن نري المرأة تثبت مساواتها للرجل في المقدرة العقلية بتلقنها نفس الدروس والتعاليم التي يطلبها، وبحصولها علي نفس التربية، ومطالعتها لنفس الصحف، والمجلات، والكتب. وتحصيلها نفس الشهادات بعد تأديتها لنفس الامتحانات والفحوص. وبالجملة بسعيها وراء كل ما يسعى إليه الرجل، ووصولها إلي ما يصل إليه؟

ومن كان في ريب مما أقول فليذهب إلى أمريكا. حيث يلقى النساء العالمات، والمكاتبات، والطبيبات، والنائبات، والقاضيات، والمحاميات. حيث النساء يشتغلن بجد ونجاح بكل ما يشتغل به الرجال. حيث جمعيات النساء ترأسها النساء. حيث مدارس الإناث تعطي الشهادات في العلوم العالية، والطب، والشريعة. أو لم تروا أيها القراء كيف أن "مدرسة النساء الطبية" قد أعطت من زمن قريب شهادة في الطب لعشر فتيات بارعات؟ وأنني أذكر لك أيها العزيز دوماس شهادات الرجال العظام في أمريكا بشأن انتخاب النساء في أمور النيابة والقضاء (وأورد شهادات كثيرة يستدل منها علي أن النساء قمن بأعباء هذا الأمر قياما حسنا، مما قام به أكثر الرجال). ومن تلك الأدلة واحد افتتح به رئيس المجلس الأعلى في "ويمنج" شهادته. حيث قال: إنني مع ما كنت أزعمه من عدم إمكان بلوغ المرأة درجة الرجل أري نفسي مضطرا إلى الإقرار بحسب الذمة، والصدق بأن النساء قد قمن بأعباء مناصب المحلفين قياما

أكسبهن ثناء الجمهور، واحترام العقلاء. فلقد أظهرن من الانتباه، والاعتناء، والذكاء، والصبر علي العمل، والسير علي ما يقتضيه الضمير والناموس ما اضطر المعارضين إلى الإذعان.

ومما جاء أيضا في شهادة المحترم كينجمان من رسالة بعث بها من ويمنج إلى جريدة سندي هرالد قوله: "أن نساءنا مهتمات بالأمر اهتمام الرجال أنفسهم، وكلهن يقدمن علي الانتخاب بحرية واستقلال ضمير، ولسن كالرجال عرضه للخروج عن الصواب، والميل مع الهوى.

هذا وأنت تذكر أن رئاسة جمهورية الولايات المتحدة عرضت علي امرأة: هي ميس فكتوريا ودهال. ولم يتلق الناس ذلك بالهزء والسخرية"

ولسنا نزيد القراء شيئا من عندنا، ولا من قول سوانا. فلقد أثبتنا لهم علي ما نظن أن للمرأة تأثيرا عظيما جدا في حالة الشعب. وأن ارتقاء الأمة، أو انحطاطها يكون بقدر ارتقاء المرأة، أو انحطاطها.

ولما كان أكثر ما تقدم لنا من الكلام إجماليا عاما، فقد رأيناه إتماما لواجب الخدمة أن نخص إخواننا المسلمين بكلمة عن المرأة، لا نقصد بها إلا النفع. ونحن لا نشرع في هذا الموضوع قلمنا، بل نتخذ لنا عونا في هذا الموضوع العسير قلم عزتلو الفاضل قاسم بك أمين صاحب كتاب "تحرير المرأة" – وصاحب البيت أدرى بالذي فيه– مقتطفين من هذا الكتاب النفيس شذورا نوجه إليها أنظار قراء كتاب "العلم والتربية" من المسلمين، وعساهم أن ينتبهوا إلى أن الزمن الذي نحن فيه زمن أعطاء كل ذي حق حقه. فحق المرأة أن تكون في المجتمع الإنساني ذات مقام مرتفع، ومنزلة سامية؛ لأنها أم الرجل، وأم أولاده، وشريكته في أطوار حياته، فكما أن له حقوقا ويهضمها لأنه القوي وهي الضعيفة.

وقد يقول بعضهم في الرد علي هذا الكلام أن صاحبي كتاب تحرير المرأة، وكتاب العلم والتربية غير صادقين في ما يقولانه عن احتقار الشرقيين عامة، والمسلمين منهم خاصة شأن المرأة، وجهلهم المقام الواجب لها؛ لأننا نكرم المرأة، ونبالغ في إعزازها، ونطعمها ألذ ما عندنا، ونلبسها أنفس ما تصل إليه أيدينا. علي أن ذلك كله ليس إعطاء المرأة حقها، ولا شيئا من حقها. وليس احتقارها منحصرا في قلة إكرامها، وفي امتهان حرمتها، وإذلالها، والتضييق عليها في أسباب المعيشة. ولكن ثمة أمورا كثيرة نأتيها عن غير اكتراث، وهي كلها احتقار للمرأة، وغض من كرامتها. وإن شئت أن تعلم ما هي فاسمع ما ورد في كتاب تحرير المرأة بقلم رجل مسلم يحترم أمته، ودينه. ولكنه يعلم أن احتقر المرأة يضر بالمجتمع الإنساني ضررا شديدا، ويحط من شأن الوطن والأمة حطا عظيما. وهو قد جمع في الأسطر الآتية كل ما كان من شأنه أن يوقف مجرى تقدم الجنس اللطيف في الإسلام، وذلك يجعل المرأة أمة رقيقة، إقرارا منه بأنه لا يركن إلى أمانتها، ولا يصدق بها. قال:

"ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضمها الرجل، وأخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان، وداس بأرجله علي شخصيتها. عاشت المرأة في انحطاط شديد، أيًّا كان عنوانها في العائلة: زوجة، أو أما، أو بنتا. ليس لها شأن، ولا اعتبار، ولا رأي، خاضعة للرجل لأنه رجل، ولأنها امرأة منتهي شخصها في شخص الرجل، ولم يبق لها من الكون ما يسعها إلا ما استتر من زوايا المنازل. واختصت بالجهل، والتخريب بأستار الظلمات، واستعملها الرجل متاعا للذة. يلهو بها متى أراد. ويقذف بها في الطرق متى شاء له الحرية ولها الرق. له العلوم، ولها الجهل. له العقل، ولها البله. له الضياء والفضاء، ولها الظلمة والسجن. له الأمر والنهي، ولها الطاعة والصبر. له كل شيء في الوجود، وهي بعض ذلك الكل الذي

استولى عليه.

من احتقار الرجل للمرأة أن يملأ بيته بجوار بيض، أو سود. أو بزوجات متعددة يهوى إلى أيهن شاء، منقادا إلى الشهوة، مسوقا بباعث الترف، وحب استيفاء اللذة، غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل، ولا بما أوجبه عليه من العدل فيما يأتي.

من احتقار المرأة أن يطلق الرجل زوجته بلا سبب، من احتقار المرأة أن يقعد الرجل علي مائدة الطعام وحده، ثم تجتمع النساء من أم، وأخت، وزوجة، ويأكلن ما فضل منه.

من احتقار المرأة أن يعين لها محافظا علي عرضها: مثل أغا ،أو مقدم، أو خادم يراقبها ويصحبها أينما تتوجه.

من احتقار المرأة أن يسجنها في منزل، ويفتخر بأنها لا تخرج منه إلا محمولة علي النعش إلى القبر.

من احتقار المرأة أن يعلن الرجال أن النساء لسن محلًا للثقة، والأمانة. كما أن احتقار المرأة يحيل بينها وبين الحياة العامة، والعمل في أي شيء يتعلق بها. فليس لها رأي في الأعمال، ولا فكر في المشارب، ولا ذوق في الفنون، ولا قدم في المنافع العامة، ولا مقام في الاعتقادات الدينية، وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملي"

ذلك بعض ما استلفت نظرنا من كتاب تحرير المرأة. ونحن قد استشهدنا به للدلالة علي أننا لسنا بمنفردين في هذا الرأي، ولأن صاحب هذا القول أحق منا بإيراده.

وقد تقدم لنا في فصل العائلة كلام جهرنا فيه ببيان أضرار الحالة الحاضرة

من انفصال المرأة عن العائلة "فيعيش الرجل في مجلس، والمرأة في مجلس، والأولاد بين المجلسين" ولم نجسر علي رأينا في أمر الحجاب لدقة هذا الموضوع، وتفاديا من أن نتهم بالتعرض لما لا يعنينا، ولا هو من شأننا في شيء. ولكننا نحمد الله على أن العالم المسلم صاحب كتاب "تحرير المرأة" قد سهل لنا هذا السبيل بقضائه علي الحجاب كما هو الآن، قضاء مبرما مثبتا مخالفته للشرع الإسلامي مخالفة تامة. ونحن نقتطف شذورا من كلامه في هذا المعني للدلالة علي أضرار الحجاب المادية، مع غض النظر عن أضراره الأدبية التي لا يحيط بها وصف، وأقل ما توصف به أن هذا الحجاب من جملة الأسباب في سقوط التربية عندنا، بل في انحطاط الشرق إلى الدرجة التي انحط إليها، وهذا ما اقتطفناه من كتاب "تحرير المرأة"، في هذا المعني نورده تبصره وذكري لقوم يعقلون. وهو:

"خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق، وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية، والجنائية. فللمرأة الحق في إدارة أموالها، والتصرف فيها بنفسها. فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها، ويتحقق شخصيتها؟

ومن غريب وسائل التحقق أن تحضر المرأة مغلفة من رأسها إلى قدميها، أو تقف من وراء ستار، أو باب. ويقال للرجل ها هي فلانة التي تريد أن تبيعك دارها، وتقيمك وكيلا في زواجها مثلا. فتقول المرأة بعت، أو وكلت، ويكتفي بشهادة شاهدين من الأقارب، أو الأجانب علي أنها هي التي باعت أو وكلت. والحال أنه ليس في هذه الأعمال ضمانة يطمئن لها أحد. وكثيرا ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الأحوال. فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها، وأجرت أملاكها بدون شعورها. بل تجردت من كل ما تملكه علي جهل منها. وذلك كله ناشئ من تحجبها، وقيام الرجل دونها، يحولون بينها وبين من يعاملها.

كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة، أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة؟. كيف يمكن لخادمة محجوبة أن تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجال؟. كيف يتسنى لزارعة محجوبة أن تفلح أرضها، وتحصد زرعها. كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها إذا أجرت نفسها للعمل في بناء بيت، أو نحوه.

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الإنساني ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول إليه. ووضع للتصرف فيه حدودا تتبعها حقوق، وسَوَى في التزام الحدود، والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع، ولم يقسم الكون بينهما قسمة إفراز، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن، وجانبا للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء، بل جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين، شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز. فكيف يمكن مع هذا لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به، مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى، وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها، وبين الرجال إذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال إلا من كان من محارمها. لا ريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع، ولن يسمح به العقل. لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات علي هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ،كما نشاهده في الخادمات، والعاملات، وسكان القرى، حتى من أهل الطبقة الوسطى، بل وبعض أهل الطبقة العليا من أهل البادية والقرى. والكل مسلمون، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه في أهل المدن.

إذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصما، أو شاهدا كيف يسوغ لها ستر وجهها. مضت سنون، والخصوم، وقضاة الحاكم أنفسهم غافلون عما يهم في هذه المسألة، متساهلون في رعاية الواجب فيها. فهم يقبلون أن تحضر

المرأة أمامهم مستترة الوجه وهي مدعية أو مدعي عليها أو شاهدة وذلك منهم استسلاما للعوائد. وليس بخاف ما في هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما أظن. ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما في ذلك من سهولة الغش. كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه أن يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من أهمها صحة التمسك بقولها. ولا أظن انه يسوغ للقاضي أن يحكم علي شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له. ولا أظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك.

بل أقول أن أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصا في الجنايات. وإلا فأي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص، وسنه، وصناعته، ومولده؟. وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها إذا لم يكن معروفا بشخصه؟.

والحكمة في أن الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهره. وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تبدو علي الوجه، والعلامات التي تظهر عليه، فيقدر الشهادة بذلك قدرها. لا ريب أن ما ذكرناه من مضار التحجب يندرج في حكمه إباحة الشرع الإسلامي لكشف المرأة وجهها وكفيها، ونحن لا نريد أكثر من ذلك.

واتفق أئمة المذاهب أيضا علي أنه يجوز للخاطب أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوجها. بل قالوا بندبه عملا بما روي عن النبي صلي الله عليه وسلم حيث قال لأحد الأنصار –وكان قد خطب امرأة– "أنظرت إليها". قال: لا. قال: "انظر إليهافإنه أحرى أن يؤدم بينكما"

هذه هي نصوص القرآن، وروايات الأحاديث، وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية في أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها، وذلك

للحكم التي لا يصعب إدراكها علي كل من عقل.

هذا حكم الشريعة الإسلامية، كله يسر لا عسر فيه لا علي النساء ولا علي الرجال. ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفي ما فيه من الحرج عليهما في المعاملات، والمشقة في أداء كل منهما ما كلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعيا، أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش.

أما دعوى أن ذلك من آداب المرأة فلا أخالها صحيحة؛ لأنه لا أصل يمكن أن ترجع إليه هذه الدعوى. وأي علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره؟ وعلي أي قاعدة بُني الفرق بين الرجل والمرأة؟. أليس الأدب في الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء، وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال، والملابس. وجاء في موضع آخر

"علي أن البرقع، والنقاب مما يزيد في خوف الفتنه. لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذي تبدو من ورائه المحاسن وتختفي من خلفه العيوب."

والبرقع الذي يختفي تحته طرف الأنف، والفم، والشدقان. ويظهر منه الجبين، والحواجب، والعيون، والخدود، والأصداغ، وصفحات العنق. هذان الساتران يعدان في الحقيقة من الزينة التي تحث رغبة الناظر، وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتنان بكثير ظهر. ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد في الغالب البصر عنها.

ليست أسباب الفتنه ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة، بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات في أثناء مشيها، وما يبدو من الأفاعيل التي ترشد عما في نفسها. والنقاب، والبرقع من أشد أعوان المرأة علي إظهار ما تظهر، وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة. لأنهما يخفيان شخصيتها، فلا تخاف أن

يعرفها قريب، أو بعيد، فيقول فلانة، أو بنت فلان، أو زوجة فلان كانت تفعل كذا. فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع، وهذا النقاب. أما لو كان وجهها مكشوفا فإن نسبتها إلى عائلتها، أو شرفها في نفسها يشعرانها الحياء والخجل، ويمنعانها من إبداء حركة، أو عما يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلفات النظر إليها.

"والحق أن الانتقاب، والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية. لا للتعبد، ولا للأدب، بل هما من العادات القديمة السابقة علي الإسلام، والباقية بعده. ويدلنا علي ذلك أن هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الإسلامية، وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التي لم تتدين بدين الإسلام"

وفي هذا القدر كفاية للدلالة أولا علي سمو مقام المرأة، وعظم شأنها في المجتمع الإنساني. وثانيا علي وجوب تعليمها، وتربيتها حتى إذا أطلقت حريتها لا ينجم عن تحريرها ما يعود بالضرر، ويدعو إلى الندم.

ونحن نختتم هذا الفصل بأبيات رائقة تثبت أن المرأة كالعادة المرنة يمكن جعلها مظهرا للخير. وللشر. وهو قول لا شك في صوابه، فكم رأينا نساء وجدن لكل عمل جميل قد انقلبن بسبب الرجال إلى شياطين؟ وكم رأينا من نساء الشر من عدن إلى سبيل الهداية، والخير بسبب الرجال. ورحم الله القائل:

حسب المرأة قوم آفة — من يدانيها من الناس هلك

ورآها غيرهم أمنية — فاز بالنعمة فيها من ملك

فمتى معشر لو نبذن — وظلام الليل مشتد الحلك

وتمنى غيرهم لو وضعت — في جبين الليث، أو قلب الفلك

وصـــواب القـــول لا يجهلـــه حـــاكم في مســـلك الحـــق ســـلك

إنمـــا المـــرأة مـــرآة بهـــا كـــل مـــا تنظـــره منـــك ولـــك

فهـــي شـــيطان إذا أفســـدتها وإذا أصـــلحتها فهـــي ملـــك

الفصل الثامن والعشرون

الزواج

الزواج ناموس من نواميس الطبيعة، وسر من أسرار الأديان كلها، وقد وضعت له حدود، وعينت له روابط، وكتبت فيه المقالات المطولة والكتب الضخمة الحجم. فلسنا نتعرض بعد ذلك كله للكلام عن الزواج من حيث هو، بل نحن لا نريد أن يخلو هذا الكتاب عن فصل في موضوع الزواج بعد أن ضمنّاه فصولا في الولد، والرجل، والبنت، والمرأة. وبعد أن أكثرنا من الكلام علي العائلة، وكيف ينبغي أن تكون.

وقد كان الزواج علي عهد أجدادنا أهنأ كثيرا مما هو الآن، والسبب في ذلك أن أجدادنا كانوا يتزوجون علي قصد تأليف العائلة، وتربية الأولاد. أما نحن فإننا نتزوج لكي... نتزوج.

وانظر إلى الزواج في هذه الأيام، فهو في الغالب علة الشقاء، وسبب التعاسة، حتى لقد كتب أحد الشعراء في مطلع قصيدة له:

مـــــن يردهمـــــا مــــــروج فليبـــــــــادر يتـــــــــزوج

ونحن لا نقصد بهذا الكلام إلى التنفير من الزواج، والتحريض علي الابتعاد عنه. لا.. فإننا كنا ولا نزال في مقدمة الداعين إليه، المحرضين عليه. لأنه يسومنا أن نرى فتاة قاعدة في البيت، وشابا يقتل الأوقات في القهوة، وما عدا ذلك فإن الزواج أشرف الأعمال التي يقوم بها المرء وأسماها، فهو لذلك أشدها خطارة، وأعظمها شأنا.

ومن يعد بالذكر إلى مقالاتنا المنشورة في مجلة الراوي، وجريدة الأهرام فيما يختص بالزواج، ويذكر العاصفة التي حاجتها بنات الإسكندرية خاصة علي "ثعلبية" بسبب مقالة قعود البنات التي في العدد الصادر في يوم ٢٥ أكتوبر من عام ١٨٩٧م من جريدة الأهرام، يدرك إلى أي حد نَجل قدر الزواج، ونحترم المتزوجين.

علي أننا مع ذلك كله لا نخشى أن نقول أن التربية التي يجري عليها "المتفرنجون" من الشرقيين قد أقامت حائلا عظيما بين العزوبة، والزواج. حتى لقد أصبح الزواج بمثابة حصن محصور يلتمس الذين فيه الخروج منه، ويريد الذين هم خارج عنه الدخول إليه "ولكنهم لا يجسرون".

ونحن لا نتعمد وصف الحالة وصفا مدققا، والإحاطة بأطراف الأسباب التي صيرت الزواج أمرا عسيرا، وجعلت البنات في البيوت قاعدات، والشبان جالسين في القهاوى. بل نكتفي الآن بالإشارة إليها، تاركين بيان بعضها إلى الفصل التالي الذي سيجئ بعنوان "أخلاق وعادات"، مستلفتين أنظار الشرقيين إلى الكلام الآتي مما عربناه عن فصل للفيلسوف إسكندر بن إسكندر دوماس الفرنسوي، وقد تخيل أنه ذو ولد ذكر، وأن ابنه بلغ سن الحادية والعشرين –وهو سن الرشد عندهم– فأحب أن يعظه بما يكون له تبصره وعبرة. حتى أذا بلغ سن السادسة والعشرين –وهو السن التي تباح فيها للرجل والفتاة حريتهما في الاقتران بمن يختارانه– يعرف أن يختار المرأة الصالحة له، وأن يسير معها علي الخطة التي تكفل هناء الحياة، والمعيشة الراضية. وهو:

"لو كان لي ولد ذكر لكنت أبذل عليه النفس، والنفيس في سبيل تأديبه، وتعليمه، وتثقيف أخلاقه، وتخريجه في أبواب الحكمة وفنونها. حتى أذا أتقن ذلك، وبلغ مبالغ الرجال قدّته بيدي إلى قمة جبل عال، وخاطبته هكذا:

إنك قد وعيت من العلوم والفنون ما يجهله عدد عديد من الناس، وهذا لك –ولا ريب– كنز مكتسب تزيده بقليل من الدأب والاجتهاد، فكن فيه ورأيك، وانته به إلى هواك، فليس علي هذا مدار الأحوال، ولا عنده تحط الرحال، وإنما هو لك بمثابة حقل ترتزق منه، وعليك يعود خيره وشره. إنما المهم هو أعظم من هذا، وفوق ما تتصور، فأنه ليس من صنعة اليد ولا سعة العلم، وهو ما تعقد عليه ضميرك؛ أعني معرفتك غيرك، وقدر نفسك.

وهذه سنتك الحادية والعشرون قد بلغتها، وهذا هو اليوم العظيم الذي فيه تعلن شرائع الإنسانية كفاءتك لأن تكون قائدا لنفسك، مدبرا لأعمالك، حرا في تصرفك حتى فيما يخالف تصرف أبيك، وتطلق لك ما تشتهي من الزواج، أو تركه منذ بلوغك السنة الخامسة والعشرين من عمرك. ولا جرم أن في هذا لدليلا واضحا علي أن تلك الشرائع ترى سياسة المرأة من أصعب ما يعرض للرجل في أيامه. ولقد لقنتك العلوم والمعارف، وسهلت أمامك سبل الحياة، فلم يبق علي من حقوق البنين علي آبائهم إلا أن أسهل عليك أمر هذه الصعوبة، فأرعني السمع، وعلي في قلبك ما أقوله لك، وأعلم أنه هو الحق بعينه، وإن كان في كلام قليل.

تعلم يا بني أنك لست مرُكبا فقط من دم، وعضل، وعروق، وعظام. وأنه لسوف يأتيك يوم ينحل فيه هذا المركب، ولا يبقي لك من هذا الجسم المنظور شيء، فلو كان هذا كل ما تملك علي الأرض لكنت أدنى ما عليها من المخلوقات. وتدري أيضا أن لك حياة أخري غير التي ذكرنا بها ترتفع عن الخلائق الأخر: وهي أنك تفكر، وتذكر، وتفهم، وتحكم، وتأسف، وتأمل، وتحب، ولا تبغض والحمد لله. ولك خلاف ذلك ألوف وجدانات تتركب، وتتسلسل، وتعيش بشخص منك آخر غير منظور: وهو وإن يكن لا حد له،

فإنه يحويه منك هذا المركب المحدود. فليس إذًا وجودك محصورا فيما نراه منك، لكنه يتناول شيئا آخر هو خارج عنك، كما أنك لست عضوا مخصوصا بالخليقة الهيولية التي لك معها تعلق محسوس، ولكنك مشترك أيضا في خليقة أخرى غير محسوسة التركيب: هي التي ترتب هذا العالم بالعقل والوجدان، وهي التي نسميها بالنفس. فبالخليقة الأولى ترى نفسك شبيها بكل ما يولد، ويعيش، ويموت. وأما بالثانية فبعكس ذلك، فإنك تشعر في نفسك بأنك أرفع منزلة من كل هؤلاء.

ولقد أتى عليك واحد وعشرون عاما كلفتك فيها وأدبتك بأداب الدين، والعلم، والتربية، فعلمتك أن لا إله إلا الله الذي أرشدتك إلى عبادته، وإجلاله. وعرفتك ما الوالدان، وما لهما عليك من الحقوق؟ ونهيتك عن أن تفعل بقريبك ما لا تريد أن يفعله هو بك، وعلمتك أن لا تبغضه إذا لم تكن تحبه، وأن تحترمه كنفسك، وتخف ما استطعت لمعاونته وارفاده، فإن التكافل البشري أول شيء تتطلبه منك الإنسانية. وقد نشأت والحمد لله حميد الصفات، لم تسرق لقريبك مالا، أو متاعا. ولم تعد عدة لأوفيت بها، وما برحت إلى الآن عفيف اللسان والقلب، طاهر النفس والذيل، ثابت الجأش أمام صدمات جيوش الهوى، وهذا ما أرجو بقاءك عليه إذا رغبت في أن تعيش منفردا. وأما إذا أحببت أن تفعل ما يفعله غيرك من الرجال فإياك أن تطلب الحب إلا في الزواج، فإن الحب في الزواج مقرون بالاحترام، والحب بلا احترام لا يكون إلا ضعيف البناء، قصير البقاء.

ومع ذلك فقد ترى القالة من حولك يقولون أن رجلا بلغ درجات المدنية يجب عليه أن يكون خبيرا بأحوال النساء قبل زواجه؛ ليتبوأ من معرفتهن مكانا يحسن به العشرة مع التي سيقسمها له القدر، تحاميا لما يقع بين المتخالطين من

الخلاف إذا كان أحدهما علي غير بينة من حال صاحبه، فأعلم يا بني أن ما تسمعه من مثل هذه الأقاويل ليس بذي صدق، إنما ذلك مجرد خدعة يخدع بها الرجل نفسه، ظانا أنه يختبر النساء بما يعرف من فراسة، أو هيئة. وليس بذلك تختبر النساء، ولا بشيء آخر، فإن النساء مهما كشفن لك من أسرارهم فإنهن يبطن فوق ذلك كثيرا. وأعلم أن المرأة التي تخترها إما أن تكون من ذوات الفجور فتحيد بك عن سبيلك، أو من ذوات العفاف فتحيد بها عن سبيلها، فلا تستفيد من الأولي إلا أن تحتقر النساء، ومن الثانية ألا أن تحتقر نفسك. وإذا لقيت امرأة (قبل زواجك، أو بعده) فإذا كانت قبيحة الخصال فأجهد بتحسينها، وإذا كانت حسنتها فإياك وتغييرها، فلا أجمل من منظر امرأة مهذبة الأخلاق.

فإن رغبت في الزواج فاذهب واتخذ لك امرأة من أية رتبة كانت من الخاصة، أو العامة. غنية، أو فقيرة. بشرط أن تكون طاهرة النية، نزيهة النفس، سليمة القلب، طليقة الوجه، محبة للدأب، بعيدة عن المجون والخفة، فإنهما في المرأة دليل الفساد وعلته. وقبل أن تختار الزوجة انظر بعين النقد إلى أهلها، وذويها، فإنهم أكبر دليل عليها، وقلما كذب هذا الدليل.

وإذا اتخذت لك زوجة فقبل أن تصير والدة يجب عليك أن تفهمها ما الوالدية. وأين مكانها من الأسرة؟ وبالتالي من الهيئة الاجتماعية، وكن لها مثالا تستفيد منه، وليكن عملك مقرونا بالاحترام لشخصها، لكن لا تفرط في الاحتفاء بها والتعظيم، وليكن ذلك علي قدر ما يليق بمقامها الزوجي، ومكانها الوالدي.

وأعلم أن من سن شريعة، أو فرض قانونا ولم يعمل بحسب ما سن، أو فرض فهو مراء ذا وجهين، أو مختل الشعور ذو جنة، لا يستقبلها إلا ظهريا؛

فلذلك يجب عليك أن تكون ممتنع القياد علي النساء، كما تريد أن تكون زوجتك ممتنعة علي الرجال، كي لا تفتح لها بابا للعمل والاعتذار... وكشف زوجتك مكشفة الأمين بكل أسرار حياتك، حتى إذا مال عليك ساقي المنون بكأسه وأولادك صغار لا يقومون علي سياسة أنفسهم، تشرب تلك الكأس مطمئنا بأن زوجتك لا تحتاج إلى خلف لك يدير صغارك من بعدك، بل تقوم هي بأعباء ذلك المنصب الشاق، فتكون لهم أبا وأما معا.

وإياك أن تنسى أنك باتخاذك تلك المرأة مساعدة ورفيقة لك الحياة بطولها، تعاهد من نفسك أن تقوم لها مقام الزوج، والصديق، والأخ، والأب. فكن كما عاهدت، وكن معها لين العريكة، رقيق الجانب، بحيث لا تدع لغيرك سبيلا لأن يحل من قلبها محلا مهما كانت صفات ذلك الغير وأخلاقه"

الفصل التاسع والعشرون

أخلاق وعادات

التمدن في الزواج. التربية الصحيحة الجيدة هي التي ترقى شأن الأمم والشعوب، وتمهد لها طريق السعادة والهناء. ونحن الشرقيين قد لهونا عن هذا الأمر، وأهملناه حتى بلغ بنا ذلك إلى عاقبة لا تحمد، ونتيجة لا تدعو إلى المسرة والرضا، بل أنه بلغ بنا إلى أقصى درجات التعاسة، والشقاء.

ولقد تقدم لنا في الفصل السابق كلام في الزواج، ووعدنا في خلال تلك السطور بالعود إلى ذلك الموضوع لنورد للقراء بعض الأسباب التي تجعل الزواج في هذه الأيام عبئا ثقيلا تنوء به كواهل الرجال، وقيدا قاسيا لا تتحمله السيدات. ولما كان الموضوع دقيقا رأينا أن نبدأ قبل أن نخط فيه حرفا باستلفات الأنظار إلى أمر واحد: وهو أننا لا نقصد إلا إلى النفع العام، والخدمة الخالصة لوجه الله. ثم نقول:

من نكد الطالع في هذا الشرق المسكين أن ثروته لم تبق كلها بين أيدي أهله، وما بقى منها فهو دون شك ذاهب كما ذهب ما سبقه –إذا بقينا علي ما نحن عليه من عدم الاهتمام بالحاضر، والاكتراث للمستقبل– وذلك أنه لم يبق للشرقيين مذهب سوى التقليد كأنهم نسوا قول الشاعر العربي:

مـــــن تــــردى بـــــرداء   مــــــــا رآه لأبيــــــــه
ســــوف يأتيــــه زمــــان   يتمــــــني المــــوت فيـــــه

ونحن نذكر هنا قولا يؤثر عن ساكن الجنان المرحوم (محمد علي باشا الكبير) وهو: "ويل للشرق من لبس السوري قبعة، والمصري بنطلونا". علي أننا لسنا نورد هذا القول لذم القبعة، والبنطلون. ولا للوقيعة بالذين تخيروا لبسهما، بل نحن نعتقد أن لا تأثير للباس في العقل، ونجد أن للقبعة والبنطلون ميزة صحية علي الطربوش، والسراويل. ولكننا استشهدنا به للدلالة المعنوية علي حب التقليد الذي يؤدي غالبا بالسذج، والبسطاء، وبسخيفي العقول، والحمقاء إلى إنكار جنسيتهم تارة، وإلى الخراب طورا.

وذلك أن حب التقليد يضطر الغني إلى مجاراة من هو أغنى منه، والمتوسط الحال إلى مجاراة الغني، والفقير إلى السير في خطة المتوسط، وهكذا حتى لا يبقى لأحد حد. وكم رأينا أناسا كان حب التقليد سببا في ضياع ما لهم، ثم في ركوب الدين أكتافهم.

ورب قائل يقول: وأي دخل لهذا الأمر في مسألة الزواج، فمهلا: إننا رأينا أكثر ما أثرت هذه الحالة في الزواج عندنا. ونحن أنما نعني هنا نصارى الشرق، ونخص منهم الذين غلب عليهم حب "التفرنج"، فسبقوا الإفرنج، ولكن في الإسراف، والبذخ، وافسدوا تربية البنين والبنات، حتى أصبحوا وهم لا يقنعون بشيء، ولا يرضيهم شيء، ولا يقدمون علي الزواج؛ لأن مال قارون لم تبق فيه كفاية للقيام بفروض التمدن الحديث، كما يدعي الذين لا يعرفون من التمدن إلا اسمه.

وإلا فهل من التمدن أن لا يتزوج الشاب إلا بفتاة شابة جميلة، غنية متعلمة لغتين، أو ثلاثا، بارعة في التصوير، والرقص، وركوب الدراجة، والضرب علي البيانو. ولا يهم أن تكون ذات أدب، وحياء، وعلم بتدبير المنزل، وتربية الأولاد؟

وهل من التمدن الحقيقي الصحيح أن لا تقترن الفتاة إلا بشاب ذي خلاعة، ذرب اللسان، مجرد عن كل علاقة عائلية، وأن لا يكون مستخدما، ولا ذو حرفة، أو صناعة.

وقد طرقنا باب البحث في هذا الموضوع في جريدة الأهرام منذ عامين، وأسفنا لقعود البنات، وأحجام الشبان عن الزواج. فجاءتنا من أحدي الأوانس في القاهرة رسالة زعمت فيها أن الرجال هم السبب في هذه الحالة، وطلبت إلينا أن نبدل "قعود البنات بتقاعد الشبان"، وفي ذلك موضع نظر، فيه موضع إصابة وحق.

علي أن النتيجة واحدة، ونحن لا نبرئ أحد الفريقين، ولا نجعل الخطأ كله في جهة واحدة، بل أن نصف السبب من الرجال، ونصفه من النساء. وإن شئت فالسبب ناجم عن فساد التربية التي نتلقاها.

وقد قالت صاحبة الرسالة في ختام كلامها: "أن السبب في قعود البنات إنما هو تقاعد الشبان، فإنك لا تكاد تذكر لشاب فتاة حتى يبادرك بالسؤال عن مهرها (الدوطة)، غير ناظر إلى شيء سوى المهر إذا صبح المال كل ما يجري الرجال وراءه. بحيث يصح أن يعقد الزواج في هذه الأيام بين الرجل والمهر، وترسل المرأة مع "الجهاز" بدلا منه..."

ذلك كان بعض جوابها. ونحن نعتقد أن المهر سبب من الأسباب، ولكن ما الذي يحمل الشبان علي الجري وراءه يا تري؟ لنبحثن قليلا علنا نهتدي.

ضمنا مرة وبعض الأتراب مجلس، فعددنا فإذا نحن خمسة عشر شابا وكهلا، ليس بيننا متزوج. فقلنا لأدناهم إلينا: ألا ترغب في الزواج. قال: لا. قلنا: ولماذا؟ قال: هذا رفيقي ينبئك. فبرز إلينا الرفيق قائلا: دعونا من الزواج

فإننا هنا خمسة عشر رجلا لا نريده، والتفت إلى سائر الحضور وقال باسما: ألست بلسانكم متكلما، فأومأ بعضهم، وأجاب غيرهم بالتصديق علي ما قاله. إلا فتي في الربيع السادس بعد العشرين فإنه أجاب وقد صبغت حمرة الشباب محياه: اللهم أن حلفتني فلا. قال: إنك دون شك عاشق، والعاشق غر، ومع ذلك فإن كان لك في الزواج رأي حسن فأبده، علي أنني منذرك سلفا بعدم الانقياد لرأيك؛ لأن الزواج في هذه الأيام خراب للبيوت لا عامره.

ثم احتدم الجدال بين الحضور، ودارت المناقشة كأنها الحرب العوان ترغيبا في الزواج؛ لأنه سنة الله، والطبيعة. وحثا علي اجتنابه لأن امرأة اليوم غير امرأة الأمس. إلى أن مضي هزيع من الليل فمضى كل في سبيله ونح. إذا أمعنا النظر في هذا الأمر لا نجد أولئك الشبان مخطئين خطأ عظيما في قولهم أن الزواج في هذه الأيام خراب للبيوت. ولكنهم هم ونساؤهم السبب لو يعقلون. ولنأخذن لذلك مثلا: رجلا كان خادما في محل تجاري، وكان لأول عهده بالخدمة قليل الراتب كما هي العادة، ثم أخذ يتدرج في الزيادة حتى صار راتبه ٢٠ جنيها مصريا في الشهر، فمر بباله أن يتزوج، واختار له فتاة غير ذات ثروة، لكنه أبي وأبت حضرتها أن يمد رجليه علي قدر بساطة فأشتري له منزلا واسعا، وفرشه بالرياش الفاخر، والبسط الثمينة، منفقا في هذا السبيل كل ما كان قد وفره في شبابه. بل استدان فوقه ليكون الكناس خليقا بالغزال الوارد.

ولسنا نذكر للقراء كيف عاش الرجل بعد ذلك، ولكنهم يعلمون أن من يضع رجله في أول السلم لا بد من أن يصل إلى قمتها إذا كان صاعدا، وإلى أسفلها إذا كان نازلا...

ونحن إذا نظرنا إلى أكثر ذوي الدرجة الوسطى منا وجدناهم يجرون علي هذه الخطة، وإذا لقيناهم بعد مدة من زواجهم فلا نسمع منهم إلا "لعنة الله

علي الزواج". ولكن ما ذنب الزواج أيها الأخوان إذا كنا لا نعرف أن نتزوج، وإذا كان الواحد منا لا يرضى أن يعيش مع عرسه إلا كما يعيش صاحب الثروة العظيمة، والمال الذي لا تنفذ ذخيرته.

وأننا نذكر حديثا سمعناه من إحدى السيدات علي مسمع من حضرة زوجها إذا سألها سائل إذا كانت علي عزم الذهاب إلى مرقص كبير بعد في الثغر، فقالت: من أشهي ما لدي أن أشهد هذا المرقص، لكنني غير ذاهبة إليه. فقال السائل: ولم يا سيدتي؟ قالت: لأنني لم اصطنع لهذا المرقص ثوبا، ونظرت إلى زوجها باسمه، وأظنها كانت تبتسم عن هزء. فقال السائل الفضولي: ولكنني رأيتك في حلل من الحرير، وأثواب من الدمقس، قل اللواتي يلبسن مثلها في هذا المرقص. قالت نعم، لكنني إذا لبست ثوبا منها يعرف الناس أنني لبسته من قبل، وأنا أريد أن أكون من أحسن اللابسات في مثل هذه الحفلات إذا لم أكن أحسنهن.

فقال السائل: إذا سمحت لي السيدة أن أجاوب، فعلت وإلا صمت، وأخاف أن أسكت فتعد سيدتي سكوتي رضا. قالت سمحنا. فأجب قال: لتفرضن أن عدد السيدات في هذا المرقص ١٠٠ سيدة. قالت نعم، وماذا قال؟ فأنا أضمن لحضرة السيدة أن عشرا منهن فقط سيكن فوقها في الملبس، والحلي، و٣٠ مثلها علي السواء، و٦٠ دونها دون شك. فلماذا لا تقيس السيدة نفسها إلى تسعين سيدة؟ بل تقصر نظرها علي عشر فقط فتحرم نفسها لذة حضور هذه الحفلة في شدة شوقها إليها. فأجابت: كل هذا لا يهمنى، بل يهمني فقط أنني غير ذاهبة إلى المرقص... فتأمل.

وربما رأى بعضهم أننا قد خرجنا عن موضوع البحث في أسباب قعود البنات، وتقاعد الشبان. في حين أننا لم نخرج من هذه الدائرة، وإنما أوردنا

الحكايتين عن رجل متزوج، وامرأة ذات بعل؛ ليعلم القراء أن الاعزاب ينظرون إلى هذه العبر فيحزنون، ويحجمون.

والآن فإننا موردون للقراء بعض الحجج التي تحتج بها البنات، ويتذرع بها الشبان أولئك للقعود في البيوت، وهؤلاء للجلوس في القهاوي. فقد أخذنا مرة علي فتاة من الدرجة الوسطى رفضها الزواج بشاب مهذب حسن الأخلاق، فقالت: عجيب منكم أن تريدوا مني الرضا بهذا الفتى، وهو مستخدم ذو راتب شهري معين. وما أراه إذا تزوجت به إلا مطالبا أياي بأن اهتم له بغذائه، وارفا خرق ثوبه...

وسمعنا مرة أخري فتاة غيرها تقول: لا أريد فلانا علي ما أعلمه من تمام آدابه، وحسن سلوكه؛ لأن له في البيت أختين. فلم نملك أن قلنا لها: إذن فأنت تنصحين لكل فتاة أن ترفض الزواج بأخيك أنت وأختك معه. فصمتت.

وغير هاتين الفتاتين كثيرات يرفضن الزواج؛ لأن الذين يطلبونهن ليسوا من "الأغنياء العظام، ولا الأمراء الفخام". أما الشبان فلسنا نخشى أن نقول لهم الحقيقة وإن كانت جارحة، وكيف نخافهم وقد عرضنا بأنفسنا لسخط السيدات؟

الشبان عقبة كبري في هذا السبيل، فإننا نرى الشاب في هذه الأيام لا يريد أن يسمع للزواج ذكرا إلا إذا كانت الفتاة التي تعرض عليه بارعة الجمال، كثيرة المال، ذات علم واسع و... غير ذات أم.

ومما سمعناه يوما من أحد الشبان اعتذارا عن بقائه عزبا وهو قد جاوز سن الثلاثين: "أنني الآن أسافر في الدرجة الثانية، وأسافر إلى سوريا لقضاء الصيف، فإذا تزوجت لم يبق في وسعي أن أسافر إلا إلى أوروبا وفي الدرجة الأولى"

وقال صديق لنا كنا نحترمه كثيرا فسقط علي رأي المثل من عيننا: "لا أتزوج إلا بامرأة ذات ثروة عظيمة، فأجري المركبات، واسكن القصور" ولماذا؟. لأنه موظف الحكومة.

وقال ثالث- وهذه ثالثة الأثافي- وصاحبنا مستخدم عند أحد المحامين، ولا يتجاوز دخله خمسة عشر جنيها في الشهر: "بلى أريد أن أتزوج، لكنني انظر فلا أرى بين كل هؤلاء البنات من تليق بي" اللهم لطفك يا رحيم.

ولو شئنا أن نورد كل ما سمعناه من هذه الأقوال السخيفة لاضطررنا إلى وضع مؤلف خاص. وبالجملة فإن سبب الحالة التي نحن فيها نوه المعيشة التي صرنا إليها. بحيث لم يعد أحد يرضى بالمعيشة المتوسطة، بل يريد كل واحد منا أن يجاري من فوقه في البذخ، والإسراف. فالمهر وإن يكن علة كبرى في المسألة التي نحن بصددها إلا أنه ليس السبب الأصلي، وإنما الداء الحقيقي ما ذكرناه من نظرنا إلى من هو فوقنا دون الاكتراث لمن هو دوننا.

فليقم منا أناس ذو غيرة، وحمية، وحسن إرادة لإصلاح هذا الاعوجاج، ونحن الكفيلون لهم بأن أكثر الناس يتبعونهم في هذا السبيل الحميد؛ لأن السامة من حالنا قد بلغت حتى المسببين لها.

ولسنا نزعم أن نساءنا وفتياتنا كلهن علي هذه الصورة، فإن بيننا كل امرأة وفتاة تزري آدابها الغراء بعقود الجمان، بل بقلائد الحسان، ونحن قد عرفنا من نسائنا كل أم، ومن فتياتنا كل شقيقة تحمل خلالهما الحميدة، وصفاتهما الكريمة علي الترنم بقول الشاعر:

ولــو كــل النســاء كمــن "رأينــا" لفضــلت النســاء علــي الرجــال

فقد جمعت كثيرات من نسائنا إلى الأدب العربي أجمل الآداب الأوروبية،

مما أكسبهن إياه العلم، والتربية الصحيحة. ولكن سوء الحظ جعل هذا العدد الأقلية التي لا يرجع إليها في الحكم علي أمة، والكلام عن شعب؛ ولذلك ترى في كلامنا من التعميم ما لم نكن نحب أن نعمد إليه.

هذا فيما يختص بالزواج والتربية عند نصارى الشرق، أما المسلمون فحالهم غير حال هؤلاء؛ لأن المرأة عندهم غير متعلمة ولا متحررة؛ فلذلك تشعر هي من نفسها بأنها من جملة متاع البيت، فلا تعرف للزوجية شأنا، ولا للأمومة مقاما.

ولما كان الرجل يخطب امرأته، ويعقد له عليها وهو لا يعرف صورتها؛ لأنه ما رأى قط وجهها، ولا درى شيئا عن أخلاقها؛ إذ أنه لم يجالسها، ولم يحادثها، كانت العيشة الزوجية في غالب الأحيان غير هنية، ولا رضية. ونحن نترك الكلام هنا لأصحابه الجديرين به، ومنهم صاحب كتاب "تحرير المرأة"، فقد أجاد في هذا الصدد بقوله:

"بينا فيما سبق أن جميع المذاهب في اتفاق علي أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها، وذكرنا حديثا عن النبي صلي الله عليه وسلم أمر به أحد الأنصار أن ينظر إلى خطيبته، وهو قوله: "انظر إليها، فإنه أحري أن يؤدم دم بينكما" فما بالنا أهملنا هذه النصيحة علي ما فيها من الفائدة، مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها في الأهمية؛ ذلك لأن الجاهل من عادته أن يميل إلى ما يضره، وينفر مما ينفعه.

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمي العقل قبل أن يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معا، وأن يختلطا كمال الاختلاط. أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشتري خروفا، أو حتا قبل أن يراه، ويدقق النظر في أوصافه، ويكون في أمن من ظهور عيب فيه. وهذا الإنسان العاقل نفسه يقدم علي

الزواج بخفة، وطيش يحار أمامهما الفكر.

لعلك تقول أن المرأة ترى خطيبها من الشباك مرارا، وأن الرجل يعرف بواسطة أمه، أو أخته أوصاف خطيبته: مثل سواد شعرها، وبياض خدودها، وضيق فمها، واعتدال قوامها، ورزانة عقلها، وما أشبه ذلك. فيكون عنده علم بما هي عليه من جمال. وشمائل –نقول هذا قد يكون–. ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما، ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل إلى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس، وتتعلق بها وبنسلها الآمال. وإنما الذي يهم الإنسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقا حيا يفكر، ويتكلم، ويفعل. خلقا يجمع من الشمائل، والصفات ما يلائم ذوقه، ويتفق مع رغباته وعواطفه"

وقال في موضع آخر:

"قال الأعمش:" كل تزويج يقع علي غير نظر فأمره هم وغم"

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد، تنحل لأول عرض يطرأ عليها. وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة منهما في الخروج من قيد لا يرى وجها للمحافظة عليه، والتنصل من أمر لا قيمة له في نفسه.

وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجته، فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوي قرابتها. أما حرمانها من النظر في كل ما يختص بزواجها، وقصر الرأي في ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب.

قضت العادة عندنا أن يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذي خطبها، فلا يصلها خبر عن صفاته، وأخلاقه، ولا تسأل هل تحب الاقتران به.

ولا يبحث أحد عن ذوقها، ورغبتها، وميلها، وهي لا تجد من نفسها جرأة علي أن تبدي ما في ضميرها. ويري الناس أنه لا يليق بالمرأة أن يكون لها صوت في أهم الأشياء لديها، فيعطي القريب، أو البعيد رأيه في زواجها ما عداها، ويظنون أن هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب. وهم مخطئون فيما يظنون.

وعدا ما يؤدي إليه الزواج دون تعارف سابق من عدم الألفة بين الزوجين، وهناء المعيشة البيتية. أنه يؤدي طبعا إلى أمرين آخرين، كلاهما هادم أركان العائلة، وكلاهما مقطع أوصال الرابطة البيتية، ونريد بهما تعدد الزوجات والطلاق.

أما تعدد الزوجات فلا مشاحة في أنه من أضر العادات وأشدها عملا في انحطاط الشرق. وقد أشرنا في فصل العائلة من هذا الكتاب إلى أضرار تفرق العواطف، وتوزع الشعائر والوجدانات في البيت الواحد، فلسنا نطيل الكلام في هذا الموضوع.

ولكننا نحمد الله علي تنبه أخواننا المسلين –ولاسيما الجيل الناشئ منهم– إلى خطارة هذه المسألة، فقد عمد كثيرون منهم إلى الاكتفاء بزوجة واحدة، والتصميم علي قضاء الحياة معها دون شريكة أخرى سواها.

ونحن نعرف كثيرين منهم قد جروا علي هذا المبدأ القويم سواء في مصر، أو سوريا. حتى أن في مدينة نابلس على مقربة من القدس الشريف عائلة هي أعظم عائلات تلك البلاد نسبا، وحسبا، وأكثرها عددا، وأجسمها ثروة، لا يتزوج أبناؤها إلا بامرأة واحدة، وهم لا يطلقون، ومع ذلك فإنهم من أشد المسلمين استمساكا بدينهم، ومن أبعد الناس تعصبا للإسلام.

أما الطلاق فيكفي في شجبه ما نقل عن لسان أئمة الدين الإسلامي من

الحديث القائل: أن الطلاق أبغض أنواع الحلال عند الله. فإذا كان الله تعالى يبغض الحلال إلى هذه الدرجة فما أجدر العقلاء والذين يلتمسون مرضاة الله أن يعدلوا عنه.

والطلاق فيما خلا ذلك ذو تأثير عظيم في النسل، وفي آداب الشعب وجامعته الوطنية، وأسباب تقدمه. وقد أثبت الإحصاءات الأخيرة التي جرت في القطر المصري أن كل أربع نساء يتزوجن يطلق ثلاث منهن وتبقى الرابعة فقط، ولا يخفي ما في ذلك من الضرر.

ونحن لا نتعمد الإطالة في الكلام عن هذين الموضوعين الخطيرين فقد، وفاهما غيرنا من كتاب الإسلام حقهما وهم أحق منا بالكلام عنهما.

علي أننا لا نملك أنفسنا عن تسديد سهام الملام إلى أولئك الذين يصبحون، ويمسون وهم يفكرون في وسيلة تمكنهم من الطلاق ليعيدوا أمر الزواج علي بدءه، ويجددوا للطرب آلات. وقد قال أحد كتاب المسلمين في هذا المعني قولا خليقا بأن يكتب بماء الذهب، وأن يكون عبرة لكل من يريد أن يعتبر. ونحن نجعله ختاما للكلام في هذا الموضوع، علي رجاء أن يفيد نشره وهو "أرذل الرجال سيرة، وأفسدهم أخلاقا، وأحطهم نفوسا هم الذين يتزوجون ليطلقوا، ويطلقون ليزوجوا" والسلام

الغنى الحقيقي:

يبلغ دخل زيد الاسكندري في الشهر ٥٠ جنيها، ولكنه ينفق ٥٥ جنيها.

ويبلغ دخل عمرو الاسكندري أيضا ١٠ جنيهات في الشهر، لكنه ينفق منها ٨ جنيهات فقط. فأي الاثنين الغني وأيهما الفقير؟

إننا إذا نظرنا إلى الأمر نظرا مجردا عن كل اعتبار وقياس توهمنا أن من كان

دخله الشهري يبلغ ٥٠٠٠ قرش صاغا لهو الغني بإزاء الذي لا يتجاوز دخله الألف قرش.

لكننا إذا أمعنا النظر، وبحثنا في عواقب الأمر ونتائجه، حكمنا دون تردد أن الغني منهما ليس أكثرهما إيرادا، بل هو ذاك الذي يصل إلى آخر الشهر وقد زاد دخله علي نفقته ولو زيادة قليلة.

والذي نراه –ويسومنا أن نراه– أننا نحن بني الشرق لا نحسب في هذه الأيام لهذه المسألة الخطيرة حسابا، بل يقوم المستخدم منا وراتبه مقرر معلوم فيبدأ بالإنفاق منذ غرة الشهر دون حساب ولا تقدير. فلا يبلغ منصف الشهر إلا وقد فرغ جيبه من كل أصفر وأبيض، فيضطر إلى الاقتراض علي راتبه، وممن يقترض المستخدم، وبأي ربا...

ولو شئنا أن نطيل الكلام في هذا الموضوع لما وقفنا عند ذكر المستخدمين والعمال، فإننا نرى أبناء الأسرة الغنية يبدءون منذ غد وفاة الأب الذي جمع لهم المال بكد يده، وعرق جبينه بالتبذير والإسراف، فلا تمضي عليهم بضعة أعوام إلا وقد أصبحوا أفقر من الفقير الذي يمد يده للسؤال. لأن السائل أغنى من الذي كان غنيا فذهب ماله في سبل البذخ العتاق، ويتوسد الأسرة الناعمة، ويلبس ما هو أنعم من الحرير مخافة أن يدمي لمس الحرير بناته لأفقر من كل فقير، وأشقي من كل شقي متى رأى نفسه في غير المنزلة التي كان فيها، وهو لا يقوى علي العمل الذي يقوم به أبناء الدرجة الوسطى، أو الطبقة العاملة.

فرحمة بأنفسنا يا بني الشرق، ومن الحكمة أن ننظر إلى الغربي في معيشته وحسن تدبيره. فإننا نري العامل الفقير مثل الغني الثري، لا يمضي عليه النهار حتى يكون قد استودع صندوقه ولو درهما من دخل يومه، يدخره لساعة الحاجة، أو يوفره لابنه من بعده.

وقد قال المثل العامي: "علي قدر بساطك مد رجليك". وفي هذا القول عبرة لذوي الألباب، فإن الرجل منا إذا مد رجليه إلى أطول من بساطة وقعت علي الأرض، وهكذا زيد الاسكندري إذا كان دخله في الشهر ٥٠ جنيها، ونفقته ٥٥ جنيها، فأنه فقير لا محالة. بخلاف عمرو الاسكندري الذي ينفق ٨ جنيهات من دخل عشرة في الشهر، فهو الغني الذي يجب أن نتشبه به، ونجري علي خطته.

الفصل الثلاثون

راية استقلال

نجعل ختام الكلام عن العلم والتربية في الشرق قصيدة غراء، أتحفنا بها حضرة صديقنا الألمعي، والشاعر المصري المنقدح الزناد نقولا أفندي رزق الله. وقد جعل عنوانها "راية استقلال"، واتخذ في سرد معانيها الرائقة المبدأ السامي الذي اتخذناه مذهبا لنا في هذا الكتاب من الحض علي ورود مناهل العلم الصحيح، واتباع طرائق التربية الحقيقية؛ ليكون ذلك سبب استقلال باهر للشرق. فلذلك جعلناها ختاما لكتابنا، وهي بمعناها الرائق ومبناها الشائق:

حـــدثونا عـــن شـــرقنا بحـــديث	عهـــده لـــيس في العصـــور الخـــوالي
قـد مللنـا حـديث هنـد وسـلمي	ومللنـــا الوقـــوف في الأطـــلال
نحـن عـرب لكـن مـا نحـن فيـه	فـــات أجـــدادنا الكـــرام الأوالي
دولـة العـرب أشـرقت واهتـدت	بالعلـم، والغـرب في دجـى وضـلال
حفظـت منـه للأعـاجم أشـياء	وزالـــت أشـــياؤها كالخيـــال
يا بـني الشـرق عصـرنا لـيس يغـني	القـول فيـه شـيئا عـن الأفعـال
أيهـا القـائلون مـاذا فعلـتم	فلقـــد طـــال عهـــدنا بالمقـــال
أنـت يا مصـر هـل تـرجين حـلا	بعـــد حـــين لعقـــدة الاحـــتلال
قبـل عهـد المسـيح كنـت فتـاة	ذات حسـن يسـبي عقـول الرجـال

ثم مـا زلـت بعـد ذلـك حسـنا تحليـــت بقلبهـــا، والجمـــال

بـك كـم مـر في الزمـان غـزاه ســلبوا منــك حيلــة المحتــال

لم يعــود بَنــوك إلا خضــوعا وامتثـــالا لطالـــب الامتثـــال

تاجــر الأجنــبي فيــك بــربح عاجـــل نالـــه بـــلا رأس مـــال

وبنــوك الكــرام كلهــم أصــبح يشــكو خوفــا مـــن الإقــلال

أمــة أنــت أم عليــك مــن الله قضــــــاء بالــــــرق والإذلال

لا لعمــري فقــد رأيــت زمــانا تهــت فيــه بالعجــب، والاختيــال

إنباتنــا بــه الرســوم البــواقي فعرفنـــا منهـــا حيـــاة البـــوالي

أيــن منــك الــذين شــادوا مــن الأهـرام مـا لا تقـوي عليـه الليـالي؟

كسف الجهل وجه شمسك فأصفر ومالــــت أنوارهــــا للــــزوال

أوهـن الجهـل قـوة لـك كانـت فوهـــت بالخمـــول، والانخـــذال

صـرمت حبلـك المعـارف دهـرا فاسـتعيدي منهـا زمـان الوصـال

وانهضــي نهضــة بشــبان هــذا العصـر تـدني إلى العـلا، والكمـال

وأقيمــــي جمعيــــة يتــــولى شــأنها كـــل ســـيد مفضـــال

ولهـــا قائــــد حكــيم إذا مـــا هـــي شـــاءت يقودهـــا للمعـــالي

وأجلــي يا مصــر قــدر كتــاب دون أقوالـــه عقـــود الـــلآلي

سـوف تحيـي أن كـان فينـا حيـاة فاهتـــدينا بأحكـــم الأمثـــال

ورخيص قـدر الكـلام مع الجهـل ولكنـــه مـــع العلـــم غـــال

أيهـا الشـرقيون هـلا رأيـتم أن أبنـاءكم بأسـوأ حـال

هـذبوهم، وعلمـوهم، وربـوهم وكونـوا لهـم أجـل مثـال

قبـل أن تنفـذ المطـامع فـيكم قبـل أن يصـبحوا بـلا آمـال

أنـت في حاجـة إلى العلـم يا مصـر فجـدي إليـه سـير الرجـال

واطلبيـه بهمـة لـيس فيهـا أثـر للإمهـال والإهمـال

والبسـي تاج قـوة، واتحـاد تشـتهي الانتظـام فيـه الـلآلي

وارفعـي بعـد ذاك رايـة مجـد هـي إن شـئت رايـة اسـتقلال

االفهرس